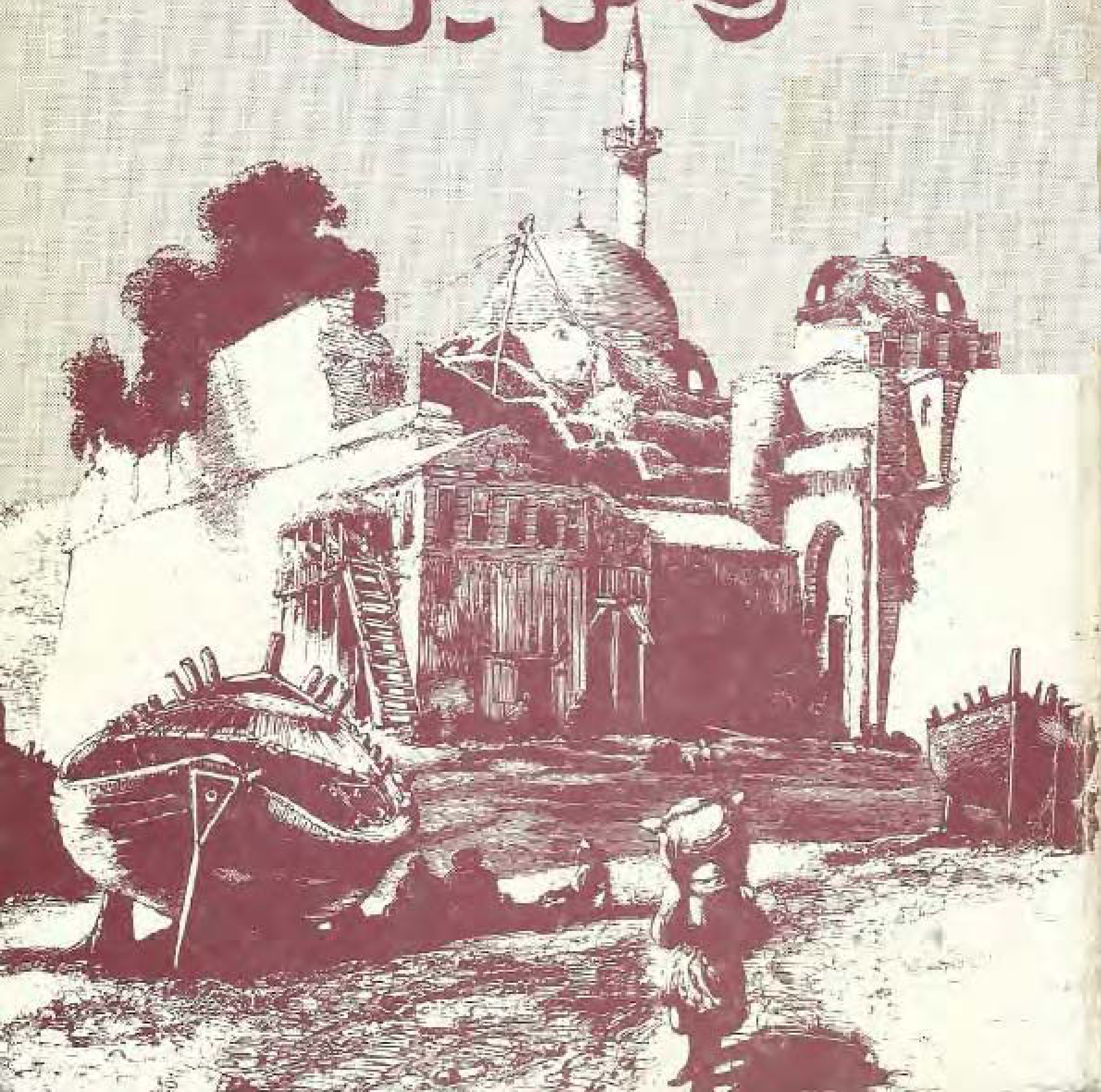
الياس أنيس خوري

عكا... والرحيل



التي منها تعلمت معنى الوطن .. أمي

الغلاف : للفنان عبد المعطي ابو زيد

مدخل إلى عكا

يزعم العكاويون أن القدر أبى على خديجة الصالح أن تكون حياتها طبيعية سوية مثل معظم خلق الله ، أي أن تولد وتعيش وتتزوج وتخلف وتربي أجيالاً صالحة ومن ثم تموت ، وكفى الله المؤمنين شر القتال !

الذي حدث هو أن المذكورة شذت عن القاعدة ، وصارت محور أحداث حقيقية وأخرى مفتعلة استأهلت بها أن تدخل التاريخ غير الرسمي ، غير المدون ، لتلك المدينة الشهيرة المشهورة المعروفة سابقاً ولاحقاً باسم عكا ، عروس الساحل الفلسطيني .

أول المآخذ المثبتة على خديجة الصالح أنها أطلت على الدنيا في ليلة أدلهم فيها الخطب حتى دبّ في قلوب الناس الرعب ، ليلة اسودت سماؤها حتى شابهت الفحمة ، وزعقت عناصر الطبيعة فيها مطراً سيالاً وبرقاً وهاجاً وبحراً هائجاً مائجاً ارتفعت مياهه حتى طالت السحب ، ورمى الزوارق والفلوكات محطمة على الشاطىء ، بل وقذف بعضها الى داخل السور .

« تماماً كالأجواء العظيمة المرعبة التي ورد وصفها في ملخصات التراجيديات الانكليزية الشهيرة التي درستها خديجة في مدرسة البنات الانجيلية » .

تلك الليلة الموصوفة صارت ، حتى مجيء الجنرال اللنبي ، تقويماً يعتمده العكاويون لتأريخ الحوادث المهمة من ولادة وموت وزواج وطلاق وسفر ومعاملات تجارية والى ما هنالك .

ثاني المآخذ أن ولادة خديجة الصالح تعسّرت فأودت بحياة أمها الصبية

أمنة السنجقداري ، ذات الأصول التركية الطورانية ، ثالث زوجات الوجيه العكاوي المعروف وتاجر الأقمشة الشاطر فارس الصالح . ماتت زوجته الأولى قبل أن تنجب ، وطلق الثانية لأنها لم تنجب ، فجاءت أمنة لتضع له خلال خمسة عشر عاماً عشرة أولاد مات منهم أربعة وبقي ستة .

بكى فارس الصالح بحرقة وهم ينعون إليه امرأته الولود . أضرب ثلاثة أيام عن الطعام والكلام ورؤية الأولاد ، واعتكف في جناحه الشرقي مع صورة المرحومة الفحمية التي رسمها طوغلو أفندي مصور والي عكا الرسمي وحامل أختامه . بالطبع لم تكن الصورة تشبه السيدة أمنة لا من قريب ولا من بعيد . فطوغلو أفندي وضعها بناءً على وصف زوجها لأن التقاليد آنذاك لم تكمن تسمح للمصونات بأن يظهرن على الرجال . لكن الأرمل المسكين سرعان ما نضا ثوب الحزن وتصالح مع العالم بعدما اقتحم عليه خلوته صديقه أيهم المتولي يقرعه ويسأله هل فقد عقله وصار كالحريم يقعده الحزن فينسى حقوق نفسه عليه وحقوقه على العالم ؟ .

وإذ تصل الى تلك النقطة لا تستطيع العمة ازدهار إلا أن تزفر بحرقة .

- ما غلطوا لما قالوا أن موت الزوجة مثل ضربة الكوع

أما ثالث المآخذ فهو أن خديجة الصالح أصابت بنحسها ، كما ادعى العكاويون ، القابلة غير القانونية التي سحبتها قسراً إلى الحياة من رحم أمها ، الحاجة أم معروف الجيفاوية. فبعد عشرة أيام من تلك الليلة الموصوفة عثروا على المذكورة كالقربة منفوخة على شاطىء عكا عند قهوة الصيادين . ومن المفترض التفكير بأن الحاجة أحبت أن تسبح، بالرغم من البرد القارس، فغرقت، أو أنها قررت ، لسبب مجهول ، الانتحار ، أو أن بعض أقاربها الطامعين في ثروتها ، وكانت على ذمة الرواة من أغنى أغنياء عكا ، قتلوها بعد أن أدركوا أنها ستدفن معظمهم قبل أن يتذكر جل جلاله أن الوقت حان لدعوتها إلى جنته أو ناره . .

لكن الذي حدث أن بعض القوّالين العكاويين ، أولاد الكلب ، أشاعوا ان فارس الصالح قتلها ، أو اشترى من يقتلها ، انتقاماً لامرأته ، بعد أن اتهمها

طبيب العائلة اليهودي بأنها مسؤولة عن موتها . وكانت العصبية التي يشتهر بها فارس الصالح تبرر تلك الاشاعة الحقيرة ، فهو ، أو يظن نفسه ، سيد من سادات عكا الذين اعتادوا أن يأخذوا حقهم بيدهم ، وينفذوا عدالتهم بأنفسهم .

ويزعمون ، الدساسون الليئمون ، أن عكا تناقلت تلك الأقاويل المغرضة على نطاق واسع بحيث أنها وصلت إلى أذني الوالي نفسه وقائد شرطته ، لكن أياً منهما لم يسائل أو يكلف نفسه حتى عناء الايعاز بالتحقيق في الموضوع . ففي تلك الأيام البعيدة كانت الأمور في عكا فلتانة ، أي لا حكومة مثل الخلق ، ولا بوليس أو شرطة أو درك ، ولا طبيب شرعي ولا نظام . كان هناك فقط ذلك الوالي الباشا الحاكم في قصره سعيداً على دزينات الحرملك والسلاملك والغلمان والولدان وبعض بقايا الانكشارية المسؤولين عن حراسته الشخصية .

كل ما نتج عن موت الحاجة أم معروف الحيفاوية ، التي هي ليست حاجة ولا حيفاوية ولا أحد يعرف كيف التصق بها اللقبان ، أن الوالي وضع يده على دارها الأثرية بعد أن رفض الاعتراف بمدّعي قرابتها ، وباعها في مزاد علني إلى الثري اليهودي مرزوقي باشا . وتقول دراسة وضعها حديثاً أحد أحفاد مرزوقي ان الدار حوت تحفاً ومصنوعات يدوية شرقية ترجع الى أيام السبي الأول نهبها الباشا وبطانته ، بل وتؤكد تلك الدراسة ، اعتماداً على بعض مازعمه شهود عيان عكاويون ، أن زلم الوالي حفروا أرضية الدار وهدموا حيطانها بحثاً عن ثروة المغدورة ، فعثروا في خابية دبس على بضع مئات من العصمليات نهبوا ثلاثة أرباعها وأحالوا الى سيدهم بقيتها . وعلى كل حال صارت الدار لاحقاً أحد المعالم البارزة في المدينة باعتبارها أول عقار وضع اليهود يدهم عليه في عكا .

ولا بد أنكم لاحظتم أن الاشاعات والأقاويل والمزاعم كثيرة في عكا . هكذا كانت المدينة دائماً منذ صارت أشهر من نار على علم بعد أن فشل نابليون في احتلالها بالرغم من حصاره الطويل لها . واذا كان البعض يرجع ذلك إلى

بطولة وصمود أهل عكا الذين استعذبوا الموت جوعاً على تسليم عروسهم الجميلة سبية الى ذلك الجنرال الفرنسي القصير جداً والشهير جداً ، فإن بعض المؤرخين الحاقدين ، وهم بمعظمهم من حيفا ويافا، يزعمون أن نابليون العظيم ، هكذا يصفونه في أدبياتهم نكاية بعكا ، رفع حصاره عنها ليس بسبب صمود أهلها . ولا للطاعون الذي انتشر بينهم ، وانما لأن مخبريه وعيونه أبلغوه أن السفلس ، وقد يسميه المؤرخون الجدد الايدز ، منتشر في المدينة

وقبل أن تشتط بكم الأخيلة بعيداً يجب أن نذكر ان عكا في ذلك الزمن البعيد الذي ولدت فيه خديجة ، أي قبل أن يتوارد عليها الغرباء من يهود وانكليز ، لم تكن سوى بلدة ساحلية صغيرة تهجع على الشاطىء اللازوردي لذلك البحر التاريخي المسمّى أبيض متوسطاً ، تكثر فيها الخانات والجوامع والكنائس والمقاهي ودكاكين بيع الأنتيكات ، وتلتّف زواريبها وأزقتها على بعضها ، وتتلاصق البيوت التي يعتصم فيها بضعة آلاف من العرب مطمئنين على أنفسهم ويومهم داخل سورهم الشهير . فعكا لم تكن ، ولن تصبح أبدًا ، باتساع ورونق بيروت ودمشق والقاهرة وغيرها من أمصار العالم ذات الصيت الرنان التي سمع باسمها معظم خلق الله ، فحلموا بزيارتها أو بالهجرة إليها أو بأن يكون لهم مرقد عنزة فيها .

إلى ذلك كانت عكا مدينة شرقية متعصّبة بعاداتها وتقاليدها وسننها ونسائها وقوّاميها وقوانينها الالهية والموضوعة . فمثلاً البنت التي تعصي الذكر ، أباً كان أو أخاً أو زوجاً ، وتنتهك محرماته وشرفه وعرضه ، وطوله أيضاً ، يصبح قتلها واجباً اخلاقياً منزلاً يثير من مشاعر الفخر بقدر ما يهيّج من عواطف الكمد .

ولم يؤثر على ذلك الوضع واقع أن عكا كانت مدينة مفتوحة للعالم منفتحة عليه ، وأن الغزاة ، قدماء وجدداً ، مروا عليها بالعشرات ، يقتحمون أسوارها من البر والبحر ، يحرقون زرعها وضرعها ويقتلون ذكورها ويستبيحون نساءها ليخرج الى الوجود نسل محسّن تمتزج فيه كل أنواع وفصائل وألوان الدماء

الأمية . ولا أثر في ذلك الوضع أيضاً مجيء اليهود والانكليز يحملون معهم أطماعهم ومشاريعهم ونساءهم المتحررات السافرات ، ناهيك عن تلك الخزعبلات حول الديمقراطية والحضارة التي جاؤوا لنشر راياتها في ربوع فلسطين الخارجة لتوّها من ربقة العثمانيين

بالطبع كان لا بد لبعض العكاويات الحالمات الطموحات أن يتأثرن بتلك الأفكار المستوردة من عوالم بعيدة تخيّلن الدنيافيها غير دنيا والحريم غير حريم والذكور غير ذكور والحب غير حب ، ورحن يصغين بلهفة ، وهن بين المصدقات والمكذبات ، إلى قصص يهوديات وانكليزيات يعشقن الرجال ويغوينهم ويعاشرنهم معاشرة الأزواج دون أن يكن ، أو يصرن بالضرورة ، نزيلات بيوت الدعارة حيث توسم سواعدهن بدمغة الحكومة وتجرى عليهن فحوص دورية تحسباً من انتشار الاصابات السفلية بين السادة الرجال أبناء الوطن البررة وذخيرة الأمة والجهاد والمستقبل .

وبالطبع أيضاً كان لا بد أن تتورط حفنة من العكاويات المصونات في اقامة علاقات سرية حيمة مع حفنة من العكاويين العابثين المحظوظين ، لكن واحدة منهن لم تتجرأ قط على أن تجاري الفسق العلني الفاضح والمرعب لهؤلاء الأجنبيات اللواتي اعتادت خديجة أن تسمع العمة ازدهار تتحدث عنهن باحتقار واشمئزاز مستنزلة على رؤوسهن كل ما في قاموسها من شتائم ولعنات .

ـ يجب أن تكون عيونكن عشرة عشرة يابنات . لا تصدقن كل ما تسمعن وترين . العالم مليء بالأكاذيب والخدع . من أين جاءنا هؤلاء اليهود والانكليز يسّممون حياتنا وتقاليدنا الكريمة ؟ . حذار حذار والا كانت نهايتكن وبيلة كنهاية المسكينة أميرة .

وتروح تلفّق لبنات أخيها المشدوهات قصة مرعبة ، تجعل شعر رؤوسهن يقف ، عن المسكينة أميرة التي ذبحها أبوها لأنها عصته وخرجت على طاعته . لاحقها من حديقة البلدية الى خان الباشا وأمسك بها قبل أن تلجأ الى الجامع . وهناك ، تحت سمع وبصر أهل السوق ، انتقم للشرف المهان وذبحها ذبح

النعاج   هل يمكن أن يتخيلن ذلك المنظر . . ؟

ولا ينقذهن من براثن الذعر إلا رضوان الذي يصرخ في عمته أن تسكت عن أكاذيبها وتكف عن حشو رؤوس البنات بتلك الخزعبلات . هذه القصص صارت من الماضي . وتلتجيء خديجة إلى أخيها فيحملها بحب يطمئنها .

ـ لا تخافي يا خديجة . أيامك ستكون غير أيام عمتك الخرفانة . صدقيني . لن تكون هناك بنت تُقتل كالنعجة اذا عصت أباها وأحبت . الحب ليس حراماً يا طفلتي الحلوة . أو هو ما عاد كذلك . الدنيا تتغير والناس يتغيرون . نحن الآن أحرار . وستسطع شمس العرب من جديد على العالم . ستكونين حينذاك قد صرت صبية رائعة الجمال لا تقيدك الأغلال الحديدية لتقاليد تطبّعنا بها حتى نسينا طباعنا الأصلية .

وتلطم العمة ازدهار على وجهها تحذره من أن يملأ عقل الصغيرات بتلك الأفكار الهدامة المخربة . تهدده بأن تشكوه لأبيه وأن تستنزل على رأسه لعناتها المستجابة من رب العالمين ، فيسارع يسترضيها ويعانقها ويؤكد لها أنها ستظل الى الأبد عمته المحبوبة . ويروح من ثم يشرح لها ما هو خاف عليها . الحرب العظمى انتهت والعثمانيون ينزحون عن فلسطين حاملين معهم جورهم ومجاعاتهم ومشانقهم . والآن الجميع يتحدث عن عالم جديد تتحرر فيه كل الشعوب ، وتزول كل مظاهر الظلم والاستغلال . وعندئذ لن تكون هناك بنت تقتل لأنها أحبت ، أو تباع كالدابة لمن يدفع أكثر

تنظر إليه العمة ازدهار غير مصدقة ، لكنها لا تستطيع أن تخفي اعجابها وهي تقول :

ـ أتاريك فهمان يا مقصوف الرقبة

وتلتصق خديجة برضوان وقد سرها أن عمتها رضيت عليه ولن تلعنه أو تشكوه لأبيه .

لكن الأب الوجيه فارس الصالح ، لم يكن أبداً على مثل تلك الأفكار الجميلة المتسامحة ، على العكس كانت له سمعة ترعب كل حريم العائلة . امتاز

بصرامة وتقليدية حنبليتين في تعامله معهن . لكنه ، لسبب لا يعلمه الا الله، استثنى خديجة . ترك لها هامشا واسعاً من الحرية بالرغم من أنها راحت تتفتح ، كما توقع رضوان ، عن صبية من اجمل بنات عكا ، ويزعمون أجمل بنات فلسطين . لم يكن يخفي افتخاره واعتزازه بها ، ولا كان يتوانى عن صد كل من يحاول تحذيره من أن سلوك خديجة والحرية المعطاة لها قد يؤديان إلى نتائج لا تحمد عقباها . فقد كان واثقاً بها ثقته بنفسه .

ـ لكنه أكل أصابعه ندماً على ذلك

وبالرغم من أن خديجة كانت السبب المباشر في موت أمها ، امرأته الصبية المحبوبة الولود ، فإن فارس الصالح لم يكرهها ، ولا نفرت نفسه منها ، ولا رماها إلى أخته تربيها بعيداً عن عينيه ليبحث عن سلوى جديدة يغرق فيها همومه وأحزانه قبل أن يعثروا له على زوجة جديدة . الذي صار أنه أغرم بتلك الطفلة الشبيهة تماماً بأمها ، المرحة ، الخبيثة ، الجميلة كلعبة . وقد ظلت ، حتى اقترفت جريمتها الاخلاقية المنكرة ، جميلة كلعبة ، وهذا ما تظهره آخر صورة فوتوغرافية أخذت لها قبل أن تصير امرأة ، سواء بهروبها أو بزواجها من أحمد النجار . في تلك الصورة ، البيضاء والسوداء ، والتي التقطت في العام ١٩٣٠ ، وقفت خديجة باسترخاء وقد ثنت ركبتها اليسرى تتكىء بيدها اليمنى على مسند كرسي خشبي من طراز السلطان عبد الحميد . في صدرها وردة بيضاء وفي المعصم اسوارة ذهبية عريضة ذات فجاجة تدل على حداثة نعمة العائلة . الفم منفرج بعض الشيء تطل منه تلك الابتسامة الناعسة الخفراء التي تفتقدها صبايا أيامنا الراهنة . العينان ساهمتان في نظره جانبية حلوة كأنما هي تحاذر النظر إلى مستقبلها المضطرب الذي بات قاب قوسين أو أدنى . . نعم كما اللعبة بدت في تلك الصورة بشعرها الأسود الطويل المتماوج عقصته إلى الوراء بشريط أبيض معرّق ، وبذقنها ذات الغمازة التي يزعمون أنها فأل خير لصاحبها .

وهكذا صارت خديجة الأثيرة إلى قلب أبيها . رباها بنفسه كما لو أنه يكتشف معها ، وبها ، متعاً جديدة للحياة خفت عليه طويلاً . . تعلم ، وسط

ذهول واستنكار العمتين ازدهار وروحية ، أن يطعمها ويغير لها ملابسها ويسهر عليها الليالي إذ تمرض . كان يستمتع بتحميمها وبشراء ثيابها الجميلة الغالية . وكانت المصنوعات اليهودية والمستوردات الانكليزية قد بدأت تغزو سوق عكا . . صار يترك الصبيان في البيت ويصطحبها معه في معظم روحاته وغدواته ، وحتى الى المحل والقهوة ، منذ بدأت تتعلم المشي .

هل تكون هذه هي اللبنات الأولى التي تكونت منها شخصية خديجة الصالح المتمردة النمرودة الحالمة المثالية السليطة المتسلطة الوقحة الصريحة التي اغرمت بقراءة ألف ليلة وليلة دون تنقيح ، فتجمع أختيها وعمتيها لتقرأ لهن بعض أبذأ مقاطعها فتحمر وجوههن وتجحظ عيونهن . خديجة الصالح التي صارت في عامها العاشر الأمرة الناهية صاحبة الحل والربط في بيت فارس ، يخشاها ويحسب حسابها الكبار قبل الصغار . خديجة الصالح التي صارت أصغر عضو ينتسب الى الاتحاد النسائي بعكا لتشارك في المظاهرات والاجتماعات وتلقي الخطب الطنانة الرنانة تلهب نساء عكا حماساً وتصفيقاً وأحلاماً ؟

هل ذلك هو ما مهد البساط لخبطاتها الثلاث التي دخلت بها التاريخ غير الرسمي غير المدون لعكا قبل أن تبلغ العشرين من عمرها ؟ وكانت عكا ، يزعمون ، تعشق أمثال تلك الخبطات والأحداث والقصص ، لا تترك أمراً ، مهما صغر ، يمر دون أن تشبعه تحليلاً وتمحيصاً وتزويقاً . تصنع من الحبة قبة . تتنصت على الناس مختفية في كل زاوية وثقب ، ومتوارية وراء كل باب وشباك ، تتلصص على النساء والرجال في الحمامات والخلوات الحميمة . تقسو أحياناً في إصدار أحكامها على من يذنب ويتمرد ويخرج على المألوف ، لكنها في غالب الأحيان ترحمهم وتنسى سريعاً ما اقترفوه . فهي عكا الأصيلة الرائعة الراقية الأنوف ، تحب ناسها وتغفر لهم ضعفهم الانساني الفطري ، لا تحمّلهم أكثر من طاقتهم ، ولا تطلب منهم سوى أن يكونوا عكاويين أقحاحاً! .

- ١ -

كانت خديجة في السابعة من عمرها عندما اتخذ فارس الصالح ذلك القرار المثير والمستهجن بتسجيلها في المدرسة الانجيلية لتصبح بذلك أول طالبة في عائلة الصالح منذ طرد الله آدم ، عليه السلام ، إلى الارض . وقد ازدادت أهمية هذا الحدث - الخبطة لوقوعه في عز ما عرف باسم الثورة العربية الكبرى ، أي في وقت كان فيه العكاويون لا يفكرون بأكثر من تدبير لقمة خبزهم والاستمرار في الحياة ملتزمين بصراط مستقيم ، يسمّى حالياً الحياد الايجابي ، بين الأتراك من جهة والثوار العرب من جهة أخرى ، وذلك بانتظار أن تتبلور الأوضاع ويستطيع أحد الطرفين أن يحسم الأمر لصالحه ، فيعلنون مبايعتهم له .

قالوا إن رضوان ساهم في اقناع أبيه باتخاذ ذلك القرار . كان لا يملّ من الحديث عن أمور غير مألوفة مثل العدالة الاجتماعية والتحرر وصراع الطبقات والمساواة وحقوق المرأة . كان فارس الصالح يرفض هذه الأفكار بمعظمها . لكنه أبدى استعداداً مدهشاً للتساهل في موضوع خديجة بالاعتماد على سببين . الأول أن عديدين صاروا بدورهم يتحدثون عن العالم المتغير وعن الأحداث الخطيرة التي تنتظر فلسطين في ضوء التحركات الانكليزية واليهودية ، وعن ضرورة اعطاء المرأة بعض حقوقها . والثاني أن حفنة من العائلات العكاوية البارزة بدأت ترسل بناتها الى المدارس ، وآل الصالح ليسوا بأقل كرامة من هذه العوائل . فكان أن قرر فارس مواكبة هذه الموضة الارستقراطية الجديدة

وكان تاريخياً ذلك الصباح الايلولي المنعش عندما استيقظت العائلة كلها قبل شروق الشمس وقد استثارها الحدث كما لم يستثرها حدث سابق قط . بكت العمة ازدهار وهي تنال شرف ترتيب حقيبة خديجة المدرسية الجلدية التي انتفخت بالدفاتر والأقلام الملونة والكراريس وكتاب الأبجدية المصور . في الخارج ، عند مدخل التلة ، وقف باستعداد أبو فهيم وعربته الكارو وبغله العجوز بانتظارها ، كما وقف أحمد النجار على باب المنشرة يبتسم لها بسعادة وتشجيع . رافقها فارس

الصالح بنفسه يعلن لكل من يراه أن خديجة ذاهبة إلى المدرسة . .
ـ كانت أميرة بحق وحقيق . .

ولم تخيب خديجة أمل أبيها فيها . تفوقت منذ صفها الأول إلى أن حصلت على المتريك بامتياز ، بل بادرت إلى تدريس شقيقتيها ليلى وسعاد . ساعدتهما على فك الحرف وعلى تعلم قراءة اللافتات التي ستصير في لاحق الأيام أحد المظاهر التقليدية في عكا . كانت عينا فارس الصالح تبرقان ، بل وتدمعان سعادة وهي تطلعه بفخر على نتائج المذاكرات والامتحانات . الأولى دائماً وبالعلامة الكاملة . آه كم كانت تثير في النفوس من مشاعر الغبطة والافتخار

خبطتها الثانية كانت في خلعها الملاءة والإسفار عن وجهها الجميل مكتفية بحجاب شرعي لم تهتم أبداً بأن يخفي أذنيها وعنقها وكل شعرها . . كيف تساهل فارس الصالح الي هذه الدرجة وعكا لم تكن إلا في سنة ١٩٢٥؟ حدث ذلك يوم ذهبت إلى منزل الست الفت الزيتوني لتشارك في أول اجتماع نسائي بصفتها عضواً جديداً في اتحاد المرأة .

لطمت العمة ازدهار على وجهها المتغضّن ووقعت مقلتاها من محجريهما وخديجة تتبختر أمامها كراقصة باليه بملابس لم ترتدها قبل ذلك التاريخ في عكا سوى الانكليزيات واليهوديات وبعض المسيحيات . أمسكتها ازدهار من كتفها وصرخت فيها بغضب تهددها بأن أباها سيذبحها . تحررت منها خديجة بعنف وهي تقول بانتصار .
ـ إنه يعرف وهو موافق .

لم تصدقها ازدهار . تراءى لها وكأن شاطىء عكا يهدر وتطلع منه الأسماك ميتة . انه الطوفان الذي لن ينجو منه أنس ولا جن ولا زرع ولا ضرع . فكرت أن تمنعها بالقوة ، أن تربطها بالحبال والجنازير وتغلق عليها كل الأبواب بكل المفاتيح . لكن من كان يجرؤ على مواجهة تلك الفاجرة ومعارضتها والتعرض للسانها السليط ، خاصة إن كانت صادقة في أن ذلك الأحمق الذي ذهب إلى المسجد يصلي ويتعبد ويستغفر ربه سمح لها بأن تسفر؟ وخرجت خديجة تهزّ

ردفيها باغراء مرعب وكأنها قحبة بنت قحبة ، فانطبق السقف على صدر ازدهار . وراحت تشكو مخاوفها لروحية .

هل خرف فارس الصالح ولم يعد يستطيع أن يحكم مملكته الصغيرة ويحافظ عليها من الانهيار ؟ . يجوز . . فهو صار في الخامسة والستين ، وهي سن حرجة بالتأكيد ! البنت لا تزال أصغر من أن تفهم أصول وتحقيدات الحياة ، ومن أن تدرك النتائج التي يمكن أن تؤدي إليها نزواتها ونزوات أبيها . . المدرسة ، اتحاد المرأة ، والآن السفور ، والله يعلم ماذا أيضاً ؟ أحقاً لا يستطيع ، أو انه لا يريد أن يضع حداً لطلباتها ، وأن يفهمها أنها بنت لا أكثر ولا أقل ، كل ما يجب أن تفكر فيه وتتطلع إليه هو الزوج والأسرة والخلف الصالح ؟ عارض أولاده الصبيان ، لا بل الرجال ، في ارتداء البذلات والطرابيش ، وحتى هو ، لولا بعض المناسبات المستجدة لما فكر أبداً أن يخيط بذلة ويرميها في الخزانة ليأكلها العث . . . ماذا سيقول الناس ، ماذا ستقول عكا؟

ولكم أن تتخيلوا ماذا قال الناس النمّامون الدساسون ، وماذا قالت عكا الثرثارة الخبيثة . لكن أكثر ما قيل تجريحاً لفارس كانت صفة السوقي التي أطلقها عليه وجهاء عكا الحقيقيون ، يعبرون بها عن رأيهم بذلك الشخص الدوني الذي يحاول جاهداً ترسيخ أقدامه بين أكابر القوم ووسطهم . على كل حال فإن تلك الأقوال لم تستمر طويلاً ، فقد بدأ الناس ، وكذلك عكا ، يعتادون على رؤية الوجوه السافرة المتبرجة والشعر المتطاير والسيقان الملساء المنتوفة . تماماً كما بدأوا يعتادون على الطرابيش والقبعات والقلنسوات والبناطيل والبذلات والرودنجوت ومظلات المطر والشمس والسيارات وجنود الانتداب بالشورتات والدبابات والطائرات والفرق الفنية تغزو كازينو عكا بحورياتها ذوات الصدور العارية والأفخاذ المرمرية الفاتنة .

هل كان عليهم أن يدركوا ، منذ هاتيك الأيام ، أن خديجة ستصبح تلك الشخصية القوية التي تقول (لا) بتحد وشمم يدفعان الدماء إلى رأس أبيها حتى يود لو يصفعها ويضربها ويمسح بها الأرض ، لكنه لا يفعل

هل يكفي ذلك كله ، أو بعضه ، ليزعم الكثيرون أنه كتب على خديجة أن تكون امرأة عاهرة فاجرة ، وليدعي القليلون أنها ، على العكس ، ولدت قبل زمانها، ونضجت قبل اوانها، فضاعت فرصتها في أن تكون ما يجب أن تكون .

هل يبرر ذلك كله ، أو بعضه ، خبطة خديجة الثالثة ، وهي هروبها من البيت ثلاثة أيام كاملة ، الله وحده وهي فقط يعلمان أين قضتها وماذا جرى خلالها ؟ .

نعم ، هربت خديجة الصالح ثلاثة أيام بلياليها ، ورجعت من ثم لتتزوج أحمد النجار وتنجب له ثلاثة صبيان مثلها في ذلك مثل أية امرأة مصون صالحة لم يتمرغ اسمها بوحل الاتهامات ولا شوّهت سمعتها الاشاعات . زعموا أنها تزوجته ، بالرغم من الفارق الطبقي والمادي الكبير بينهما ، ستراً لفضيحتها ، ولتحتمي به من عيون الناس . وكان يحبها ، أحمد النجار ، بجنون ، مثل حب قيس لليلى ، بالرغم من أنه لم يكن شاعراً ولا أمسك في حياته سوى قلم النجارة ، وللحب شؤون وشجون

عندما زعمت أنها أمضت تلك الأيام عند الست الفت سخر منها كثيرون ، ورفضوا تلك الحجة جملة وتفصيلاً . لم يصدقوا أنه لم يكن هناك حبيب مجهول هربت معه على وعد وأمل الزواج لكنه ضحك عليها كما يجب على كل رجل محترم أن يضحك على امرأة تثق بنبل نواياه وتصدق عهوده ، وبعد أن قضى وطره منها لفظها لفظ النواة ، وتلك تعابير بليغة استعملها كثير من الرواة العكاويين مصحوبة برنة موسيقية تسبغ على حكاياتهم جواً من الرقي الثقافي المألوف في قصص الزير وابن ذي يزن وعنترة . وبعد أن لفظها لفظ النواة عادت تجرجر أذيال الخيبة والعار الشنار

لكن تلك الرْواية ، بغياب شهود العيان الأربعة ، ظلت مجرد احتمال لا أكثر ولا أقل ، دحضه ورفضه بعضهم . قالوا إن خديجة لم تكن أبداً من ذلك النوع الساذج الحالم الرقيق من البنات اللواتي يمكن أن ينضحك عليهن ، أو أن يقعن في الفخ بسهولة . . صحيح أنها كانت متحررة أكثر بكثير مما يجب ، وأن

الدراسة والعمل الاتحادي وفرا لها ظروف الالتقاء بالجنس الآخر ، مما يسمح لها أن تقع في الحب وتعشق وتصبو بوقاحة وشوق إلى ذلك المحرم الذي لن تناله إلا بعد أن يُعقد عليها وتوطأ شرعاً . لكن ليس هناك ما يثبت أنها أحبت وعشقت وإلا لكان أحد المحيطين بها ، كالعمتين والأخوة والست الفت،لاحظ ذلك . فالحب لا يخفي نفسه ، وخديجة لم تكن من ذلك النوع الكتوم الانطوائي الحريص ، بل والقادر على إخفاء مشاعره وعواطفه بسهولة .

النقطة الثانية ، الأكثر الحاحا من الأولى ، كانت لماذا تغاضى فارس الصالح عن فعلتها النكراء ؟ . هنا أيضاً استحال العثور على جواب شاف . كان شرف العائلة يستصرخ الانتقام ، بل أن الذين يعرفون مبادىء وقيم وأفكار فارس، راهنوا أن ردة فعله ستكون على مستوى الفعل. فهروبها والرسالة التي تركتها على وسادتها الخالية يشكلان ، سواء لوثت الدماء القانية شرفها أو ظلت مختزنة وراء التخوم الوعرة ، دليل ادانة دامغاً على جريمة اخلاقيةَ الحكم فيها مبرم منذ أجيال وقرون . . لكنه وياللهول ، غض الطرف

ـ كيف يستطيع ذلك . من أين له الجرأة على الذهاب الى محله بعد الذي حدث . والى أين يهرب من عيون السوق وأهله ، وكيف يرفع رأسه بين الناس ؟ .

بدوره لم يخذلها أحمد النجار . صباح ليلة الدخلة خرج إلى الحمام مكوّراً بين يديه شرشفاً أبيض نصّفته بقعة صارخة من ذلك الدم القاني ورماه في جرن الغسيل دون اكتراث . كانوا كلهم بالمرصاد . طار الخبر من فم الى فم . بل وزعموا من بيت الى بيت . تكأكأوا على الجرن يعاينون بأم أعينهم ما يُفترض أنه دليل البراءة القاطع . ثم تجرأت العمة ازدهار على نقل ما خمّنت أنه خبر تاريخي الى أخيها .

حملق فيها فارس الصالح بغباء . ثم جحظت عيناه واحمر وجهه كقرص البندورة ، والبعض يقول مؤخرة السعدان ، وهو يصرخ فيها أن تغرب عن وجهه . التشييع والتشنيع بأنه دم جرح وليس دم بكارة لاقى بعض الأصداء ،

إلا أن هذا الرأي لم يعل نطاق الهمسات . نعم بحثوا عن جرح في يد أحمد وفي يد خديجة عندما دخلوا يباركون لهما في صباحية الدخلة ، لكن عبثاً . . سعاد ، اللئيمة والحقيرة ، قالت ان الجرح قد يكون في فخذه أو فخذها ، وراحت من ثم تفرقر بشهاتة مستحسنة فكرتها . غضبت العمة ازدهار ووصفتها بأنها نكتة سمجة تثير القرف .

ربما كان تصرف أحمد النجار طبيعياً لاغبار عليه ، لكنه ، بعد قليل من التفكير ، بدا لهم أخرق مسرحياً مفتعلاً عاجزاً عن الإقناع . ألأن الشك غلبهم في أنها لم تعد عذراء ، أم لأنهم لم يتوقعوا مثل هذا التصرف بعد كل الذي حدث ؟ رأى بعضهم أنه كان الأفضل لأحمد النجار أن يبقي هذا التقليد التاريخي على الرف . لكن هل كان قادراً على ذلك حقاً ؟ .

كانت عادة محرمة الدم ، دليل بكارة البنت وفحولة الرجل ، لا زالت متأصلة في النفوس راسخة رسوخ مؤسسة الزواج الشرقية . وهل كان هناك أبهج وأمتع من تلك الزغاريد الملعلعة الشرسة تطلقها أفواه الحماتين والكنائن وبنات الحموين والقريبات والجارات وهم يتخاطفن « الخرقة » التي سفح عليها قربان الدم المندور لمذبح رب الجنس والتناسل ؟ .

لكن لو أن احمد النجار التزم بالانفتاح الذي حمله الانكليز واليهود ، وتجاهل تمثيل ذلك المشهد الكلاسيكي ، أو لو أنه لم يكن هناك دم في الأساس ، وهذا ما كانت النساء المترصّدات ستكتشفه فوراً ، ماذا كانوا سيقولون ؟ هل أراد أن يؤكد براءة خديجة مما أسند إليها من تهم وأن يعيد لها اعتبارها أمام أبيها وذويها والناس وعكا ، فهو وحده العارف بالحقيقة ، أم شاء أن يخرس الألسنة عن المضي في لوك سيرتها إن كانت خطأ لوثت شرفها ، أم رام أن يبرهن أنه لم يغبن في زواجه بها ، وأن امرأته عذراء مصون لم تمسها يد قبله ؟ .

فارس الصالح ، الذي كان أكبر متباه متفاخر يمكن أن تعرفه عكا ، مغرماً بالوجاهة والتشاوف والتسلط ومكارم الاخلاق ، يسير مرفوع الرأس معتزاً بنفسه ملتزماً بقوانينا وتقاليدنا وأعرافنا النبيلة ، تحول بعد فعلة خديجة إلى تمثال

من الصمت والاكتئاب والهموم والانطواء . لم يعد جبينه يعرف إلا التقطيب ، وعيناه إلا السهوم ، انطفأ بريقهما كما لهيب شمعة هبت عليها ريح صرصر .

ـ هي وصمة العار ! . . هل هناك عار أكبر من أن تهرب البنت وترجع من ثم بكل وقاحة وصفاقة وحدها ولا يقتلها أبوها ؟ لو أنها رجعت مستورة برجل تطلب الصفح لكانت نصف مصيبة

لم يكتف فارس الصالح بعدم قتلها كما هو مفترض . بل انه لم يقل لها شيئاً ، لم يصرخ فيها ، لم يرفع عليها يداً . لكنه في الوقت نفسه لم يسمح لها بأن تبرر فعلتها وتدافع عن نفسها . يوم تجرأت واقتحمت عليه غرفته بعد أن وضعت بكرها عزت تسأله إلى متى سيظل يعاملها بطريقة تحقيرية وكأنها غير موجودة ، التزم الصمت المطبق . راحت تبكي وتقسم ان أحمد النجار دخل عليها بكراً ، وانها لم تقترف ما يشينها ويعيبه . لكن عينيه قالتا انه لا يصدق ، وحتى إن صدق فإن الأمر لم يعد يهمه لا من قريب ولا من بعيد

هل حقاً لم يعد يهمه ، ولماذا ؟ هاهي الأشهر تمر سريعاً ، وهاهي تتزوج وتنستر وتقيم معه وتضع طفلها الأول ، أفلم يحن الوقت لتصفو القلوب؟ . لكن قلب فارس الصالح لم يصف ، ولا يبدو أنه سيصفو . لماذا لم يقتلها ؟ كان هذا واجبه ، على الأقل كان عليه أن يحاول . ما هي تلك الظروف والاحتمالات والعواطف والمشاعر التي تراكمت وشكلت قيوداً كبلته عن معاقبتها حسب الأصول والأعراف ، ومن ثم ما هي المصادفات و الترتيبات اللا منظورة التي جعلت خديجة ، دون أبنائه كلهم ، تمضي عمرها معه ، باستثناء تلك السنوات الثلاث التي غابتها في أمريكا ؟ هل كان السبب حقاً أن تعجيلهما في الزواج لم يترك أمام أحمد النجار فرصة اعداد عشهما الزوجي ، ثم جاءت هجرتهما ، لتليها عودتهما في عز المشاكل المتفجرة في فلسطين ، فاضطرا أن يقيما في بيت فارس الصالح ، تحت جناحه ، عن قصد أو دون قصد . أو أن السبب أبعد غوراً من ذلك ، ويرجع في الحقيقة إلى العلاقة العضوية التي قامت بين خديجة والبيت الكبير ، فتعاملت معه دائماً باعتبارها سيدته وربّته

ويقولون ان بيت الصالح كان يمتطي تلة اللسان الشرقي لساحل عكا . بيت كبير واسع منيف بناه جدهم الثالث رضوان ، على ما تحكي أساطيرهم العائلية . كان أول بناء ، يزعمون ، قام خارج سور عكا ، وإلى شمال خليجها . بيديه العاريتين رفعة رضوان حجراً فوق حجر لا يعينه سوى زوجته فتحية وابنه فارس . أقاموا فيه فترةقصيرة قبل أن يفروا من عكا إلى الكفر إثر موجة من الاضطهاد العثماني في منتصف القرن الماضي . اوائل القرن الحالي رجعوا إليه . رّممه فارس الصالح وأضاف إليه طابقاً ثانياً زيادة في الوجاهة وتمشياً مع متطلبات العصر وتأكيدا لصعود نجمه في عالم التجارة والأعمال . كان البيت كبيراً إلى درجة أن الناظر إليه من البحر يخاله قلعة صغيرة من قلاع العصور الوسطى . حجارته سوداء ضخمة نحتتها بمهارة الأيدي البارعة . من جدرانه التي ألانها الملمس البشري تنبعث اشعاعات الطمأنينة والدفء والأمان .

. أمام تلك القلعة ، في ذلك الخريف الداعر من عام ١٩١٧ ، استعرض الجنرال اللنبي بفخر جنوده الأشاوس يخبطون الأرض بأقدامهم يتحدون العكاويين الذاهلين المكتئبين الذين لا بد أنهم تذكروا بحسرة الأيام المجيدة لفشل نابليون العظيم في اخضاعهم . جاء اللنبي بجنوده وحاخام يهودي الى يمينه يمد قبضته الى السماء معلناً انتصاره على عكا ونابليون والتاريخ

في تلك القلعة التي أطلت برونق واعتزاز على أجمل بقعة في عكا ، ويزعم آل الصالح متباهين في فلسطين كلها ، عاش فارس الصالح ملكاً غير متوج ، يحكم سعيداً على ماملكت يمينه من نفوس ، يتجبر أحياناً الى حد أن أحداً لا يجرؤ على العطس أمامه ، ويتواضع أنا إلى حد أنه يسمح له بالعطس بعد أن يستأذنه ! .

اعتاد أن يكون الآمر الناهي بصرامة . لا يقبل أي نقاش حول أي قرار يتخذه . وتاريخه حافل في هذا المضمار ، إلا أن أشهر قراراته كان طرده بكره رضوان وحرمانه من الارث لزواجه من راقصة انكليزية يهودية جاءت فلسطين أواخر العشرينات في عداد فرقة فنية لتقديم عروض ترفيهية لقوات الانتداب

والمواطنين .

تعرف رضوان على تلك الراقصة في كازينو عكا . وقع في حبائل ساقيها المرمريتين وقوع الفأر في المصيدة . لم يقع وحده ، بل كل من سمحت له مادياته بأن يرتاد ذلك النصف ملهى النصف ماخور يرتوي منه غداء روحياً فنياً لم تعرفه فلسطين قبلاً ، ويفرغ في أحضانه شحناته الجنسية وجيوبه العامرة . ويبدو أن رضوان واجه منافسة ضارية في سعيه إلى نيل ود المس سوزي ورضاها ، فلم يجد سوى أن يعقد عليها ليحتكرها لنفسه . عقد سراً ثم جاء يتوسط العمة ازدهار ، سفيرتهم التقليدية الى أبيهم ، لتظاهره في تجريع الخبر الى المذكور . بالطبع لم تجرؤ المسكينة ، فهي لا تراهن أنها ستخرج حية من عنده بعد مثل هذا النبأ . نصحت رضوان بأن يتخلى عنها ، فلما رفض اقترحت عليه أن يبقي الأمر سراً عن أبيه ، بل والأفضل أن يرحل معها إلى بلادها ومن هناك يرسل يخبره . لكنها لم تجد لديه أذناً صاغية . عندئذ طلبت منه أن يقلع شوكه بيده ، دون أن تنسى تحذيره بأن الموضوع لن يمر بسلام . سخر منها رضوان وبدا واثقاً جداً من نفسه . بل وأكثر مما يجب ، وهو يذكرها بأن الدنيا تغيرت ، وأنه صار في منتصف العشرينات ، ويمكنه أن يتفاهم مع أبيه رجلاً لرجل .

وتفاهما كالرجال . خيّره فارس الصالح بين أن يطلقها أو أن يغادر البيت الى الأبد محروماً من رضاه وميراثه ، وفضل رضوان ، بإباء وشمم ، الخيار الثاني .

ـ انكليزية ويهودية وراقصة أيضاً ؟ هذا ما كان ينقص آل الصالح . . سأحسب أن ليس عندي ولد

كادت خديجة تفقد عقلها عندما عرفت بالأمر . نزلت إلى عكا تبحث عن رضوان في خفاياها وزواريبها وخاناتها وفنادقها وزوارقها . ذهبت حتى إلى الكازينو تسأل عنه وعن الفرقة . لكن دون نتيجة . عندما رجعت مهدودة القوى وقد أسدل الليل ستاره وجدت أباها ينتظرها عابساً يسألها أين كانت حتى هذه الساعة .

قيل انها عاتبته بمرارة وحّدة . وانها بكت وركعت على ركبتيها ترجوه أن يصفح عن رضوان ويتراجع عن قراره . لكن فارس الصالح أصم أذنيه عن توسلاتها ، كما سبق وأصمّها عن جميع الذين توسطوا لاصلاح ذات البين بين الرجلين . قال لخديجة أن رضوان تغير كثيراً في السنوات الأخيرة ، صار رجلاً آخر غير الذي كانت تعرفه . ارتمى في حمأة الطيش واللهو والمشاكل ضارباً عرض الحائط بكل نصائح أبيه وتوجيهاته . هي لا تزال أصغر من أن تفهم تعقيدات الحياة وأبعاد الخلاف بينهما ، القضية ليست فقط زواجه بتلك الراقصة ، بل هي مشاكل تراكمت منذ سنوات طويلة ، وجاء الزواج ليكون القشة التي قصمت ظهر البعير

لم تقتنع . سألت عمتها تلك الليلة عن حقيقة المشاكل بين الاثنين . لكن ازدهار كانت عاجزة عن اعطاء جواب شاف .

غاب رضوان سنة وثلاثة أشهر في بلاد الانكليز مع زوجته الحسناء ، وعاد في صيف عام ١٩٢٩ والعنف يعم فلسطين فيما أصبح يعرف باسم ثورة البراق . كان فارس الصالح موقوفاً بتهمة التحريض على الإخلال بالأمن والمشاركة في الاضراب ، وكان ابنه الأوسط عبد العزيز متوارياً عن الأنظار عند بعض الأقارب في حيفا هرباً من ملاحقة الشرطة له لنفس التهمة .

عندما وصل رضوان إلى البيت لم يجد غير النسوة . سارع يزور أباه في السجن ، لكن هذا الأخير رفض مقابلته . لم ييأس رضوان . استفاد من تلك العلاقات التي أقامها في لندن ، ونجح بعد يومين في الافراج عن أبيه بكفالته الشخصية المدعومة بتوصية رسمية من أحد كبار ضباط الانتداب في عكا .

عاد فارس الصالح إلى البيت وهو غاضب بجنون . ادركوا أنه لو وقع رضوان بين يديه لاقترف جريمة . وكان هذا يعرف أباه جيداً على ما يبدو . لذلك لم يعد إلى البيت إلا مساء اليوم التالي بعد أن حسب أن الأمور لا بد هدأت .

استقبله فارس الصالح بهدوء قبل أن يتساءل بصوت هدر حنقاً . .

ـ رجعت لتذلني وتكسر رأسي يا ابن الكلب ؟

بغت ابن الكلب ولم يعرف بم يجيب . وبعد أن عثر على صوته قال بيأس واستسلام :

ـ آسف اذا كنت تعتبر الموضوع كذلك .

وسارع يغادر البيت ، وإلى الأبد ، ومن يومها لم يره أحد ثانية

ـ ٢ ـ

نيويورك ١٥ـ١٠

اليوم أنكرت أخاك ديب دون أن يصيح أي ديك . عندما وضع افرام جريدة المعاريف تحت أنفك يسألك ان كنت قرأت الخبر ألقيت نظرة سريعة على العنوان .

ـ قوات البحرية تعترض سفينة صيد قرب ساحل صيدا وتعتقل مجموعة من المخربين .

استغربت السؤال وقلت :

ـ الموضوع لا يهمني كثيراً ؟

ـ بالطبع لا يهمك . لكن أحد الموقوفين من عائلة النجار . ففكرت أنك قد تكون تعرفه

قرأت الخبر دون استيعاب إلى أن وصلت الى الأسم المعني . ديب النجار . لا بد أن في الأمر خطأ . لكنه ديب . الصورة المهزوزة المرافقة للخبر لا تقول إلا أنه ديب . لماذا لم يذكروا الاسم الثلاثي؟ انه ديب . . ذلك مستحيل . لكن استحالته لم تمنع سيخاً ناريا من أن يخترق رأسك وحلقك فيها ابر من العرق تتفصد من كل ما في جسدك من مسام .

ـ هه . . هل تعرفه . ؟ .

تسيطر على أعصابك وتقرر دون تفكير .

ـ النجار لقب تحمله أسر كثيرة في كل الدول العربية .

أنكر ديب بحقارة وأرجع الى ذلك الجحر الحقير أغلق عليه بابي لأختلي

بكأس وسكي وتلفزيون أدمنني حتى العصارة أحلم بنساء وأهلوس بديب وقمر وأنجم أطفأتها سحب ليلة باردة في سمفونية الهزيمة اليومية التي ادمنتها فكررتها الف مرة . وللمرة الألف يقف أمامي ذلك الماضي مبتدئاً بالألف المئة قبل الميلاد يوم بدأ بالضرورة دبيب الانسان الأول على ظهر البسيطة ليهدر صوت ذلك القسيس المتعصب من الشاشة الصغيرة يحذر بلسان الرب « ملعون أنت ونسلك أيها المارق إلى يوم الدينونة » .

أخرس التلفزيون وأحاول استعادة ومضة السكينة في ليل نيويورك المتنامي . أضع شريط فيروز الذي فيه سنرجع يوماً تدغدغني فأقشعر واصفن في اللاشيء حولي أجهل كيف ستنقضي الساعات اللانهائية . إذاك لا تعود هناك من معان محددة لأية قضية . يخرج الفرسان من بطون الكتب يحملون رايات فضفاضة ورماحاً دامية وسيوفاً مسلولة تعكس اشعاعات الشمس كما آلاف المرايا تملأ قبة السماء صارخين حيَّ على الجهاد فتنبسط الجبال وتمتد الأرض بلا أفق لتلوح النهاية دانية يمدون أيديهم يقبضون عليها ويضعونها في حرز حريز ثم يحفرون ماء البحر ويلقونها فيه ليبتعلها الحوت يضمها الى مقتنيات النبي يونس وأترابه الهاجعين في اللاحياة

الصحيفة بصورة ديب تتمطى أمامك تمد لك لسانها وتقفز إلى عقلك تدوّم فيه بجنون . لا تعرف أتبكي حتى تعتصر آخر قطرة دمع في العالم ، أم تضحك حتى يتمزق وجهك فتموت بغيظك ؟ ديب يرجع إلى اسرائيل ، عفواً فلسطين المحتلة ، مكبل اليدين تواكبه ثلة من جيش الدفاع . هل ضربوه ؟ يمكنك فقط أن تجزم أنهم لم يعانقوه

حلم دائماً أن يصير عسكرياً . . العسكر هم القوة والسلطة والجبروت.
ـ لو اننا هربنا ولجأنا الى دولة عربية كنت تطوعت في الجيش من سنتين وتخرجت الآن بنجمة واحدة . كل أربع سنين نجمة . بعد عشرين سنة وحربين مع اسرائيل يصير أخوك عميداً أو لواء ، بريغادير جنرال . لكننا لم نهرب . . غشم . بقينا في اسرائيل لنظل بقية عمرنا حطابين سقائين كما قررت الخنزيرة

الشمطاء .

عندما هرب ديب ظننت أنه يبحث عن ذلك الجيش الذي يصير فيه لواء ، بريغادير جنرال . هناك سيقف على تلك القمة التي يقولون انك منها تطل على فلسطين . . تقف باستعداد تمد روحك الى عكا التي يمكن أن تراها في مكان ما وراء الأفق .

ـ لو لم تكن روحنا طويلة لكنا انتهينا من قبل الخليقة . من اسرائيل الى الضفة فالاردن فالخليج فالسويد فالمانيا فلبنان ففلسطين . . على رمية حجر من عكا تقف . هل كان على ديب أن ينهي تلك المسيرة الماراثونية في جنوب لبنان ، وهل كان علي أنا أن أبدأ تلك المسيرة من نيويورك ؟ . انهم ينفلشون في العالم أفراد عائلتنا الكريمة . مشروع أسرة عالمية . لم لا والفلسطينيون صاروا شعباً عربياً أممياً كونياً ؟! عندما أرادت أمي أن تراسل خالتي ليلى تصورناها وراء مسجّل اذاعة اسرائيل تصرخ .

ـ أنا خديجة الصالح النجار أهدي سلامي إلى أختي ليلى في مخيم اليرموك بدمشق سورية . كيفك يختي وكيف أبو العبد والأولاد انشا الله تكونوا بخير وسلام . أحوالنا بخير والحمد لله . أبو عزت والاولاد يهدونكم سلامهم وأشواقهم . اشتقت إليك يختي . عزت تزوج وصار عنده ولد ياعيني عليه . ديب هرب ووليد في الجامعة يدرس الهندسة .

صورة هزيلة أثارت ضحكنا وأسانا . اكتفينا بأن نراسل إذاعة لندن نهدي خالتي ليلى أغنية سنرجع يوماً لفيروز ، لكنهم لم يذيعوا شيئاً ، إما لأن الرسالة لم تصلهم وإما لأن الأغنية غير مدرجة في برامجهم . ولماذا يدغدغون الفلسطينيين بحلم الرجوع يوماً إلى حيهم ليغرقوا في دافئات المنى ؟ .

هل صوت فيروز هو الذي يملأ ظهرك بالقشعريرة أم حلم الرجوع ؟ حدث ذلك يوم كان الحلم لا يزال كبيراً . كم يبدو كل ذلك بعيداً نائياً ، وكم تمر الأيام سريعة . لكن ليس هناك أسرع من أيام نيويورك . هل حقاً مضى عليك هنا سبعة أشهر ؟ لكأنها ساعات سبع ! .

شعوري بالغربة هنا لا يزال خانقاً . من كل مدن الولايات المتحدة لم يقدني حظي إلا الى نيويورك مملكة اليهود وعرينهم . لم أصدق نفسي عندما جاءني عقد العمل في الفرع الأمريكي لشركة المقاولات الاسرائيلية ـ الامريكية التي أسسها ممولون يهود وأمريكيون وعرب . أجر جيد وفرصة جديدة طالما رنوت إليها . . ولم أصدق نفسي وأنا اضع رجلي على أرض الميعاد الجديدة . لكني ها أنا ذا الآن أجترّ نفسي لوحدي في جحري الصغير . لم أعثر على شريك إن للألفة أو للتوفير . حتى عرب أمريكا صاروا أمريكيين أقحاحاً ليس لديهم وقت لأحد . . إن سارت أموري على ما يرام واستقريت في أمريكا ، وهذا ما أخطط له ، فسأعمل للانتقال إلى ديترويت حيث تقيم وفاء سعيدة هانئة . يقولون ان الحياة عندهم لا تختلف عنها في أية مدينة عربية . الشهر الماضي وضعت طفلها الرابع ونالوا الغرين كارد . يجب أن أزورهم أتعرف عليهم وأبارك لهم بالمولود الجديد . صار عندهم صبيان وبنتان . إن استمروا على هذا المنوال فسيضاعفون النسل الأمريكي قبل نهاية القرن

هل ضربوا ديب وأهانوه ؟ كبرياؤه وعنفوانه سيقتلانه من أول صفعة . ماذا كانت ستقول خديجة لو تراه ؟ .

ـ يحتاج الأمر الى أعصاب حديدية ليقرر واحدنا أن يهرب من اسرائيل . عليه أن يخطط وينفذ وينجح وإلا . . .

وهرب ديب يورثنا القلق وديونه ومخطوطاته السرية عن الحرب التي يجب أن يشنها العرب لتحرير فلسطين من اليهود .

عندما اختفى ذات يوم قامت الدنيا عندنا ولم تقعد . أمضينا الأسبوع الأول نبحث عنه من مخفر إلى مخفر ومن مستشفى إلى مستشفى ومن مدينة إلى مدينة . إذ فقدنا الأمل اتجه تفكيرنا إلى أن الشين بيت ربما وضعت يدها عليه لتورطه في نشاطات محظورة ، وما أكثرها . كان صاحب أفكار متطرفة لم ينجح دائماً في الاحتفاظ بها لنفسه . راجعنا كثيراً وطرقنا أبواباً لها أول وليس لها آخر وانتهينا الى تكليف محام اسرائيلي من جماعة حقوق الانسان بالتقصي عنه . وإذ

لا نصل إلى نتيجة أيضاً تبدأ المخاوف تساورنا في أنه قد يكون قُتل انتقاماً لشرف إيمان . وهل كان هناك أشهر من إيمان ومن شرفها آنذاك ؟ .

ـ المرأة مادة مجهولة لا تستطيع اكتشافها إلا بعد أن تصهرها بالجنس . مشكلتك يا وليد أنك تتعامل مع المرأة بمثالية فارغة لا بواقعية عملياتية!

كان وسيماً ، بل وفاتنا ، صاحب صولات وجولات مع الجنس الناعم . موهوباً في ايقاعهن بشباك سحره ينتقل بينهن كالفراشة بين الأزهار ، وأخصائياً في انهاء علاقته ساعة يعتبرها تجاوزت الحدود التي رسمها وأصبحت تهدده بالتزامات لا يريدها .

لكن إيمان ما كان يجب أن تكون كغيرها . كان عليها أن تبقى رمزاً للنقاء والطهارة ، وحلماً لكل شاب أن يلتقيها بثوب العرس وأن يطرح عنها طرحة العرس . كانت وحيدة أمها بعد أن قتل أبوها في معركة عكا . وفي رحلة النزوح الشهيرة على الطريق الساحلي بين عكا ورأس الناقورة تعرضت قافلتهاالقصف اسرائيلي . . أصيبت الأم بجروح خطيرة وتُركت على قارعة الطريق بعد أن حسبوا أنها ماتت . . . والتقطت عائلة من شفا عمرو إيمان وأخذتها معها إلى صيدا . لكن أم إيمان لم تمت . شفيت بمعجزة لتبدأ من ثم رحلة عذابها الطويلة قبل أن يعثر الصليب الأحمر على ابنتها في مخيم صيدا . وكانت رحلة العذاب الأطول والأضنى هي الحصول على موافقة السلطات الاسرائيلية على لم شملها . احتاج ذلك الأمر الى خمس سنوات كاملة . واستدرّت قصتها دموعا غزيرة على امتداد الوسط العربي في اسرائيل ، بل ونشرتها صحيفة معاريف تهلل لما أسمته انسانية اسرائيل وديمقراطيتهاوتجاوبها مع رغبات الجمهور العربي! .

سذاجة إيمان فاقت جمالها . لكن ديب لم يرحمها . علقت في شباكه وظلت مستعصية عليه إلى أن وعدها بالزواج . افترض أن علاقته معها ستنتهي إلى ما انتهت إليه كل مغامراته النسائية . لكن التعيسة حملت منه ولم تكتشف ورطتها إلا بعد أن ظهرت عليها عوارض الحمل .

كيف كان بامكانكم ان لا تصعقوا وإيمان وأمها تطرقان بابكم ذات مساء

تطلبان رؤية ديب؟ كان قد مرّ أسبوعان على اختفائه. بكت خديجة ولطمت على وجهها وهي تسمع قصتها . لم تعرف ماذا تفعل ولا ماذا ستقول . لم يكن في يدها حيلة . هل تصلح الشتائم واللعنات ما اقترفه الابن الضال ؟ شعرت أمام البنت وأمها وكأنها نملة مفروكة. لو انهم ابلغوها أنه مات لما كانت صدمتها أكبر.

كـان لا بد من اجهاض البنت قبل أن تظهر فضيحتها . ظننتم أنها السبب في هربه . لكنه أقسم في احدى رسائله انه كان يجهل أنها حامل . بل وشكك في أنه المسؤول . زعم أن فتاة في غباء إيمان يمكن ان تمنح نفسها لأي عابر سبيل .

لملمت إيمان وأمها فضيحتها ورحلتا عن عكا . وسمعنا لاحقاً أنهما غادرتا فلسطين كلها . انتابنا شعور مضن بالذنب لم نستطع أن نتخلص منه أبداً . فكرت بيني وبين نفسي أن أتزوج البنت تكفيرا عن خطأ أخي . بل وعرضت الفكرة على أمي . لكنها رفضتها قائلة ان تلك المشكلة لا تُحل بالواسطة .

بعد شهر بدأت الأخبار تردنا عن هروبه الى الضفة الغربية ومنها إلى الأردن . سافر أبي الى القدس ورابط أسبوعاً عند بوابة مندلبوم يسأل الرائحين والغادين عنه . هناك اكد له كثيرون أن ثلاث حالات هرب من اسرائيل وقعت في الفترة التي اختفى فيها ديب . وتنفسنا الصعداء . فالهرب أخف وطأة من الاعتقال والموت . وأخيراً جاءنا الخبر اليقين بعد ثلاثة أشهر بواسطة أحدى العائلات المسيحية التي زارت القدس الشرقية في عيد الميلاد . التقت في عمان بعض المعارف الذين قدموا لديب يد المساعدة في الحصول على جواز سفر والسفر إلى الكويت .

أف لديب . . ألن يحل قليلاً عنك ؟ لماذا أنكرته ؟ لا تعرف ، وربما لن تعرف . أنت لم تنكره . . تستطيع أن تزعم لنفسك أنك لم تجب على سؤال افرام . لماذا خشيت قول الحقيقة ؟ هل خفت على عملك في الشركة ؟ . .

اتصل بهيفاء أسألها عن الأوضاع فتبلغني بموضوع ديب . نعم قرأت الصحف. هوالآن في سجن الفارعة . أخفوا الأمر عن العجوز . لكن إلى متى سيظل الأمر خافياً ؟ أسألها متى ستأتي فتسألني إن كنت حقاً أريدها أن تأتي .

وهل هو وقت هذا السؤال الآن ؟ .

جعلتك تشعر أنك غبي أناني . ليس هذا وقته الآن . ومتى يحين وقته إذن ؟ يجب أن تأتي . مجيئها يعني استقراركما نهائياً هنا . . مشكلتك أنك لا تزال حتى الآن عاجزاً عن حسم الأمر . لو كان القرار لها لفضلت استراليا . على الأقل هناك أمها وأخوتها . وهناك أيضاً مرابع طفولتها . لكن استراليا تبدو لك جد بعيدة جد نائية وكأنها من كوكب آخر . . لهذا السبب على الأغلب اقتنعت باقتراح أبيك أن تأتي لوحدك تدرس الوضع وترتب أمورك . . في جميع الأحوال ما كان باستطاعتكما أن تتركاه وحده ولما تمر الأربعة أشهر على وفاة خديجة .

لم يخف العجوز ضيقه ، فاتهمك بأنك الهارب الغبي مثل ديب ، وبأنك تخيب أمله وأمل المرحومة فيك . لم تحاول أن تناقشه . لا يريد أن يفهم أن الفرصة لا تأتي الانسان إلا مرة واحدة في العمر ، فكيف اذا كانت الفرصة إلى أمريكا نفسها ؟ .

كالعادة قال انها خطتهم المدروسة لتفريغ فلسطين من العرب . العقد لم يأتني لسواد عيوني . قد يكون مصيباً ، أو هو مصيب بالتأكيد . لكن ما فائدةبقائي هناك في تلك اسرائيل ، عفواً فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ؟ . هل نسي أنه في السبعين ، أمد الله في عمره ، لكن مهما أمد فهي سنوات يقضيها بانتظار اللحاق بأمي ، أما أنا فماذا أمامي سوى سنوات تبدو لا نهاية لها ؟ لو أن الله رزقني بطفل لربما تغيرت الأمور

ـ ٣ ـ

لم يكن أحمد النجار يتميز بشيء يذكر إلا بنحافته المفرطة وحول عينيه وبقايا آثار الجدري في ذقنه . لكن ذلك لم يعن أنه كان دميماً . فهو لم يخل من جاذبية تنسجها نظراته الصريحة الصافية فيها هدوؤه وقدرته الحديدية على ضبط أعصابه ، لم يفقدها إلا في مناسبات نادرة ، تبعثان مشاعر السكينة والاطمئنان فيمن حوله .

في العشرين من عمره و ارى أباه الثري ، وورث عنه ورشة النجارة القائمة على كتف التلة ، حيث كان لا بد للداخل والخارج من البيت أن يتعثر غالباً بخشبها وجذوع الأشجار والسحاحير المتكومة هنا وهناك . أثار هذا الوضع الكثير من المشاكل بين فارس الصالح وأبو أحمد النجار . اعتبرها الأول ، الورشة ، اهانة شخصية لمقامه ، وقذى في عين التلة والبيت ، ومصدر ازعاج لا يحتمل . ساومه على شرائها فرفض . فكر أن يتقدم بشكوى على وجودها في منطقة سكنية لكن المبررات القانونية نقصته . هدده بحرقها فتحداه أن يفعل . أخيراً قرر أن يغير مدخل البيت . لكن العملية كانت صعبة وتكلف مبلغاً طائلاً . في النهاية استسلم فارس الصالح . رضخ للأمر الواقع لكنه لم يخفف قط حقده وتحامله على أبو أحمد النجار واحتقاره له ، كما لم يستطع أن يمنع خديجة من اللعب مع أحمد النجار في الورشة والتلة وعلى الشاطىء لاغية ببساطة مذهلة كل الحزازات والفوارق الطبقية المفترض أنها قائمة بين آل الصالح وآل النجار .

كانت مثيرة للدهشة تلك الصداقة العميقة التي قامت بين الطفلة خديجة والمراهق أحمد النجار بالرغم من كل مشاعر الا ستهجان والغضب والمعارضة التي عصفت بأبيها . إن ضاعت البنت فهي تلعب مع أحمد . إن زعلت وحردت فليس هناك سوى أحمد تسارع تبحث لديه عن الترضية والأمان والتفهم والاستيعاب . هو الذي يبتكر لها الألعاب ، ويلقط لها العصافير والسحالي والفراشات ويتحفها بآيات القواقع والصدف ويصيد لها السمك . وهو الذي جسد مشاعره نحوها بتلك الدمية الخشبية التي تشبهها ، والتي اعتبرتها الليدي اليزابيت بعد عشرين عاماً آية فنية **chef-d'œuvre** ! كان جاهزاً دائماً وأبداً لتلبية أكثر رغباتها ونزواتها نزقاً واستحالة ، حتى لو كان لبن العصفور .

صنّفه آل الصالح في فئة البسطاء السذج الذين ، حسب ادعاء عبد العزيز ، يشكلون ما يعرف باسم الرعاع . شخص لم تتملكه الشهوات وتحرقه الأطماع رضخ ، عن قناعة أو عجز ، لفقره وطبقته الدنيا ولاستغلال الأخرين له . قد يكون السبب أن طيبة قلب أحمد النجار تجاوزت الحدود المتعارف عليها

لطيبة القلب فيما بينهم ، إن في إيثاره الآخرين على نفسه ، أو في الخدمات التي يسارع يقدمها لهم طائعاً مختاراً . بعد وفاة أبيه صنع لفارس الصالح غرفة صالون اعتبرت بدورها تحفة من التحف ، ورفض أن يأخذ منه سوى قيمة كلفتها من خشب الصنوبر المتين . . هل كان يسنّ أسنانه في انتظار اللحظة المناسبة ؟ .

وحانت اللحظة المواتية عندما جاء وأمه ، بكل جسارة ووقاحة ، يطلب يد خديجة . لم يعرف فارس الصالح أيغضب أم يسخر ، يطرده أم يماطله ، يضع له حداً أم يأخذه بالسياسة . . من يمكن أن يتصور أحمد النجار ، ذلك الأحول النكرة شبه الأمي القابع في ورشته الحقيرة ، القانع بواقعه ، المؤطرة أحلامه ببيت صغير وزوجة يحبها وأطفال يرعاهم ، وهو يبني بخديجة الفاتنة المتعلمة الراقية ذات الحسن والدلال والجاه والعز ، الواثقة بنفسها إلى درجة الاستبداد ، القوية الطامعة في ان تمتلك الدنيا كلها ؟ ذلك فوق التصور والمعقول !

بعد استقبال فاتر صرفه فارس الصالح بالحسنى إذ قال ان البنت لاتزال صغيرة على الزواج ، فهي لما تبلغ السادسة عشرة بعد ، وتنوي أن تحصل على شهادة المتريك أولاً . ثم هناك اختها الأكبر سعاد ، ولبينها تتزوج هذه يفرجها الله .

عندما سمعت خديجة بالخبر ضحكت كما لم تضحك من قبل . قيل ان الاهانةالتي شعرت بها بخّرت من رأسها الصغير كل ما كان تبقى من دفء ذكريات الطفولة البريئة . بل وتقصّدت أن تجعل الموضوع مادة خصبة لتندرها وهزئها . وكانت تلك مناسبة مواتية لقطع جميع الصلات ، وبأمر حازم وصارم من فارس ، بينهم وبين أحمد النجار . عليه أن يفهم أنه غير مرغوب فيه الآن ودائماً .

بعد سنة تزوجت سعاد . بعد أسبوعين جاء أحمد النجار وأمه يعيدان الكرة . وجد فارس الصالح نفسه في ورطة . كان عليه أن يحسم الموضوع منذ المرة الأولى . لم يجد أمامه سوى أن يستمهله لبينما يستشيرها ، مؤكداً أنه لا يزال عند رأيه بأن البنت صغيرة على الزواج . هي لم تعد تريد المتريك فقط ، بل وتخطط للدراسة في الجامعة !. لكنها إن وافقت فهو موافق

وكان أن ضربت الأرض بقدمها بنزق كما يجب ، بل وطفرت الدموع إلى عينيها حنقاً لأنه فكر حتى بأن يطرح عليها الموضوع ثانية . العنوسة أرحم ولن تقبل به حتى لو كان الرجل الأخير في العالم . وكان أن صفق الباب بعنف في وجه أحمد النجار .

كيف لا يصفق وهي تهيء نفسها لتصبح السيدة الأولى في عكا سواء بتحصيلها العلمي أو بفعالياتها النسائية والسياسية ؟ . وكانت ظروف فلسطين آنذاك ، يزعمون ، توفر لها جميع الشروط التي تحتاجها . . الانتداب البريطاني ، اليهود وأطماعهم ، القبائل العربية المتناحرة ، الثورات ، الشعارات ، العواطف المتأججة ، التطور والحضارة ، الوطن والاستقلال ، وأخيراً ، لا آخراً ، المرأة وحقوقها وقضاياها . راحت خديجة تشق طريقها الى ذلك الأتون بواسطة الست الفت واتحاد المرأة . لم يعارض فارس الصالح طموحاتها وأحلامها طالما ظلت محصورة بنشاطات تقوم بها بعلمه وتحت إشرافه . وهكذا بدأت خديجة تغريدها المنفرد خارج سرب آل الصالح محاطة برعاية أبيها ، لا مبالية بانزعاج أخوتها وغيرة أختيها اللتين لم تعرفا من الحياة سوى تعلم الطبخ والتنظيف والمرابطة بانتظار زوج المستقبل الذي يختاره فارس الصالح بنفسه .

كان مثيراً للدهشة ألا يتزوج فارس الصالح للمرة الرابعة بعد وفاة أمنة ، إن لم يكن لفراشة البارد فلتربي أولاده الستة . اعتاد أن يجيب أن هناك ازدهار وروحية للأولاد ، أما الزواج فثلاث مرات تكفيه . دفن اثنتين من الثلاث ولن يتزوج رابعة تدفنه ـ لم يعرف أحد من أين جاءه هذا الوسواس الخناس بأن الرابعة ستدفنه . وقيل ان عرافة تركية وضعته في رأسه ـ ثم انه ، أضاف ، صار في حيطان الستين وشبع من الزوجات ومن مشاكلهن مع أختيه الحقودتين مما لم يكن يترك له ساعة راحة واحدة . لكنه كان كاذباً . فهو ، مثل اي رجل سوي في العالم ، لا يمكن ان يشبع من النساء ، ولا يستطيع ان يعيش دون مشاكلهن ودفئهن والفتهن وكيدهن . لذلك استعاض عن الزوجة بعاهرات عكا ، وبغير مصون من ذوات الخدور اللواتي كن يترددن على متجره للشراء فيقعن في حبائل

لبسانه الزرب ودماثته وشيبته الوسيمة وفحولته المتوثبة دائماً في عينيه ، كما قالت ذات مرة للعمة ازدهار احدى صديقاتها .

إلا أن أشهر علاقاته كانت مع الليدي اليزابيت ، أرملة ضابط انكليزي قيل انه قتل في حوادث عام ١٩٢١ في القدس . استطابت الحياة في عكا وبقيت فيها تستمتع بدفء شمسها واعجاب رجالها . وقع فارس الصالح في شباك هذه الأربعينية النضرة منذ اللحظة الأولى لدخولها محله . توطدت علاقتهما إلى درجة أنه ضرب بعرض الحائط كل التقاليد والأعراف والسنن ودعاها لزيارته في البيت والتعرف على العائلة الكريمة .

قامت قيامة العمتين لتلك الاباحية المرعبة من قبل أخيهما الأحمق . إذا لم يستح من شيبته فعليه أن يخجل من أولاده . ماذا سيقولون وأبوهم يأتيهم بتلك القحبة الانكليزية الكافرة ؟ لم تستطع ازدهار أن تهضم القصة . عادت في المساء تسأله ثانية إن كان حقاً قد دعا تلك المخلوقة لتمضي يوم الجمعة عندهم . فصرخ فيها أن تكف عن التكلم في الموضوع والتدخل في شؤونه وأن تفعل فقط واجبها وما يطلبه منها . راحت تبكي وتستنزل على رأسه لعناتها المستجابة . فسارعت خديجة تواسيها وتطلب منها الا تحمّل الموضوع أكثر مما يجب . أكدت لها أن هناك صداقات ممكنة بين رجل وامرأة دون أن يعني ذلك أن تكون بينهما تلك المحرمات . لكن ازدهار لم تقتنع . فما تزعمه خديجة الساذجة الغرّة هو رابع المستحيلات

أما الأولاد فقد استثارهم الموضوع . اتفق عبد العزيز وأيمن أن أباهما صار حضارياً يجاري في ذلك الانكليز واليهود . وقررت خديجة ، وكانت البنت الوحيدة الباقية بعد زواج اختيها ليلى وسعاد ، أن الأمر لا يستأهل كل هذه الضجة والرنة .

في هذه الأجواء أُستقبلت الليدي اليزابيت في تلك الزيارة الشهيرة . أدهشهم شقارها الفاقع والنمش الوردي المرشوش في وجهها وعنقها وكل المناطق الظاهرة في جسدها . كانت في قمة رونقها . تضج بالأنوثة والرغبة بحيث أن

الحسد تملك عبد العزيز وأيمن . امتازت تصرفاتها بلطف فائق . أحضرت باقة ورد وعلبة من الشوكولاته الانكليزية اللذيذة وزعتها عليهم وهي تضحك بحبور وتتبادل مع فارسها -my Knight- الحديث نصفه بالانكليزية ونصفه بالعربية الفصحى .

مر ذلك اليوم بسرعة . لم يخل الأمر من المتعة والإثارة ، ومن غمزات ولمزات العمة ازدهار الوقحة التي كانت تدفع الدماء الى وجه فارس فيود لو يقوم بضرب أخته .

ذلك اليوم اكتشفوا جوانب كانوا يجهلونها في شخصية الأب والأخ فارس الصالح . بدا لهم شخصاً مرحاً منطلقاً ومحدثاً لبقاً تمتلىء جعبته بعشرات القصص والنوادر عن أحوال الناس وعكا وفلسطين واليهود والانكليز ، وعما يجري في العديد من مناطق العالم من أحداث وقضايا ومشاكل .

لكن ذلك لم يخفف من غلواء العمتين ازدهار وروحية . في المطبخ ، حيث انزوتا لتحضير الغداء ، راحتا تتميزان غيظاً وتستنزلان اللعنات على رأسها ورأس فارسها . كيف يحلل لنفسه ما حرمه على ابنه ؟ قال صداقة قال ! واضح للأعمى أنه واقع في هواها الى شوشته ، وأنها تسيره كالطفل ، وقالت روحية كالكلب ! . ألم تعد فيه ذرة كرامة ودرهم خجل ؟ العالم ينهار بكل تأكيد . سيكون مجنوناً إن فكر بالزواج منها . غدا تلعب بعقله وتلطش ماله وتفضحه بين الناس .

ـ يا محلا اللي عمله رضوان . على الأقل شاب وخيره بظهره . أما هذا العجوز النحس من وين بدو يجيب خير؟ ليش بقي فيه خير؟ .

بربرت حورية وهي توقع عن قصد صحنا ثميناً من الصيني ليتفتت تعبر بذلك عن غضب قاهر لا تجرؤ أبداً على اظهاره أمام أخيها . كانت على العكس من ازدهار بعيدة عن فارس الصالح وكأنها ليست بأخته ولا هو بأخيها . بالكاد يتبادلان ما يزيد على التحيات والمجاملات الخالية من أية عاطفة . كانت في الواقع بعيدة عن العائلة كلها شبه مستقلة بحياتها وابنتها زهرة في الجناح الشمالي بالطابق العلوي . تشعر دائماً بأنها تعيش على حسنة أخيها ، وتستمتع على ما يبدو

من الصمت والاكتئاب والهموم والانطواء . لم يعد جبينه يعرف إلا التقطيب ، وعيناه إلا السهوم ، انطفأ بريقهما كما لهيب شمعة هبت عليها ريح صرصر .

ـ هي وصمة العار ! . . هل هناك عار أكبر من أن تهرب البنت وترجع من ثم بكل وقاحة وصفاقة وحدها ولا يقتلها أبوها ؟ لو أنها رجعت مستورة برجل تطلب الصفح لكانت نصف مصيبة

لم يكتف فارس الصالح بعدم قتلها كما هو مفترض . بل انه لم يقل لها شيئاً ، لم يصرخ فيها ، لم يرفع عليها يداً . لكنه في الوقت نفسه لم يسمح لها بأن تبرر فعلتها وتدافع عن نفسها . يوم تجرأت واقتحمت عليه غرفته بعد أن وضعت بكرها عزت تسأله إلى متى سيظل يعاملها بطريقة تحقيرية وكأنها غير موجودة ، التزم الصمت المطبق . راحت تبكي وتقسم ان أحمد النجار دخل عليها بكراً ، وانها لم تقترف ما يشينها ويعيبه . لكن عينيه قالتا انه لا يصدق ، وحتى إن صدق فإن الأمر لم يعد يهمه لا من قريب ولا من بعيد

هل حقاً لم يعد يهمه ، ولماذا ؟ هاهي الأشهر تمر سريعاً ، وهاهي تتزوج وتنستر وتقيم معه وتضع طفلها الأول ، أفلم يحن الوقت لتصفو القلوب؟ . لكن قلب فارس الصالح لم يصف ، ولا يبدو أنه سيصفو . لماذا لم يقتلها ؟ كان هذا واجبه ، على الأقل كان عليه أن يحاول . ما هي تلك الظروف والاحتمالات والعواطف والمشاعر التي تراكمت وشكلت قيوداً كبلته عن معاقبتها حسب الأصول والأعراف ، ومن ثم ما هي المصادفات و الترتيبات اللا منظورة التي جعلت خديجة ، دون أبنائه كلهم ، تمضي عمرها معه ، باستثناء تلك السنوات الثلاث التي غابتها في أمريكا ؟ هل كان السبب حقاً أن تعجيلها في الزواج لم يترك أمام أحمد النجار فرصة اعداد عشهما الزوجي ، ثم جاءت هجرتها ، لتليها عودتها في عز المشاكل المتفجرة في فلسطين ، فاضطرا أن يقيما في بيت فارس الصالح ، تحت جناحه ، عن قصد أو دون قصد . أو أن السبب أبعد غوراً من ذلك ، ويرجع في الحقيقة إلى العلاقة العضوية التي قامت بين خديجة والبيت الكبير ، فتعاملت معه دائماً باعتبارها سيدته وربّته

الحسد تملك عبد العزيز وأيمن . امتازت تصرفاتها بلطف فائق . أحضرت باقة ورد وعلبة من الشوكولاته الانكليزية اللذيذة وزعتها عليهم وهي تضحك بحبور وتتبادل مع فارسها -my Knight- الحديث نصفه بالانكليزية ونصفه بالعربية الفصحى .

مر ذلك اليوم بسرعة . لم يخل الأمر من المتعة والإثارة ، ومن غمزات ولمزات العمة ازدهار الوقحة التي كانت تدفع الدماء الى وجه فارس فيود لو يقوم بضرب أخته .

ذلك اليوم اكتشفوا جوانب كانوا يجهلونها في شخصية الأب والأخ فارس الصالح . بدا لهم شخصاً مرحاً منطلقاً ومحدثاً لبقاً تمتلىء جعبته بعشرات القصص والنوادر عن أحوال الناس وعكا وفلسطين واليهود والانكليز ، وعما يجري في العديد من مناطق العالم من أحداث وقضايا ومشاكل .

لكن ذلك لم يخفف من غلواء العمتين ازدهار وروحية . في المطبخ ، حيث انزوتا لتحضير الغداء ، راحتا تتميزان غيظاً وتستنزلان اللعنات على رأسها ورأس فارسها . كيف يحلل لنفسه ما حرمه على ابنه ؟ قال صداقة قال ! واضح للأعمى أنه واقع في هواها الى شوشته ، وأنها تسيره كالطفل ، وقالت روحية كالكلب ! . ألم تعد فيه ذرة كرامة ودرهم خجل ؟ العالم ينهار بكل تأكيد . سيكون مجنوناً إن فكر بالزواج منها . غدا تلعب بعقله وتلطش ماله وتفضحه بين الناس .

ـ يا محلا اللي عمله رضوان . على الأقل شاب وخيره بظهره . أما هذا العجوز النحس من وين بدو يجيب خير؟ ليش بقي فيه خير؟ .

بربرت حورية وهي توقع عن قصد صحنا ثميناً من الصيني ليتفتت تعبر بذلك عن غضب قاهر لا تجرؤ أبداً على اظهاره أمام أخيها . كانت على العكس من ازدهار بعيدة عن فارس الصالح وكأنها ليست بأخته ولا هو بأخيها . بالكاد يتبادلان ما يزيد على التحيات والمجاملات الخالية من أية عاطفة . كانت في الواقع بعيدة عن العائلة كلها شبه مستقلة بحياتها وابنتها زهرة في الجناح الشمالي بالطابق العلوي . تشعر دائماً بأنها تعيش على حسنة أخيها ، وتستمتع على ما يبدو

مع أهله . بعد شهر من الزواج بدأت مشاكلها وهي تكتشف، مرعوبة ، طبائعه . كان زئر نساء من الدرجة الممتازة لا يتورع عن خيانتها حتى في سرير الزوجية ، صاحب كأس وعضو شلة من أبناء عائلات معروفة امتهنوا العطالة والقمار . لم تكن ورطتها هينة . بعد ثلاثة أشهر حردت الى بيت أبيها . حاول فارس أن يهدئها . شرح لها كيف أن كل المتزوجين حديثاً يمرون في أمثال هذه المشاكل ، وأن مهمتها أن تتفهم زوجها وأن تعمل بالحسنى والاقناع لاخراجه من هذا الوضع واستمالته إلى حياة الزوجية والروابط والالتزامات الجديدة عليه . أعادها الى بيتها في اليوم التالي وتمت لفلفة الموضوع . بعد شهرين حردت مرة ثانية ، وكان الحمل قد ظهر عليها . استدعى فارس مصطفى ووجه له تحذيراً شديد اللهجة وأخذ عليه مواثيق وعهوداً . عادت سعاد إلى بيتها ولم تغادره بعد ذلك . لكنها منذئذ لم تعرف طعم الراحة والهدوء والاستقرار . أدركت أن أباها لن يسمح لها بأن تتمادى في مواجهة زوجها ، وأن لا مهرب أمامها من قدرها ، فرضخت .

نعم كانت تغار من خديجة ، بل وكانت تهيء نفسها لتكون أول الشامتين بها عندما يكسر أبوها رأسها ويزوجها غصباً عنها ، لكنها لم تخف اعجابها بها ، لذا ظلت الجملة التي قالتها ذلك اليوم عالقة طويلاً في أذن العمة ازدهار :

ـ إما أن تكون المرأة كخديجة أو لتمت وترتاح

في الساعة الثانية اكتشفوا أن خديجة ليست في البيت . لم يعرف أحد كيف ومتى خرجت . انتظروها على الغداء أكثر من ساعة دون نتيجة . تناولوا من ثم الطعام وقد بدأت الوساوس تلتهمهم . في الساعة الخامسة توازعوا أنفسهم يسألون عنها في جميع الأماكن التي يمكن أن تتواجد فيها ، وللصدفة الملعونة ، كما اكتشفوا لاحقاً ، نسوا أن يسألوا عند الست الفت . في الساعة السادسة دخلت العمة ازدهار غرفة خديجة وهي تفكر أن تبحث عنها تحت السرير ، فربما تكون مختبئة هناك كما اعتادت أن تفعل وهي صغيرة . لكن قبل أن تركع على ركبتيها ، وفوق طرف الوسادة ، عثرت على الرسالة ، ورقة طويت

عدة طيات . استدعت سعاد سراً وأطلعتها عليها . ذهب لون المرأة بعد أن استطاعت فك أحرف السطرين اللذين كتبتهما خديجة بخط مشوش .

« لن أبقى لتجبروني على الزواج بالغصب . لن أتزوج إلا الذي اختاره قلبي .. ليس بيدي حيلة .. سامحني يا أبي . سامحوني كلكم .. » .

عندما التقطت سعاد أنفاسها وقرأت الرسالة بصوت متهدج غير مصدّق أغمي على العمة أزدهار . عندئذ خرجت سعاد من الغرفة وهرولت إلى الأسفل وهي تصرخ بخوف ، والبعض قال بانتصار ، ملوّحة بالرسالة :

ـ خديجة هربت مع حبيبها

ووقفوا مصعوقين وقد أسقط في أيديهم . لم يكن هناك من يجرؤ على أي تصرف أو مبادرة . وزاد الطين بلة غياب فارس . كأنها كانت تعرف أنه سيسافر اليوم ! حتى عبد العزيز وأيمن وقفا عاجزين محتارين لا يعرفان ماذا يفعلان . انخرطت النسوة في نحيب أخرس . كانت العمة ازدهار أشبه بمن فقد عقله وهي تدور حول نفسها من غرفة الى أخرى ضاربة كفيها ببعض بقوة متسائلة عما سيحدث عندما يرجع فارس . بالتأكيد سيقتلها .. سيذبحها . فكرت أن ترسل عبد العزيز يسأل عنه عند الليدي اليزابيت . وبعد أن بذلت المستحيل حتى أقنعته بالذهاب ، عادت وأرجعته وهو يهم بالخروج .

لم ينم أحد تلك الليلة . سهروا يحاولون تخمين ما سيحدث . لم يفهموا كيف يمكن أن تهرب خديجة ! وبالرغم من الرسالة أجروا عملية تفتيش دقيقة في جميع أنحاء البيت وفي التلة وورشة أحمد النجار وعلى طول الشاطىء . ظلواحتى عاد فارس يحاولون أن يؤكدوا لأنفسهم أنه مقلب جديد من مقالبها ، وهي سرعان ما ستظهر ضاحكة لاهية كعادتها . وأخيراً ، في الساعة الثالثة فجراً ، دار المفتاح في قفل الباب . سارعوا جميعاً يختفون في غرفهم باستثناء العمة ازدهار . أحسّ فارس أن في الجو شيئاً ما أن شاهدها تنتظره . وكان قلبه دليله إذ اكتفى بالتساؤل بصوت لم يستطع أن يخفي فزعه :

ـ خديجة ؟ .

وشاخ عشر سنوات وهو يقرأ الرسالة ، ويتهاوى من ثم على أقرب كرسي مهدود القوى مقطوع الانفاس . راح يلهث وهو يكور الرسالة في يده ويغمض عينيه . صبرت ازدهار فترة ليست بالقصيرة . . لكن القلق غلبها في النهاية ، فاقتربت منه تربت على كتفه تسأله بخوف :

ـ فارس . . . ما بك ؟ .

فتح عينيه باعياء وحملق فيها بذهول وكأنه لم يستوعب بعد ماذا جرى .

ـ لا شيء . . اتركيني لوحدي .

ـ ماذا ستفعل ؟ .

ـ وماذا تريديني أن أفعل . . انها الرابعة صباحاً . . ماذا يمكنني أن أفعل ؟ .

كان محطماً يائساً مستسلماً . فتح الرسالة وقرأها ثانية قبل أن يسقطها من يده ويعود يغمض عينيه .

في الصباح الباكر جمع العائلة كلها . كان واضحاً أنه أمضى الليل سهراناً يحترق على نار بطيئة . كان حقاً قد شاخ عشر سنوات . وفاجأتهم الأوامر الصارمة التي وجهها لهم بصوت لا حياة فيه :

ـ خديجة اضطرت الى السفر فجأة . لن أتأخر عن ذبح أي واحد منكم يتفوه بكلمة واحدة عن هربها وعن الرسالة لأي شخص . القصة لن تخرج من البيت . تصرفوا بشكل طبيعي وكأن شيئاً لم يحدث .

ـ وبالنسبة لأهل الخطيب ؟

سألت العمة ازدهار .

ـ سأتصرف معهم . انتبهوا للبنت زهرة كي لا تقول شيئاً حول الموضوع .

لكن ، مثل الكذب ، تجاوزت القصة حدود البيت والتلة وعكا . الثغرة التي لم ينتبه لها أحد كانت سعاد التي نسيها الجميع . . عندما رجعت إلى بيتها في المساء قصت على زوجها ما حدث . بالطبع جعلته يقسم بأغلظ الأيمان أن يكتم

الموضوع حتى عن أمه . لكنه كان يستحيل على ثرثار مهزار معاقر لبنت الحان ، وداعية متحمس لحضارة الغرب ولبس الطرابيش ، كمصطفى المشعلاني ، أن يحتفظ لنفسه بفضيحة مدوية كفضيحة هرب خديجة الصالح لتتزوج بمن تحب . .
وهكذا ، قالوا ، صارت خديجة حديث عكا كلها يوم الجمعة .

وبالطبع أيضاً كانت هناك ، في ذلك الصيف المتأجج من بداية ثلاثينات هذا القرن ، مشاكل وقضايا أخرى تشغل عكا وفلسطين . فالأجواء مشحونة بالصراعات الدامية بين العرب واليهود ، والانكليز يمضون قدماً في تنفيذ وعد بلفور هم وفي إصدار كتبهم البيضاء والسوداء حول الهجرة اليهودية ومستقبل فلسطين . والبلاد حبلى بأحداث تتواتر مؤشراتها في عمليات العنف والاغتيال والمعارك والثورات ، واليهود تزداد قوتهم بالعصابات العسكرية التي راحوا يشكلونها ويسلحونها بدعم من قوات الانتداب .

إلا أن ذلك كله لم يمنع من أن تحتل قصة خديجة الصالح مركزاً بارزاً في زحمة تلك القضايا العامة . بل وربما وجد الناس فيها ملهاة وتسلية تخفف عنهم بعضاً من التوتر القابض على أنفاسهم .

وزعموا ، والله أعلم ، أن خديجة الصالح قسمت عكا إلى فريقين . فريق الأقلية الذي تعاطف معها ، وكان بمعظمه من الجنس الناعم ، واعتبر أن لها الحق في رفض الزواج ممن لا تحب . هذا الفريق لم يجد في الرسالة ما يشير إلى أن هناك من هربت معه . فهي تقول انها لن تتزوج ، أي في المستقبل ، إلا الذي يختاره قلبها ، وهذا يعني أنها لم تختر بعد

الفريق الثاني ، وكان الأغلبية ، استنكر ودان وقرع طبول الويل والثبور وعظائم الأمور وحذر وأنذر من نتائج التساهل مع الحريم ومن أعطائهن حقوقاً لا يستحقنها . ذلك الفريق رأى في الرسالة اعترافاً صريحاً من خديجة بأنها هربت مع الشخص الذي تحب . وهذه جريمة أخلاقية منكرة ما بعدها جريمة ، ولا يجب أن تمر دون قصاص صارم حازم حاسم يكون عبرة لمن تعتبر

- ٦ -

نيويورك ١٢-١١

فاجأتني هيفاء باتصال غير متوقع في ساعة متأخرة من الليل . تحدثت في العموميات وسألتني عن أحوالي وكيف أمضي أوقاتي . دردشة لا معنى لها أثارت قلقي من أن تكون تهيء لإبلاغي خبراً سيئاً . قاطعتها أسألها عن العجوز فضحكت بمرح وهي تذكّرني أن اليوم هو ذكرى زواجنا العاشرة . سارعت أهنئها وأحاول تبرير نسياني الغبي بانهماكي في وضع تصاميم مشروع جديد . قلت لها انها المسؤولة عن عدم احتفالنا بهذه المناسبة . عليها أن تترك كل شيء وتأتيني . . أجابت بأن السنة لم تنته بعد . أبي يقيم عند عزت منذ يومين . لا يريد أن يثقل عليها في رعايته . لكنها أقنعته أنه لا يثقل . سيعود غداً الى البيت . هي أيضاً تشعر بالوحدة . لا جديد في أخبار أحمد النجار الحفيد . أبلغتها أنني استلمت رسالته . أنهت المخابرة بتحذيرها التقليدي الضاحك بأن أحافظ على نفسي من نساء نيويورك

أينهن نساء نيويورك ؟ في بعد المريخ رغم أنهن يملأن حتى الهواء الذي تتنفسه . تشعر أحياناً أن ما عليك إلا أن تمد يدك تمسك منهن قدر ما تشاء وتهوى ، لكنهن يختفين ما أن تمدها . على كل حال لن تفض بكارتك الأمريكية مع عاهرة نيويوركية ببضع دولارات . هذا ما أنت واثق من قدرتك على تحقيقه . لكن المشكلة أنك تكاد تفقد الأمل في أن تفض تلك البكارة على **الاطلاق !** تكتفي بأن ترتاد السكس شوب وتشتري البلاي بوي وأفلام البورنو وتمارس بعض عادتك السرية القميئة وتنام تحلم بنساء خارقات . عندما أخذك ديب لتضاجع أول حواء في حياتك مقابل خمسين ليرة ، تواطأتما على سرقتها من درج المنشرة ، حسبت أنك ستفتح العالم ، لكنك لم تفتح سوى نافوخك لتطير منه أوهامك الوردية وأنت تقذف مخزونك الشيطاني في ذلك الرحم الحجري لتلك القحبة التي لم تعرف أهي يهودية أم فلسطينية . لم يعد هذا مهما . كان هذا

في تلك الاسرائيل وأنت الآن في هذه النيويورك ، وديب المسكين في سجن الفارعة يضع مع قيادة أركانه خطة التحرير والعودة على صهوات بيضاء لجياد عربية أصيلة أباً عن جد .

لم يكن هناك اليوم من حديث في الشركة سوى عن قرار الأمم المتحدة أمس بادانة الصهيونية واعتبارها شكلاً من أشكال التميز العنصري . لم يكف افرام عن جدجي شذراً وكأنني المسؤول عن صدور القرار . بدا وكأنه ينتظر مني أن اعتذر له وأبدي أسفي الشديد للحقارة التي يتعامل بها العالم مع اسرائيله واليهود . لكنني أغلقت فمي باصرار . أفكر احياناً انني أغمط نيويورك حقها ففيها على الأقل أستطيع أن أخرس وأن أتخلص من ذلك الدافع التلقائي الذي يجبرني على قول عكس ما أفكر فيه . هل يجهل الحقيقة أم هو يتجاهلها ؟ لكنه حاصرني على الغداء . لم يترك لي مجالاً للهرب وهو يسألني .

ـ لماذا لا تريد أن تقول رأيك في القرار يا وليد ؟ .

ـ أي قرار تعني ؟ .

ـ لا تتغابى . أنت تعرف أي قرار أعني .

هو الصمت والقلق والخوف . . هل أضطر حتى في نيويورك لأن أقول ما لا أريد قوله ؟ إذ طال صمتي قال :

ـ أنت ترى أن القرار صحيح إذن ؟.

ـ أنت لست عنصرياً يا افرام . . .

شعرت بالارتياح اذ عثرت على ذلك الجواب . حملق فيّ بدهشة ثم أنفجر ضاحكاً ورفع زجاجة البيرة .

ـ في صحتك . أنت ماكر بحيث كان يجب أن تكون يهودياً . نعم . أنا لست عنصرياً . لكن الصهيونية عنصرية ! أنت حر في رأيك ورأيي يبقى رأيي . الأفضل أن ننسى الموضوع كي لا نوجع رأسينا .

هل أكون عنصرياً لو اعترفت له بأنني كنت ساعتبره إنساناً كاملاً لولا أنه يهودي ؟ لا أستطيع أن أنكر على افرام لهفته وشهامته والخدمات العديدة التي

قدمها لي منذ وصلت نيويورك . هو الذي تكفل بتوجيهي ورعايتي وتدريبي والأخذ بيدي . هو الذي عثر لي على الشقة وساعدني على نقل أمتعتي من البانسيون وشراء ما ينقصني من محلات الروبابيكيا اليهودية . عرفني على معالم نيويورك وحدائقها وأماكن التسلية فيها . لكن علاقتنا ظلت في حدود الزمالة والمعرفة السطحية . أثار استغرابي أنه لم يفكر مرة واحدة في دعوتي إلى منزله والتعرف إلى أسرته بالرغم من أنه ما كان يمل الحديث عن طفلتيه الرائعتين وولعه الشديد بهما ، ليزا ابنة الثامنة وفيليسا ابنة الخامسة . ماذا تقولان وتفعلان وكيف تتصرفان بشقاوة فاتنة وتأكلان وتضحكان وتبكيان وتمرحان وتلعبان وتدللان كلبهما الخمري الدير هنري .

كنا نتغدى قبل أسبوعين عندما أشرت عفوياً إلى مللي من طعام السوق واشتهائي وجبة عربية دسمة . . كوارع ، محشي ، كبة . . في اليوم التالي دعاني الى الغداء في منزله يوم الأحد . وكان أن فوجئت بزوجته مقعدة على كرسي ذي عجلات . أحسست بالاحراج . وحاولت التعبير عن أسفي لما أسببه لهم من إزعاج ، فربت على كتفي بود قائلاً انني لا أزعجهم أبداً ، وانه هو الذي جهز الكبة بلبنية تحت أشراف سوزي . كانت اسرة لطيفة رائعة أمضيت برفقتها عدة ساعات ممتعة أشعرتني وكأنني بين ذويّ .

فقط في العصر، بعد أن خرجنا الى الشرفة ندخن ونثرثر، قال انها ستظل بقية عمرها مشلولة مقعدة على كرسيها المتحرك . جاؤوا إلى نيويورك على أمل أن يفيدها أسلوب جديد من العلاج الفيزيائي لكن لم يحققوا أية نتيجة . . رابع أيام حرب الغفران أصابتها شظية مدفعية في عمودها الفقري وهي تشارك بعمليات الانقاذ في مستعمرة المطلة .

كان يتحدث برتابة وقد خلا صوته من العاطفة . تلاشت من نفسي مشاعر الغبطة والارتياح وسيطر علي الامتعاض والكآبة لكنني أطبقت فمي باصرار . اكتفيت بأن أهز رأسي وأنظر إليه بعينين خاويتين أجبرتاه على أن يتوقف لنغرق في صمت محرج . منذ ذلك اليوم بدأت علاقتنا تأخذ طابعاً رسمياً

متكلّفاً ، وكف عن الحديث أمامي عن طفلتيه الجميلتين الرائعتين بحق

هل دعاك قصداً لتراها ويتحدث عن حرب الغفران يشعرك بالذنب والمسؤولية ، أم هي الصدفة وحدها التي تدخلت في الموضوع ؟ ولماذا تنتابك هذه الأفكار الغبية اللعينة بأن عليك أن تأسى له وتعتذر وتدين ما حدث ؟ لماذا أنت مطالب بأن تحمل له غصن الزيتون فيما هو لا يقطع غصن الزيتون سوى ليصنع منه خازوقاً يُقعدك عليه ؟ .

تود لو تحدثه عن ديب في سجن الفارعة . ديب الفلسطيني الذي أنكرته دون أن يصيح الديك . هل يعرف ما هو سجن الفارعة ؟ لم تجرؤ أن تسأله ماذا ذهبت سوزان الصبية الحلوة تفعل في تلك المنطقة النائية من ذلك الجليل الفلسطيني البري . . لم تجرؤ أن تسأله من أين جاء هو . شقاره الفاقع وعيناه الزرقاوان وبشرته الوردية لم تنبت بالتأكيد في تلك الأرض القاسية ذات العينين السوداوين والشعر المكزبر الفاحم والسذاجة الأسرة . لماذا لا تقترح عليه أن يسأل خديجة عن معنى الوطن والحرب والسجن والأفراس البيضاء الأصيلة الجامحة يستحيل على أحد أن يروضها ؟ لماذا تخشى السؤال ، أم انك لا تخشاه لكنك تعرف الجواب مسبقاً ؟ هل تقول له ان ديب قد يكون هو الذي أطلق تلك القذيفة على جليله الأسير ، ديب الذي لا بد يقف يوماً على تلك التلة يرمي نظراته الى السهل والبحر وعكا يحمل على كتفيه أغنية فيروز يعانق التراب الأحمر ويضحك حتى تدمع عيناه . لماذا تخرس ؟ في المدرسة ارتفعت صور هرتزل ووايزمان وغولدمان وبن غوريون ورفرف العلم ذو النجمة السداسية ووقفت محاصراً مذعوراً تخبط الأرض بقدميك تناشدها أن تنشق تبتلعك . هل تذكر ليلة أحرقت خديجة البيت ؟ كنت اصغر من أن تفهم وتدرك . لكنها ليلة منقوشة في رأسك بالمطرقة والازميل . . لم يرفع العريف يداً عليكم ، كان سعيداً واثقاً وهو يقول ان الانكليز سلموا اليهود ميناء حيفا . اكتفى بأن يعاملكم باحتقار وهو يقول لأبيك شامتاً بعربية ثقيلة :

ـ أنتم أغبياء . . . بجم . ماذا أفادكم احراق البيت ؟ انتهت الحرب

وخسرتم . هذه هي الدنيا ربح وخسارة . وعلى الخاسر أن يتقبل النتيجة بروح رياضية ، هذه هي الحقيقة الجديدة ، وقريباً ستسلّمون بها .

إنه ذلك المسخ الغامض الذي ينبت في معدتك . ينمو ويتغلغل الى كل ذرة في داخلك يدغدغك بلطف في البدء ثم يروح يخرمشك ومن ثم يقطع نتفاً منك يأكلها بنهم وتلذذ . لن تفكر بأن تهرب منه لأنك تعرف أنه كظلك يتبعك كيفما تحركت . بل هو كذاتك يتعملق ويستفرس ويخنقك فتحاول أن تصرخ لكنك تكتشف أنك أخرس ؟

أسعدتني رسالة أحمد النجار الحفيد . بدأها بالتعبير عن شوقه والاعتذار لتأخره في الكتابة .

«ضع يديك في ماء باردة . . الأخبار التي تصلك عنّي مبالغ فيها كثيراً . صاروا كلهم كأبي يخافون من ظلهم . أنا واثق أنها سحابة صيف وستمر سريعاً . ليس لديهم شيء ضدي . الأسبوع الماضي جاؤوا مرة ثانية وقلبوا البيت رأساً على عقب ولم يجدوا شيئاً . عليهم أن يتأكدوا أنهم لن يجدوا شيئاً ـ أرجو من السيد الرقيب أن ينقل هذه المعلومات الى رؤسائه ولا أمانع أن يصور نسخة من الرسالة اذا رغب في ذلك ـ .

أخباري الأخرى لا جديد فيها . اذا لم يطرأ طارىء سأتوجه الأسبوع القادم الى الناصرة للمشاركة في العمل الطوعي الزراعي يوم الجمعة . ترى هيفاء وجدي أنه يستحسن أن لا أغادر عكا هذه الفترة وأن ابتعد عن كل ما يوفر لهم ذريعة ضدي . انها في الحقيقة رغبة أبي لكنه أوصلها لي عن طريقهما . منذ عدة أشهر وهو يتجنب التدخل في شؤوني كأنه قرر أن يغير أسلوبه معي ، أو كأنه اقتنع أخيراً أنني قادر على أن اكون مسؤولاً عن نفسي . صار يكتفي بالغمزات واللمزات . قبل يومين قال لجدي أنه لا يستطيع أن يفهم هؤلاء الحمقى ، وأنا منهم بالتأكيد ، الذين يتجاهلون التطورات الجارية في العالم العربي . محادثات الكيلو ١٠١ وفك الارتباط ومؤتمر جنيف وجولات هنري كيسنجر واتفاقاته . راحا في نقاش عقيم حاولا استجراري إليه لكنني لم أتدخل فيه .

إلا أن أسلوب أبي الجديد معي ، لدهشتي ، يقلقني ويزعجني . لم أشعر بمتعة الانتصار إذ أجبرته أخيراً على أن يرضخ لرغبتي ويتركني أكون كما أريد . بالأحرى أشعر وكأنني أسأت إليه . كسرت خاطره وأذللته . كنت أفضّل أن يبقى كما هو ، وبخاصة في تلك الفترة ، يلاحقني ويؤنبني ويؤكد وصايته علي ويسبني ويهددني بالعصا . لا تسخر يا وليد فهذه هي حقيقة مشاعري . أنا نفسي أستغربها . أكثر ما يضايقني صمته المطبق . إن وجهت إليه سؤالاً أو طلبت رأيه فإنني لا أحصل إلا على الصمت . . يكتفي بأن يسترق النظر إليّ من تحت لتحت أو يرسل أمي تسألني عن أحوالي وأخباري ، واكتفي أنا بأن أفكر أنه غارق الى أذنيه في الهواجس والمخاوف . أقول لنفسي انني لست الأول والأخير و انه لن يكون الأول والأخير . أود لو أجلس معه جلسة مصارحة طويلة بعيداً عن العصبية والشكوك والمواقف المسبقة . سأبسط أمامه نفسي وأفكاري كما هي ، وأحدثه عن أحلامي ورغباتي وأحاسيسي . عن هويتي الضائعة التي بدونها لا أستطيع أن أحقق معنى وهدف وجودي وانسانيتي .

لا أعرف ماذا أقول . هل أعبر عن نفسي بوضوح ؟ إنه ليس تمرد الشباب فقط . آخر ما قرأته كان عن ثورة مايو الباريسية . الأسئلة تؤرقني فأحاول أن أتجاهلها . لماذا يتمردون وهم حاصلون على كل ما أصبو إليه ، وعلى ما أنا واثق انني لن أصل إليه إلا إذا احترق العالم وانبعث مرة ثانية . أهو التمرد من أجل التمرد ؟ قد لا تكون المسألة بهذه البساطة . هناك نقاط مفاتيح هي بالتأكيد خافية عليّ .

آسف ان كنت أطلت عليك . انها مجرد أفكار تتلاطمني بشدة هذه الأيام . عليّ أن أبوح بها لأحد ما ، لكن الخجل ، وربما الكبرياء ، يمنعني . يشجعني أنك بعيد عني . قد أرسل الرسالة وقد أمزقها . لعلها ليست إلا محاولة فاشلة لفلسفة أفكاري ، أو لعلها محاولة للهروب من تلك الأفكار» .

هو كجدته خديجة . أحياناً هي نفس تعابيرها والفاظها تتقافز بين سطور رسالته الجارحة . لا تكن كعزت عاجزاً وكديب هارباً وكوليد لا مبالياً . لكن

أحكامها كانت قاسية . على الأقل بالنسبة لديب . هاهو رجع أخيراً . . بعد هروبه أمضت عدة أشهر مكتئبة قلقة تتجنب الاتيان على ذكره . لكننا كنا واثقين أنه محور تفكيرها وبحثها المضني عن أسباب تقنعها أن هروبه كان أمراً حتمياً وليس استسلاماً أو عجزاً . سألتنا كلنا عن رأينا . سألت أصدقاءه ، والجيران ، ولم يكن لدى أحد جواب جاهز مقنع . لم يبق إلا أن تنزل الى الشاطىء تسأل البحر . كانت علامات الشيخوخة قد بدأت تشق طريقها إلى وجهها الجميل الصبوح . وراح المشيب يتعدى على شعرها الأسود الطويل يضفي عليها وقاراً كاذباً أعلنت رفضها له .

ـ كبرت يا أبو عزت ، هل أصبغ شعري أم أتركه كما هو ؟ .

ويضحك أبي يؤكد لها باعتزاز :

ـ أحبك كما أنت ، وأنت لن تكبري أبداً يا خديجة

الحنين يشدني إلى هيفاء . . تمتلكني الرغبة فيها جسداً وروحاً . نتزل إلى قلب عكا القديمة نتسكع على السور ودرجه متماسكي الأيدي كمراهقين ساذجين يتهيأان لانشاد قصيدة الوجود بعيداً عن أعين فضولية . في الكابري نضطجع على الحشيش لانجرؤ على ممارسة الجنس . كنت في العاشرة عندما ساررني عبد الحميد عن اليهود الذين يمارسون الرذيلة على ضفاف بركة الكابري وتحت الشجر في الليالي المظلمة . كانت الدعوة صارخة لاكتشاف ذلك المحرم المجهول . رحت الح على أمي وأناشدها إلى أن سمحت لي أن أذهب الى السينما في حفلة التاسعة ليلاً . كنا ثلاثة . أنا وعبد المجيد وحيدر . وصلنا الى الكابري في التاسعة بعد أن اخترقنا منطقة المستنقع سيراً على الأقدام . هناك تحولنا على رؤوس أصابعنا وكمنّا كاللصوص تثيرنا حتى خشخشة أوراق الشجر . أخيراً وبعد أن كدنا نفقد الأمل لمحنا كتلة سوداء متحركة . وربضنا على الأرض محبوسي الأنفاس وقد هيجتنا الأخيلة والتصورات . عندما استطاعت نظراتنا أن تتأقلم مع العتمة وتميز أبعاد الشخصين المتلاحمين كانا انتهيا وافترقا عن بعض . كانت خيبة أملنا كبيرة . ونحن عائدون تساءل حيدر لماذا يأتون الى الكابري

ليمارسوا تلك الأمور فأجاب عبد المجيد أنه « المزاج » .

انتشرت الانتقادات في الوسط العربي بعكا . وتزاحمت اللعنات تنهال على الفسق والفحش والفجور والخشية على الشباب والصبايا العرب من أن يتأثروا بتلك التصرفات المنافية للحشمة وللتقاليد العربية .

علق الموضوع في مخيتلك سنوات طويلة تتمحور حوله معظم رؤاك ورغباتك الجنسية ، عندما صارت لك صداقات وعلاقات مع الجنس الآخر فكرت أكثر من مرة أن تأخذ فتاتك الى الكابري لتمارس معها الجنس ، راودتك نفس الرغبة مع هيفاء . لكنك لم تجد الجرأة لأن تفعل . هل هي مشكلتك أن تظل دائماً تفتقد الجرأة ؟ .

عندما قدمت طلباً للحصول على ساعات تدريس إضافية كان لا بد أن أمر بسلسلة الاجراءات الأمنية الروتينية .

- هل أنت منتسب إلى أحد الأحزاب ؟
- لا
- إلى أحد النوادي أو المنظمات . . . ؟ .
- لا
- الم تعمل مع إحدى جماعات حقوق الانسان ؟
- لا
- لكنك قدمت طلباً بذلك الخصوص .
- عدت وسحبته .
- لماذا ؟ .
- . . . . . .
- ما رأيك فيهم ؟ .
- يعملون حسب قناعاتهم .
- ماهي ميولك السياسية ؟
- لا يوجد .

ـ لماذا ؟ .

ـ . . . . . .

ـ لماذا تريد أن تصير معلماً ؟ .

ـ . . . . .

ـ انه مرفق حساس والتلاميذ عجينة يمكن تشكيلها كما نريد .

ـ . . . . . .

ـ ابوك دخل السجن بعد أشهر من أعلان الدولة . الجريمة أحراق بيت . ! أخوك ديب ، حيوان شرس ، هرب . . أمور تحدث دائماً . . لماذا هرب ؟ .

ـ . . . . .

ـ من حسن حظك اني صبور وفي مزاج جيد اليوم . أنت كتوم الى درجة تثير القلق . . اتعرف بماذا أتمنى ؟ أن تكون في هذا الموقف ولكن في جهاز أمن عربي . . هاها . .

ـ . . . . .

ـ حسن . رغم كل شيء . فإن ملفك لا غبار عليه . أستطيع أن أزعم أنك مستقيم صالح كما يجب أن يكون كل مواطن . ان شاء الله تظل هكذا دائماً . هذه هي الأوكى . . تعال غداً لتأخذ المعاملة وتوقع على التعهد .

في عيني أمي ، ولومضات خاطفة ، تخيلت أنني ألمح اتهاماً لم أفهمه ولم يعجبني . لماذا أنا بالذات اختاروني للعمل في فرع أمريكا ؟ ولماذا لا يختارونني ؟ لا فرق بين نيويورك وتل أبيب . الطريق بين عكا والعجم هو كالطريق بين الشارع الخامس والسنترال بارك . لم أحصل على دبلوم الهندسة المعمارية بامتياز لأدفن نفسي معلماً للرياضيات في الثانويات العربية . ولم يهرب ديب لأن أبي وأمي افتقدا الخمسين ليرة فكادا يفقدان صوابهما . لم يكن المهم آنذاك الخمسين ليرة ، رغم أنها كانت تقصم الظهر ، بل الكمبيالة الفصلية التي يجب أن تسدد في وقتها دون تأخير . حوصر المسكين بين مطرقة أبي وسندان أمي . لم يكن

يستطيع أن ينكر . كل الأصابع أشارت إليه . . أمضيت يومين كاملين كالممسوس وأنا أحاول أن أتخيل ماذا سيحدث لو عرفوا أنها سُرقت على شرفي . لكن السر بقي سراً . حُلّت المشكلة ببيع أحد خواتم أمي الذهبية . تخلت عنه مرغمة فقد كان الأثر الوحيد المتبقي من العمة ازدهار .

نيويورك تنام مبكرة هذه الأيام . الثلج يتكاثف وأنا . . . .

إلى متى ستظل تهرب ؟ هل هناك من يعرف لماذا هرب ديب ولماذا رجع ؟ رائع هو افرام ورائعة هي أسرته . لكنك لا تجرؤ أن تقول له رأيك . . السيجارة وكأس الوسكي والتلفزيون . . خديجة تقودك إلى المدرسة . الأطفال اليهود يمرحون ويركضون ويصرخون ويتعاركون ، وأنت ذلك الغريب المكتئب المنزوي تتعرف على أترابك العرب بلا مبالاتهم الكاذبة ونظراتهم المتلصصة ووجوههم الشاحبة .

أحاول أن أتصل بعكا . يجب أن أتكلم مع هيفاء . أن أسمع صوتها الدافىء ورنينه الصافي الضاحك . سأقول لها انني أحبها وأشتاقها . احتاجها الآن أكثر من أي وقت مضى . . ما كان يجب أن أجيء لوحدي إلى تلك المدينة المسحورة . لكن الخط اللعين لا يعلق . .

- ٧ -

في السابعة من صباح السبت ، رابع أيام هربها ، عادت خديجة برفقة الست الفت . فتحت لها الباب زهرة بنت العمة روحية . كانت لاتزال أصغر من أن تفهم ما حدث ، فعلا صوتها مفعماً بالسعادة وهي تهرول إلى غرفة فارس تعلن عودة الغائبة . كان هذا ينّقب في بعض الصحف خائفاً من أن تكون فيها اشارة الى هروب ابنته . لم يستوعب تماماً ما قالته زهرة التي لحقتها العمة ازدهار تريد متعها من ابلاغه النبأ بهذه الطريقة الفجّة . سأل فارس أزدهار عمن عاد . فصرخت زهرة ثانية :

- خديجة خديجة . . .

وخرجت من الغرفة تجري الى حيث كانت خديجة لا تزال تقف عند الباب محتارة وإن حاولت أن تبدو متماسكة فيما راح كل من في البيت يجتمع حولها بصمت وترقب .

سقطت الصحيفة من يد فارس وهو لا يزال يحملق في ازدهار باذلا قصارى جهده ليهضم فكرة عودة خديجة . ثم وقف وزأر في وجه أخته :

ـ لماذا رجعت . . مع من رجعت ؟ .

وفهمت أنه يسأل إن كانت برفقة غريب . فسارعت تقول بفزع :

ـ معها الست الفت فقط .

في تلك اللحظة دخلت خديجة الغرفة وركضت نحوه تحاول تقبيل يده وهي تبكي . أبعدها بعنف وأمرها بصوت متحشرج أن تتوارى عن وجهه . الخوف ، للحظات دهرية ، أطبق على الأعناق والصدور . ماذا سيحدث ؟ هل سيرفع الستار عن ذلك المشهد الدموي الذي يفترض أنه تقليدي في أمثال تلك القصص . . الصراخ والبكاء واللعنات والشرف المهان والدم الملوّث . كيف واتتها الجرأة أن ترجع . أين ذلك الحبيب المجهول ؟ لماذا جاءت معها الست الفت ؟ كانت تضغط عليهم الفضيحة والاشاعات التي عمت عكا والشكوك التي تراودهم . . لقد انتهكت المحرم وداست على القيم ، وهي إن تجرأت على العودة فلا بد أن يكون ذلك برفقة من يبرر جريمتها . أما أن ترجع هكذا ؟ .

ـ يا رب محمد استر . . .

لو أن احدى اختيها اقترفت ما اقترفته لكان الكل راهن ان فارس الصالح سيبحث عنها بنفسه ويقتلها غسلاً للشرف الملوث . فلماذا اختلف الوضع مع خديجة ؟ تهرب ولا تزيد ردة فعله عن الغضب والشعور بالمهانة والاعتكاف في البيت محظراً حتى محاولة البحث عنها ؟ بل انه ما أن سمع أن عبد العزيز يحاول اظهار النخوة المفترضة في مثل هذا الوضع ، ويتحدث عن جريمتها النكراء وضرورة معاقبتها بصرامة ، حتى سارع يستدعيه ليطلب منه بجفاء عدم الخوض في الموضوع واضعاً بذلك حداً فاصلاً فهمه الجميع . الأمر بينه وبين خديجة

تحديداً ، ولا علاقة لأحد به من قريب أو بعيد .

ها هي ذي ترجع وكأن شيئاً لم يكن . . لا يفعل شيئاً ! . أتنتهي القصة بطردها من حضرته ؟ تخرج لتبدأ الست الفت دفاعها المستميت . تقسم ان خديجة أمضت تلك الأيام عندها ، وهي ، أي الفت ، لم تعرف حقيقة الأمر إلا ليلة أمس ، فأتت بها وكلها ثقة أنه سيصفح عن خديجة ويتجاوز فعلتها الطائشة . . ودوا كلهم لو أن هذه هي الحقيقة . لكن الرسالة اللعينة لا يمكن إلا أن تترك هامشاً كبيراً للشك والتساؤل .

ـ ذهبت لتتزوج الذي اختاره قلبها

هل راحت لعند الست الفت منذ غادرت البيت ، وعلى أي أساس أمضت لديها كل تلك الفترة دون أن يخطر في بال الست الفت أن تسألها عن السبب إلا بعد ثلاثة أيام ؟ .

كان صعباً ، بل ومستحيلاً ، الاقتناع بحجج الست الفت . اكتفوا بالاستماع وأمسكوا عشرات الأسئلة في أفواههم المطبقة ، ومن كان يجرؤ على فتحها بوجود فارس ؟ أدهشهم ، بل ان الست الفت تنفست الصعداء ، أن فارس راح يتصرف وكأنه اقتنع . شكرها على استضافتها لخديجة . وأدار الحديث من ثم الى المظاهرة النسائية المقررة في اليوم التالي ، الأحد ، احتجاجاً على الموقف البريطاني وعلى اعتقال عدد كبير من أعضاء اللجنة الوطنية في معظم الأقضية . تساءلت الست الفت إن كان سيسمح لخديجة بالاشتراك فيها .

ـ كانت إما غبية وإما فعلاً لا تعرف حقيقة الأمر

هز فارس الصالح رأسه دون أن يجيب . فسارعت العمة ازدهار تقول ان هذا ليس وقته الآن ، وعلى الأغلب سيمنع الانكليز المظاهرة . حدجها فارس بنظرة جعلتها تهمد . تحدث قليلاً عن الدور الحقير الذي يلعبه الانكليز ، وعن الدور الأحقر الذي يلعبه العرب ضد بعضهم بعضاً . انتظرته الست الفت إلى أن أنهى حديثه واعتذرت بأنها مضطرة للذهاب لمتابعة بعض الأعمال في الاتحاد .

ـ نسينا أن نعمل لها فنجان قهوة !

لم تغادر خديجة غرفتها طوال أسبوع كامل . تجنبها الجميع باستثناء العمة ازدهار التي تكفلت بتلبية طلباتها وإيصال الطعام إليها وقضاء معظم الوقت معها . لم يعد أحد يأتي على ذكرها ، وإن كان شبحها سيطر على الجميع وأجبرهم على حساب كل كلمة يتفوهونها وكل حركة يقومون بها .

ـ ما عاد أحد يجرؤ على استئذان فارس بأن يعطس!

صار جو البيت مقيتاً خانقاً . حاولت العمة ازدهار أن تتوسط بينهما اكثر من مرة . لكن عبثاً . لا يريد أن يرى خديجة ولا حتى أن يسمع باسمها بعد الآن .

ـ حطمته فعلتها وجعلت رأسه في الحضيض . كيف لا وقد صارت قصة هرب خديجة الصالح وعودتها وتقاعسه المشين عن معاقبتها مدار أحاديث لها أول وليس لها آخر في تلك العكا الثرثارة اللئيمة ؟ كيف كان لهم أن يتواروا عن نظرات هزء وشماتة واستنكار وعطف واستهجان وتساؤل واتهام يرونها في عيون كل الناس ، يعرفونهم أو لا يعرفونهم ؟

لهذا لم يكن غريباً أن تهمس العمة ازدهار في أذن اختها روحية ، بعد ثلاثة أيام ، أنها فاجأت أخاها ليلة أمس وهو يبكي بحرقة كالنساء . احترق قلبها لمرآه على هذه الحال . ودت لو تستطيع أن تضمه الى صدرها وأن تهدهده طالبة منه أن يهدأ ويستكين وينسى . لكنها لم تجرؤ . تركته سريعاً وانزوت في المطبخ تبكي بدورها .

ـ ماذا فعلت ياخديجة ؟ ربما لم تفعلي شيئاً . ربما ما كنت تريدين أن تفعلي شيئاً ، لكنك فعلت كل شيء . لماذا ركب الاثنان رأسيهما ؟ ومن كان يحسب أنها ستجنّ وتهرب . أليس هو المسؤول في النهاية ، ترك لها الحبل على الغارب وجاء من ثم في ساعة نحس يريد اجبارها على الزواج؟ .

عصر يوم الخميس التالي ، ووسط دهشة الجميع ، جاء أحمد النجار يقابل فارس الصالح ويطلب يد خديجة للمرة الثالثة . . لم تكن أمه معه . كادت المفاجأة تفقد فارس صوابه . تلعثم القول عليه فلم يعرف بماذا يجيب . . حدج

أحمد شذرًا للحظات بدت لهذا الأخير وكأنها لن تنتهي ، ثم تمالك نفسه وقال ان الوقت غير مناسب ، لينفجر من ثم صارخاً .

ـ ألم تعرف أنها هربت وغابت عن البيت ثلاثة أيام ؟ .

لم يبد على أحمد النجار أي انفعال وهو يجيب :

ـ نعم أعرف . إنه عمل طائش لا أكثر ولا أقل . أعرف خديجة منذ نعومة أظفارها وأعرف أنها لا يمكن أن تخطىء . ولو كان عندي أي شك لما كنت جئت أطلب يدها .

قالوا ان فارس الصالح وُجم وأُحرج وهو يستمع له . أطرق برأسه الى الأرض فترة قبل أن يقول بتصميم ان أمر خديجة لم يعد يعنيه ، وانها حرة في أن تفعل ما تشاء ، وتتزوج بمن تشاء ان كانت تريد أن تتزوج . ثم سأل بفظاظة أزعجت أحمد النجار :

ـ هل ترى أن الوقت مناسب لطلب يدها ؟ .

ـ انه مناسب جداً بالنسبة لي

بتّ أحمد بهدوء . إنه يحبها فعلاً ! تضحية كانت منه أم صفقة عرف أنه لن يفوز بها إلا حينذاك ؟ وكما المهزلة تم كل شيء . طلبه يدها ، موافقتها ، عقد القران بعد ثلاثة أسابيع دون ضجة أو رنة . غاب عنه فارس الصالح وأم أحمد النجار ، واقتصر على العمتين واخوة خديجة وعائلة تمت بصلة قرابة بعيدة لأحمد النجار . حاول هذا الأخير أن يدخل بعض البهجة على الحفل بممازحة المأذون والعمة ازدهار لكن عبثاً ، فالوجوم رفض مغادرة الوجوه . بذلوا المستحيل مع فارس ليحضر القران ويبارك . لكنه رفض بحزم . وبات تلك الليلة خارج البيت ، وعلى الأغلب عند الليدي اليزابيت .

وخديجة ترتدي ثوب العرس ، وبعد أن أدركت أن أباها لن يحضر ، بكت بحرقة . البعض لم يعلق . لكن البعض الآخر وجد لبكائها ليلة الدخلة تفسيرات أخرى مريبة لا ترتبط بغياب كبيري العائلتين ، بل بالفضيحة التي لم تنته تفاعلاتها بعد .

نعم كاد يكون مأتماً وليس عرساً . لم تطلق فيه زغرودة واحدة ، ولا تشجعت واحدة من الحاضرات أن ترقص وتغني وتصفق . ولاحظ المأذون أن الجو غير طبيعي ، فأنجز مهمته بسرعة قياسية . وانفضّ الحفل ، إن كان يمكن تسميته حفلاً ،بعد أقل من ساعة .

اخلي الطابق العلوي مدة أسبوع للعروسين . في الصباح حدثت قصة الشرشف . خرج فارس وعاد في الهزيع الأخير من الليل ، بعد أن أخلد الجميع الى النوم . كان واضحاً انه لايريد رؤية أحد . واستمر على هذا المنوال شهراً . يخرج في الصباح الباكر ولا يعود إلا آخر الليل . فهم أحمد النجار أنه وخديجة هما المقصودان . فأبلغ العمة ازدهار انه بدأ يبحث عن بيت ينتقلان إليه . في المساء رجع فارس باكراً واستدعاه إلى غرفته حيث أمضيا حوالي الساعة لم يتسرب شيء مما دار بينهما خلالها . من يومها سكت أحمد النجار عن موضوع الانتقال ، وأقلع فارس عن تلك العادة . عادت العائلة تجتمع كلها على موائد الطعام وفي السهرات ، كما عادت العلاقات تتجدد مع الأقرباء والأصدقاء بحيث بدا أن الفضيحة أخذت تتلاشى من العقول والقلوب . لكن ذلك الجدار الذي ارتفع بين فارس وخديجة لم يتزحزح عن موقعه . ظلت علاقتهما رسمية جافة . واصطدمت محاولات خديجة اعادتها إلى بعض ما كانت عليه بعناد أبيها وتصلبه الغريب . راح يتصرف وكأنها غير موجودة . يتعاطى مع الجميع ، حتى روحية ، ويهتم بقضاياهم ، بل ، ولدهشتهم ، يمازحهم ، إلا خديجة . قلقت وتضايقت وامتلأت نظراتها بالشكوى والوجوم ، لكنها شيئاً فشيئاً اعتادت على هذا الوضع الجديد ، وبدأت تعامل أباها بالمثل . تتجاهله وتتجنبه وتبتعد عن طريقه . ثم أبلغت أحمد أنها ستستأنف نشاطها وعملها في الاتحاد . رحّب بقرارها إذ وجده أفضل وسيلة للتخفيف من الضغط الذي تتعرض له .

بعد فترة قصيرة وقع لها حادث كان يمكن أن يكون المفتاح لقلب فارس الصالح المقفل . كان ذلك في أحد أيام تشرين ثاني . . نظم اتحاد المرأة مظاهرة نسائية احتجاجاً على الهجرة اليهودية التي سجلت في الأشهر الأخيرة أرقاماً

مقلقة . انطلقت المظاهرة من بناية الصيادين بهدوء واكتفت الشرطة بمراقبتها من بعيد لبعيد . لكن الوضع تدهور ما أن اقتربت من أحد مكاتب العمل اليهودية في طلعة الباب الغربي . راحت المتظاهرات يرشقنه بالحجارة ثم حاولت بعضهن اقتحامه . عندئذ تدخل رجال الشرطة لتفريقهن فوقعت اشتباكات أصيبت خلالها خديجة بضربة هراوة في بطنها ، وجرى نقلها الى المستشفى حيث اضطر الأطباء الى اجراء عملية اجهاض لها إذ كانت حاملاً في الشهر الثالث .

وسارع الاتحاد يصنع من خديجة قضية سياسية وطنية أسهبت بعض الصحف في الحديث عنها مشيدة بوطنيتها وبطولتها وتضحيتها . . وزعموا أنه لم تبق شخصية عكاوية لم تقم بزيارتها أو ارسال باقات الورد لها خلال اليومين اللذين قضتهما في المستشفى ، باستثناء أبيها .

وصله الخبر وهو في المحل . فهب مرتاعاً يهرول إلى حيث افترضوا أنه المستشفى . لكن لا خديجة ولا غيرها رآه هناك . في المساء عاتبته العمة ازدهار قائلة انها لم تعرفه قاسي القلب إلى تلك الدرجة . هز كتفيه وهو يجيب أنه اطمأن على خديجة . لم يحاول أن يبحث عن أعذار . كان صلباً في عناده وتشبثه بموقفه . سألت عنه خديجة أكثر من مرة . بكت وهي تستعد للعودة إلى البيت . وتساءلت موجهة حديثها إلى عمتها .

ـ هل يحقد علي الى هذا الحد ؟ لم أعد استطيع الاستمرار في العيش معه تحت سقف واحد . لماذا عارض في انتقالنا ؟ هل يريد أن يبقيني معه ليعذبني ولأرى الاحتقار في عينيه كيفما نظرت ؟ أنا أيضاً بدأت أحقد عليه أكرهه وأريد أن أعذبه كما يعذبني

وحاولت العمة ازدهار تهدئتها :

ـ وأنا مثلك لم أعد أفهمه ولا أجد تفسيراً لموقفه . أنتما الأثنان تتعذبان . معك حق . الأفضل لكما أن تبتعدا عن بعض .

منذ تلك اللحظة بدأ تفكير خديجة يتمحور جدياً حول ضرورة الابتعاد ، وإلى أبعد مسافة ممكنة . وهل كان هناك أبعد من الولايات المتحدة الأمريكية في

تلك الأثناء ؟ .

عادت الى بيتها وأمّه العشرات يهنئون بسلامتها .

ـ نسي الناس فعلتها . وما كان يمكن أن يظلوا يتذكرونها إلى الأبد .

قام فارس الصالح بواجب الضيوف خير قيام . ولم يعرف البيت ، لا سابقاً ولا لاحقاً ، ذلك الحشد من الناس ، المعروفين وغير المعروفين ، الشخصيات والنكرات ، الوجهاء والبسطاء ، الاغنياء والفقراء ، الحزبيين والمستقلين .

ـ كانوا يبحثون دائماً عن بطل . هل وجدوا بعضه في خديجة ؟ كانت المشاعر تغلي ضد الانكليز واليهود . لم يكن أحد يعرف ماذا سيحدث ، لكن نذر الشر كانت واضحة ملموسة . كأنهم كانوا يدركون أن الموضوع أكبر منهم . أكبر من اليهود والانكليز . بل واكبر من فلسطين نفسها . . لكن خديجة لم تكن سوى خديجة .

وقع قرار خديجة بالهجرة إلى الولايات المتحدة وقع القنبلة في محيط العائلة . أعلنته بعد سنة على زواجها . بدا أحمد النجار فاقد الحيلة ، أو هكذا أوحى . وعندما سمع فارس الصالح بنواياها هز كتفيه لا مبالياً وقال انها حرة في أن تفعل ما تشاء . وزعم البعض أن خديجة لم تكن تريد الهجرة حقاً ، وانما كانت الفكرة بالون اختبار أطلقته على أمل أن تتحرك عواطف أبيها ، وأن يعارض كما فعل في موضوع انتقالها إلى مسكن جديد . لكنه عندما لم يبد أي اهتمام وجدت أنها تورطت ، فاضطرت إلى المضي قدماً في مشروعها . كذلك زعموا أن فارس اكتشف حيلتها ، فتظاهر باللامبالاة ، وعندما أدرك بدوره أن القصة صارت جدّية كان سبق السيف العذل .

بذلت العمة ازدهار ، تعاضدها بقية العائلة ، المستحيل لاقناعها بالعدول عن قرارها الأهوج . تحدثت عن سخف الهجرة ومساوئها ، وعن الأزمة الاقتصادية التي يقولون أن أمريكا تتخبط فيها ، وعن اتحاد المرأة ومستقبلها فيه ، وعن المظاهرات والاضرابات وفلسطين واليهود . لكن عبثاً .

ـ كانا ، فارس الصالح وخديجة ، يتبادلان مشاعر الحب والاحترام والتقدير والصداقة . لم يخفيا عن بعض سراً ، أو هذا ما كان يبدو للآخرين . عندما يبحث عمن يشكو له همومه ، أو عندما يطلب نديماً يسارره وسميراً يرتاح إليه ، لم يكن هناك سواها . وهي أيضاً وجدت فيه الأب والأم والأخ والصديق . لم تهن علاقتهما حتى وهي تنمو وتراهق وتتفتّح للحياة صبية حلوة منطلقة تغلي فيها دماء الشباب ، تتعرف على ناس جدد وعالم أرحب ، وتطرق قلبها ، كما هو مفترض ، عواطف وأحاسيس طبيعية حيال شبان ورجال ومعجبين ، تحلم بالجنس وتتعرض لملاحقات ونظرات واغراءات في تلك المرحلة الصاخبة من الحياة ، تقع في الحب وتدخل في تجاربه ، بل وربما تقيم علاقات سرية حميمة . . إذن لماذا تمسك فارس الصالح بموقفه المتعنت ؟ أحقاً استصعب أن يتراجع عن وعد قطعه لهذا الخاطب ؟ كيف أمكن له أن يتحرر من تلك الروابط التي نسجتها علاقته بخديجة ليفجّر معها معركة خلبية أدت ألى أكثر النتائج تدميراً في حياته وحياتها ؟ لماذا حول قضية زواجها إلى مباراة عض أصابع هزم فيها الاثنان ؟ كيف نسي ذلك الاتفاق الشرفي الذي انتظم بينهما دائماً ، ومفاده أنه لن يجبرها على ما لا تريد ، وهي بالمقابل لن تفعل ما تدرك أنه لن يعجبه ولن يوافق عليه ؟

أسئلة ، وكثير غيرها ، ظلت دون جواب إلا لصاحبي العلاقة ، ربما .

ـ ٨ ـ

نيويورك ٣٠ـ١١

وأخيراً أزور ديترويت . فيها أتنفس عميقاً هواء لا يغلب عليه الطابع اليهودي . يستقبلونني بود وحرارة . وفاء تشبه هيفاء كأنهما توأم ، إلا أنها توازيها في الحجم مرتين تقريباً . أنسوني ليومين بعدي عن الوطن . وددت لو أبقى معهم فترة أطول ، لو أهجر نيويورك ، لو أحزم حقائبي وأرجع إلى عكا ، لو أن هيفاء معي ! رؤية وفاء تجعلني أشتاق بشدة الى تلك المرابطة هناك . اتصلنا

بفلسطين وتحدثنا معهم . سرّتها كثيراً زيارتي لأختها . تتمنى لو أننا نكون كلنا معاً . كدت أطلب منها أن تعد حقيبتها وتأتيني على أول طائرة . لم أعرف ماذا منعني . ربما لأنها قالت ان العجوز مريض ، وربما لأنني لا زلت غير مستقر حتى الآن !

أمضينا السهرة في المطعم الشرقي مع شريكي عبد المعطي . كهلان غزاويان هاجرا إلى الولايات المتحدة في مطلع السبعينات . ظل الجو ممتعاً إلى أن لبّده نقاش جاد دار بيننا حول خبر نشرته النيويورك تايمز عن اتصالات سرية بين مصر واسرائيل . اختلفنا حول نوايا السادات وحاولنا تحليل الحرب الأهلية الناشبة في لبنان . حدثتهم عن ديب واعتقاله وهو في طريقه إلى جنوب لبنان . لم أستطع أن أعطي سبباً مقنعاً لوجوده هناك ولا لادعاء اسرائيل بأنه فدائي . وجرنا الحديث الى العمل الفدائي واسرائيل وحرب تشرين وايلول وكل ما يخطر على بال مجموعة مرتاحة الى الموسيقى والطعام في مطعم شرقي بمدينة أمريكية . تضاربت الآراء بقدر عددنا . ضحك عبد المعطي وهو يؤكد اننا خير ممثلين لأمة قحطان . المطعم كان كذلك أيضاً . . معظم رواده من المغتربين العرب . قال أحد الشريكين انه مطعم بابل العرب . لغات ولهجات مختلطة متنافرة لفلسطينيين وسوريين وأردنيين ولبنانيين ومصريين وعراقيين وخليجيين ومغاربة إلى آخر القائمة . لكنهم بمعظمهم صاروا ، بطريقة من الطرق ، أمريكيين أقحاحاً ، المولودون هنا والذين هاجروا لتوّهم ، الفقراء والأغنياء ، المتعلمون وحاملو شهادة محو الأمية . يتذكرون الوطن ويحنّون إليه ، لكن أحداً منهم ليس مستعداً للتخلي عن أمريكا من أجل العودة إليه . . . كم هو رائع وعظيم وجميل وممتع الوطن وأنت بعيد عنه ، وكم هو قاس وموحش وغدّار ولا مبال وأنت في ربوعه!

تحدثوا باستفاضة في ذلك الموضوع . غريبة هي أمريكا كيف أصبحت حلم وطموح وأمل الجميع . ما أن يصلها المحظوظون حتى يقعوا في قبضة سحرها الذي يساعدهم على التأقلم مع الدنيا الجديدة . . هم سيندمجون ، إن

عاجلاً أو آجلاً ، في مجتمعها المنسجم المتنافر ، المتميز الغريب ، العنصري المثالي ، الأخلاقي الفاسق ، العنيف الهادىء ، العدواني المسالم ، البسيط المعقد ، النبيل الحقير ، الساذج الماكر ، المجنون العبقري ، الالهي الشيطاني . . ربما السبب أن كل شخص يستطيع أن يكون هنا ما يشاء ، متحللاً الى أبعد الحدود أو متزمتاً الى أقصاها ، خارجاً على القانون أو محافظاً عليه ، قاضياً أو جلاداً ، طيباً أو شريراً ، طبيعياً أو شاذاً ، بروتستانتياً أو كاثوليكياً ، يهودياً أو مسلماً، مؤمناً بالله أو تابعاً للشيطان .

أشرت الى وحدتي وضيقي من نيويورك ، قالوا انها ليست مشكلتي وحدي ، حتى الأمريكيون يعانون منها . وربما لو كانت هيفاء معي كنت اكتشفت حسنات لا أستطيع رؤيتها بمفردي . اتهموني بأنني متحامل أكثر من اللازم على عاصمة العالم . اقترح عليّ عبد المعطي ، مازحاً ، أن انضم إلى احدى جمعيات الوحيدين Lonelyone's ، المنتشرة بكثرة في الولايات المتحدة ، أو أن استدعي هيفاء على وجه السرعة طالما عجزت عن الوقوع على أمريكية تنسيني همومي ، ثم همس مقهقهاً ، وزوجته تحدجه بود ، أن الأمريكيات أخصائيات في جعل الرجل ينسى نفسه وليس فقط وحدته !

راح يتحدث بفوقية وتشاوف أثارتا غيظك . أحرجك وهو يطلق دراكاً قفشاته المتلاحقة عن عكا وأهلها . . العكاويون يتوهون اذا ابتعدوا عن حارتهم . خارج السور يصيحون يا غربتي . . يرتعبون اذا رأوا بومة ويخفون رؤوسهم تحت وساداتهم . العكاوي تسحره زوجته فيفقد قدرته على النوم مع غيرها . قد تكون هذه مشكلتك ! يقهقه بمرح فيزداد غيظك . بالطبع هي المرة الأولى التي تغادر فيها عكا وتبتعد عن هيفاء . يسألونك عن هيفاء وفلسطين ، فتغوص في رحم الماضي الدافىء .

عندما جاءت خالتي سعاد وهيفاء إلى فلسطين بعد غياب سبعة عشر عاماً لم يتوقع أحد أن تكون أكثر من زيارة عابرة لرؤية ما تبقى من أهل وللسياحة في مرابع الطفولة ولمطالبة عبد المجيد المشعلاني ، شقيق المرحوم مصطفى ، ببعض

ماستولى عليه من إرث العائلة . كان الرجل أحد أبرز الوجوه العربية في عكا . اشتهر بعلاقاته التجارية مع مجموعة من الشخصيات اليهودية التي استلمت مناصب مهمة بعد قيام اسرائيل . بواسطتها استطاع أن يثبت أنه الوريث الوحيد لممتلكات آل المشعلاني الواسعة ، فاستولت الدولة على بعضها وتركت له بعضها الآخر . إلا أن العديدين لم يصدقوا تلك الأقاويل . زعموا أن تساهل اليهود معه كان ثمناً لخدمات قدمها ويقدمها لهم . لم يعرف أحد طبيعة ونوعية هذه الخدمات المزعومة ، لكن شكوكاً كثيرة حامت حولها ، وترسخت من ثم تلك الشكوك بعد أن انتسب الى حزب العمل ونجح على قائمته في انتخابات الكنيست .

رافقتهما في الزيارتين اللتين قامتا بهما إليه . في الأولى رحب بهما بحرارة واحتج لأن سعاد لم تبلغه سلفاً أنها ستأتي الى فلسطين . هي لا تعرف كم هو مشتاق لها ولأبناء المرحوم ، وكم حزن لأن مصطفى توفي في المهجر بعيداً عن أرض الوطن . دعاهما لأن تقيما عنده وستنزلان على الرحب والسعة في الفيلا الجميلة التي يملكها ، لكن خالتي سعاد اعتذرت بأدب وزعمت أنها مرتاحة جداً عندنا .

كنت سمعت كثيراً عنه وبخاصة جهوده لنشر روح الاخاء والمودة والتعايش بين الشعبين العربي واليهودي . لكنها المرة الأولى التي أقابله فيها . . بدا وقوراً مهاباً بشعره الأبيض وتقاطيع وجهه المترهلة ، لكن الوسيمة ، وعينيه الذكيتين الماكرتين السريعتي الحركة وزوجته الجميلة التي تصغره بأكثر من ربع قرن . . . بالطبع هو يعرف أحمد النجار وخديجة الصالح . ومن ينسى خديجة الجميلة التي كانت من أوائل اللواتي أسفرن في عكا ، فقام الناس ولم يقعدوا ؟ لعن الظروف والمشاغل التي باعدت بيننا ومنعتنا من أن نكون أصدقاء بالرغم من أننا نعيش في نفس المدينة . .

تناولنا طعام الغداء على مائدته التي حوت مالذ وطاب ببذخ ملوكي أثارني وأدهشني وحرّك في نفسي تلك المشاعر الدنيئة من الامتعاض والغيرة والحسد . .

بل ان ما أثارني فعلاً هي تلك القبلات التي راح يطبعها بين الفينة والأخرى على وجنتي هيفاء معبراً لها عن شوقه واعجابه وترحيبه !

بعد الغداء اختلت به خالتي في مكتبه . قالت انه أظهر الدهشة وهي تتحدث عن ميراث العائلة وعن مصطفى الذي توفي فقيراً معدماً في استراليا . ضرب كفاً بكف وهو يقول ان اليهود استولوا على كل ما خلفه الوالد ، وحتى حصته اعتبروها أملاك دولة . . . لكنه ، بشطارته وذكائه وجدّه وتفانيه وصل الى ما هو عليه الآن . ليس له شيء عند أحد ، وليس لأحد عنده شيء . . كان لطيفاً ناعماً إلا أن كل كلمة قالها كانت تنطق رياء وكذباً . . بكت خالتي سعاد وهي تستنزل اللعنات والشتائم على رأسه مؤكدة أنها لن تتركه يلطش حقوقها وحقوق أولادها . ستقاضيه في المحاكم إن ركب رأسه وظل على إنكاره . بعد أسبوع زارته ثانية ، بمفردها هذه المرة . عندئذ أبلغها انه يستقبلها ويرحب بها بكونها أرملة أخيه لا باعتبارها سيدة تطالب بحقوق لا أساس لها من الصحة . . هو على استعداد لأن يمدّها بمبلغ ما ان كانت في ضائقة ، لكن لا أكثر . . رغبت لو تصفعه لتلك الاهانة الصفيقة . لم تقاضه ولم نره من يومها . عندما تزوجنا ، أنا وهيفاء ، فاجأنا بارسال باقة ورد فخمة سحقتها خالتي سعاد تحت قدميها وهي تلعن الساعة التي أصـ ـت فيها كنّة المشعلاني !

لم أفكر بهيفاء جدياً إلا عندما جاء بعض الجيران يجسّون نبض خالتي تمهيداً لطلب يدها لابنهم . رفضت هيفاء حتى البحث في الموضوع قائلة أنها لم تأت الى عكا بحثاً عن عريس . في المساء ، وبعد أن أوت ضيفتانا الى غرفتهما ، سألتني أمي ، بشكل بدا عفوياً ، عن رأيي في هيفاء . كان ايجابياً بالطبع . إنها من الفتيات اللواتي لا يمكن إلا وأن تعجب بهن . صغيرة وجميلة وناضجة وواعية ومرحة ، وفوق ذلك كله استرالية ! ولم أفهم إلامَ كانت ترمي إلا عندما قالت :

ـ وهي أيضاً أبنة خالتك . ما رأيك فيها كزوجة ؟

لم يكن الأمر بحاجة إلى كثير تفكير . خلال أقل من أسبوعين تزوجنا . اكتشفت من ثم أن أمي ، منذ وقعت عيناها عليها ، رأت أننا نليق ببعض ،

فوضعت الطبخة على النار . عارضت خالتي سعاد في البدء بشدة ، قالت ان هيفاء لم تبلغ بعد العشرين . فأفحمتها أمي أنني أنا أيضاً لم أبلغ الرابعة والعشرين ، وعليه فإن المكسب مع البنت ! عادت خالتي تقول انها لا يمكن أن تزوج ابنتها دون وجود أخوتها . ثم من قال انها جاءت الى فلسطين بحثاً عن عريس ؟ لكن هيفاء حسمت الموضوع باعلان موافقتها فرضخت خالتي .

كنا في زحمة الاستعدادات للزفاف عندما دب ذلك الخلاف الكبير بين الشقيقتين حول مستقبلنا . قالت خالتي انها وافقت مرغمة معتقدة أنني سأرافقهما الى استراليا لتبقى ابنتها بقربها . يكفيها اغتراب وفاء الى الولايات المتحدة . وهناك في سيدني ، أكدت ، يمكن أن أعمل مع أولادها في مزرعة الخيول التي يديرونها . مزرعة ضخمة ستجعلهم من كبار الأثرياء إذا نجح مشروعهم . لكن أمي رفضت الفكرة رفضاً باتاً . قالت ان لا شيء لنا في استراليا ، وأنا لم أحصل على ماجستير الهندسة لأعمل في تربية الخيول . سألتها خالتي عندئذ ، باستهزاء ، ان كنت حصلت على تلك الشهادة لأصير معلماً للرياضيات !؟

قررت أن الوقت حان لأوقفهما عند حدهما وأذكّرهما أن الموضوع يخصّني وهيفاء ، وأن القرار فيه قرارنا لا قرارهما . لكن خالتي فاجأتني وهي تقول انه في فلسطين أيضاً لم يبق لنا شيء . سألتها أمي ماذا تعني . فكررت الجملة باستفزاز .

ـ سمعتيني جيداً ياخديجة . . في فلسطين ايضاً لم يبق لكم شيء .

عندئذ فقدت خديجة أعصابها وانهالت عليها تقريعاً وتأنيباً بصوت شرس . . تعرفها عاشقة لفلسطين ، مؤمنة أن زيوانها أحسن من قمح الغريب ، لكنك ما عرفتها تعبدها حتى الهيام إلا وهي تصرخ ، وقد أصابكم الوجوم والاحراج ، تحاضر في سعاد التي فوجئت فاستكانت كطفل مذنب ، عن الوطن الذي يضيع . عن الأرض التي يعملون المستحيل لنتركها لهم . . عن الناس الذين يدفعونهم دفعاً للرحيل . . لكن فشروا . . يستطيعون أن يحتلوا فلسطين ، وأن يكتبوا على كل خرائط العالم اسم اسرائيل ، وأن يزوّروا كل

سندات الطابو ، وأن يهدموا كل البيوت التي بنيناها ونبنيها ، وأن يطردونا منها بالقوة ، وأن يقلبوا عاليها أسفلها ، وأن يقطعوا زيتوننا وبرتقالنا ، وأن يعطونا هويات اسرائيلية ، وأن ينتصروا وأن ننهزم . لكن ذلك كله لن يغير في حقيقة أن فلسطين فلسطيننا ، وأن الأرض أرضنا . الجبل جبلنا والسهل والصخر والبحر والرمل . . هنا ولدنا وعشنا وهنا سنموت . لكل الناس الحق في أن يهجروا بلادهم وأن يذهبوا إلى أي مكان يشاؤون ، فهذا لن يغير في واقع وطنهم شيئاً . لكن الأمر مع فلسطين يختلف . . إن هجراتنا مسامير تدق في نعش فلسطين . هاهم هاجروا إلى استراليا فماذا حققوا ؟ أضاعوا الأرض والوطن ! ولماذا رجعت الأن لتطالب شقيق زوجها بما تدعيه حقوقها ؟ إنها لاحق لها عنده ، ولو كانت مكانه لأتخذت نفس الموقف . هو على الأقل لم يهرب .

هدأت فقط عندما قررت هيفاء . .

ـ نتزوج ونبقى هنا . . .

خرجت خالتي من الغرفة غاضبة فلحقتها أحاول تهدئتها . بكت بحرقة وهي تقول :

ـ هكذا دائماً هي خديجة فاجرة متجبرة متسلطة سليطة اللسان لاتراعي شعوراً لأحد . حسبت أنها بعد كل تلك السنوات ستكون تغيرت . العالم كله تغير . لكنها لاتزال كما عهدتها . . عرفت دائماً كيف تأخذ حقها من الدنيا . وهي الآن تستفرد بي تريد أن تأخذ حقي بابنتي . الا ترى كيف سيطرت عليها واقنعتها بأن تبقى هنا ؟ لم يبق لكم شيء في فلسطين يا وليد . انها اسرائيل وأنتم عرب . حتى جواز سفري الاسترالي لم يحمني من أن اشعر بالذل والهوان . ليس لكم وطن هنا ولن تصيروا أبداً اسرائيليين . فلماذا لا يكون العالم وطنكم ؟ أوه . . انها مجنونة خديجة . . هل هي سعيدة هنا ؟ هل ستكون هيفاء سعيدة ؟ هل أنت سعيد ؟ من أنتم هنا ؟ لا شيء . . إن لم تهاجروا برغبتكم سيجدون ألف وسيلة لاجباركم على الهجرة . ان لم يكن اليوم فغداً . وفاء في أمريكا وهيفاء هنا والصبيان كل واحد ملتهٍ بعمله وعائلته . ماذا سيبقى لي أنا ؟ هل

تريدني أن أمضي بقية عمري وحدي ؟ .

حاولت التخفيف عنها ومواساتها لكن عبثاً . . كانت حانقة عاجزة عن السيطرة على أعصابها . عندما لحق بنا أبي يطلب منها أن تأخذ الأمور بروية سارعت تكفكف دموعها وتقول بنزق .

ـ أنت أيضاً تريدني أن أسكت كأنك لا تعرف خديجة . . انها لا تفكر لأبعد من أنفها . أنسيت قصصها وفصولها ؟ لوكانت عاقلة ما كانت حرقت البيت لتدخل أنت السجن ، وما كانت . .

قاطعها أبي بصرامة .

ـ أرجوكِ يا سعاد هذه أمور بيني وبين خديجة ولا دخل لأحد فيها .

طلبت من أمي أن تعتذر لها ، فهي أختها الأكبر ، ولم يكن هناك من داع لأن تتهجم عليها بهذا الشكل . لكنها رفضت . . وبقيتا يومين متخاصمتين لاتتبادلان الكلام . . وبقينا في عكا . وهاهي خالتي المسكينة تمضي بقية عمرها وحيدة في سيدني تجترّ غيظها وتعيش على الراتب التقاعدي الذي تناله من الحكومة . أفلس مشروع تربية الخيول وتفرّق أبناؤها الثلاثة يبعد أقربهم إليها /٣٠٠/ كيلو متر عن سيدني .

نفكر فيها كثيراً ، ونشعر أحياناً بتأنيب الضمير . لا زالت هيفاء تلحّ عليها أن تترك استراليا وتأتي تقيم معنا في عكا . . لكنها لا ترد . . اعتادت على واقعها هناك . تزورنا مرة كل عامين أو ثلاثة لتعرب عن قلقها لأن الله لم يرزقنا أطفالاً !

ـ ٩ ـ

اوائل عام ١٩٣٦ عادوا إلى عكا ، خديجة وأحمد النجار وطفلاها عزت وديب . وصلوا مساء يوم الأربعاء حيث استقبلتهم الست الفت في الميناء ورافقتهم الى شقة صغيرة استأجرتها لهم في العمارات . صباح الخميس أوفدت الست الفت احدى العاملات في اتحاد المرأة لابلاغ العائلة . لم يكن في البيت

آنذاك إلا العمتان ازدهار وروحية . وقع الخبر على رأسيهما وقوع الصاعقة . أصابتهما موجة عاصفة من الحنق والتحامل على تصرف خديجة الأحمق . أن تعود فجأة وبالسر أولاً ، وأن تستأجر بيتاً ثانياً ، وأن ترسل غرباء يبلغونهم الخبر ثالثاً ! بعد أن هدأتا اتفقتا على أن تذهب ازدهار لابلاغ فارس ، وأن تذهب روحية للاستدلال على البيت الذي يقيمون فيه .

كانت صدمة العمة ازدهار أكبر ، بل وتأكد لها أنها تعيش بين مجانين ، عندما اكتشفت أن أخاها يعرف كل شيء ، ساعة عودتهم ومن استقبلهم والبيت المستأجر . لم يترك لها مجالاً لطرح أي سؤال . كلف أحد الرجال بايصال العمة الى بيت خديجة .

ـ قولي لها ان بامكانها أن ترجع إلى البيت . لن ترتاح في قنّها الجديد .

حاولت ازدهار ان تعترض قائلة ان خديجة لو كانت تريد الرجوع لما استأجرت القن . فأجابها بأسلوبه الآمر الذي اعتادت أن ترضخ له بقدر ما تكرهه .

ـ اطلبي منها فقط أن ترجع . . لا تقولي لها انني أنا أرسلتك . اجعلي الأمر يبدو وكأنه منك ولا تخافي . سترجع . .

تركته وهي تشتمه في سرها . . وجدت خديجة بمفردها مع الطفلين . ضحكت هذه بسخرية وهي تقول :

ـ يحسبني غبية لن أفهم أنه هو الذي يريدني أن أرجع ؟ هو على أحر من الجمر ليواصل اذلالي وتعذيبي ، أليس كذلك ؟ ما فائدة رجوعي الآن ؟ البيت صغير ، لكني سأرتاح فيه . لماذا لم يجب ولا على واحدة من رسائلي ؟ .

سارعت العمة ازدهار تنفي تخميناتها جملة وتفصيلاً بالرغم من أنها هي نفسها لا تزال عاجزة عن فهم سبب الحاحه على عودتها . . لم تقتنع خديجة بما قالته عن شوق أبيها لها ، وعن البيت الكبير ، وعن طفلي خديجة اللذين سيملأان حياة جدهما . . وكانت فرصة مناسبة بعد غياب ثلاث سنوات لتفضفض عما

بنفسها وتشكو بعض ما في قلبها . لقد دفعها دفعاً إلى الهجرة . حسبت أنها بالابتعاد عنه كل تلك المسافة ، وبتغيير البلد والناس ، قادرة على تغيير حياتها والبدء من جديد . لكنها فشلت . هل حقاً لم يكن أمامها غير هذا الخيار ؟ طيلة فترة غيابها انتابتها هواجس مضنية بأنه كان يعرف أنها لن تستطيع أن تبقى بعيدة . أجبرها على الهجرة ليثبت لها ، ولنفسه ، تلك الحقيقة . . هاهي ذي ترجع إلى عكا وإليه ، وليس إلى أي مكان آخر . . نعم . . يعرفها أكثر مما يعرف نفسه ، وأكثر مما تعرف هي نفسها . فلماذا لا يريد إذن أن يصدق أنها لم تأثم بتركها البيت تلك الأيام الثلاثة ؟ .

ـ في المرات النادرة التي تحدثت فيها عن هذا الموضوع تجنبت تماماً استخدام كلمة الهروب .

هو الذي بدأ الخطأ بمحاولة اجبارها على الزواج : بتّ في الموضوع بنفس عقلية الأب الشرقي القيّم على ما لديه من حريم . وهي ليست ، ولن تكون أبداً ، حرمة أي رجل يقرر لها كيف تعيش ، حتى لو كان اباها ، فارس الصالح ! كان مستحيلاً أن تتنازل عن كل ما حققته بجرة قلم منه ، أن تلغي شخصيتها وتترك أحلامها وأفكارها وعواطفها ومشاريعها تتحطم تحت قدمي ابن البِك . كادت تتقيأ وهي تتخيل نفسها في أحضانه ، فكرهته كما تكره الموت . . لم يهضم عقلها أبداً فكرة أن تُقاد رغماً عنها إلى رجل اختاروه لها ! هل كانت تحلم بان تحب وأن تختار بنفسها فارس أحلامها ورجلها ؟ . لم لا ؟ . . وفكرت بالعمة روحية ، وبأختها سعاد . وكان لا بد أن تهرب ومن بعدها الطوفان . . لكن كل الحسابات حسبتها إلا أن تكون ردة فعله على هذا الشكل . . أخطأت فقط في ترك تلك الرسالة السخيفة التي جعلتهم يفسرون الأمر كل على مزاجه . كان عليها أن تترك البيت فقط . . مضى اليوم الأول في نشوة ما اعتقدته مغامرة مشوّقة مأمونة العواقب . في اليوم الثاني بدأت الهواجس تنتابها وشعرت أنها تسرعت وتورطت . في اليوم الثالث بدأت تدرك وطأة المأزق الذي رمت نفسها فيه ، فاتخذت قرار العودة . تخيلته غاضباً ثائراً محرجاً قلقاً حانقاً ، وتصورت كل

ما يمكن أن يحدث من تقريع وتأنيب وصراخ وحرمان وحتى ضرب . لكن .

ـ آه يا ازدهار . تمنيت من كل قلبي أن يحاول قتلي . . لكن ذلك كان مستحيلاً !

ما كانت العمة ازدهار من ذلك النوع الذكي القادر على فهم الأمور على الطاير ، بل كانت تتباهى بأنها امرأة بسيطة على البركة . لكنها في تلك الخلوة الحميمة ، وبعد تلك الغيبة الطويلة ، وخديجة منغمسة في حوارها الذاتي الصادق والشفّاف ، حسبت ازدهار أنها توشك تلمس بعض خيوط الحقيقة حول الذي تخفيه خديجة وراء أستار كثيفة . نعم هي لا تزال تدور وتلف حول الموضوع ملتزمة أقصى درجات الحذر ، لكن تلك الكلمات المشبعة بالمعاني عن المغامرةالمشوّقة ، الهواجس ، التورط ، النشوة ، الآهات بين الجملة والجملة ، النظرات السارحة عميقاً في البعيد البعـيـد ، دون أن تأتي على ذكر الست الفت ، كل ذلك يوحي ، ربما،أن خديجة لم تمض كل تلك الأيام عند الست الفت . بل وراحت العمة ازدهار تشك في ان الرسالة كتبت قصداً لتحمل اكثر من معنى . وظنت أن اللثام يوشك أن يماط عن الحقيقة ، أو على الأقل بعضها ، فتجنبت أن تقاطع خديجة واكتفت بهز رأسها تشجعها بنظرات حانية متفهمة على الاسترسال في مونولوجها .

لكن المشهد سرعان ما قوطع بدخول أحمد النجار ترافقه العمة روحية التي التقاها وهي تبحث عن البيت . وكأنما أيقظ قدومهما خديجة من سبات كانت غارقة فيه بلذة وألم ، هبّت تساعد زوجها في نقل ما كان يحمل من أغراض . وانتظرت إلى أن انتهت العمة روحية من عتابها لتفاجىء أحمد بصوت حرصت على الا يحمل أية عاطفة أو ايحاء :

ـ يريدنا أبي أن نرجع لعنده . ما رأيك ؟ .

لم يبد عليه أنه فوجىء كثيراً ، أطرق إلى الأرض فترة وقال من ثم بسخرية مريرة فاجأت النسوة الثلاث .

ـ صرت كالطابة بينها وبين أبيها .

وأردف يسأل خديجة بعد لحظة صمت .

ـ وأنت ماذا تريدين ؟ .

وأجابت أنها يجب أن تفكر بالموضوع . وفهم أحمد النجار والعمتان من ذلك أنها موافقة ، لكنها لن ترجع فوراً .

بعد أسبوعين ، في أوائل شباط ١٩٣٦ ، أُعتقل عبد العزيز بتهمة المشاركة في اغتيال يهودي . لم يكن هناك دليل على ذلك سوى شهادة اثنين من اليهود زعما أنهما شاهدا عبد العزيز الصالح والقاتل ، الذي فرّ ، يلاحقان القتيل ليلة مقتله . كانت الأجواء مشحونة متوترة في كل مكان بفلسطين ، فأحداث ذلك العام بدأت تذر قرنيها وتتفاعل في حياة شعب يستعد لمواجهة أيام عصيبة لا يعرف إلى أين ستقوده . بذل فارس الصالح جهوداً جبارة ، وسخّر كل أصدقائه ومعارفه ، وعلى رأسهم الليدي اليزابيت ، إلى أن استطاع الافراج عن ابنه بكفالة مالية كبيرة . وفي نفس الليلة ، وبعد أن دفع رشوة أكبر ، استطاع تهريبه إلى لبنان . بعد يومين وصلته رسالة مغفلة تهدد بأنهم سيثأرون بقتل ابنه الثالث أيمن . لم يكن هناك مفر من تهريب المذكور أيضاً . وقالوا أن فارس ضحك بصفراوية بعد أن ودعه وهو يقول :

ـ لم يبق غيري . فهل ينتقمون مني ؟

في الليلة التالية احترق متجر فارس الصالح ، وقالوا ان الله ستر فلم يحترق السوق كله . كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل بقليل عندما جاء اثنان من الحراس العرب ينقلان إليه الخبر . سارع الى المحل ولم يكن هناك ما يستطيع أن يفعله . عندما وصل شريكه أيهم المتولي كان كل شيء قد انتهى . ظل فارس متماسكاً محاذراً أن يبدو عليه أي ضعف . لم يتفوه بكلمة واحدة وهو يجوس بين الأنقاض والروائح الكريهة والمياة السوداء وقد غطّى أنفه وفمه بقطعة قماش من ثوب أبقى الحريق على بعضه .

خرج بعد أن كادت رائحة الدخان والعسيس تخنقه ، منكوش الشعر زائغ النظرات والدموع تملأ عينيه الحمراوين . لم يعرفوا أهي دموع الحزن والأسى

والغيظ ، أم سببها دخان الحريق الذي يعمي . أمضى وأيهم الليلة كلها هناك ، وكانت باردة جداً ، وكأنهما يحرسان ما تبقى من الأطلال . عادا مع بزوغ الفجر وقد عجنهما السهر والحزن والارهاق . سمعته العمة ازدهار يؤكد لأيهم باصرار أن الموضوع يخصه ، وأنه وحده سيتحمل الخسارة كاملة ، فلا علاقة لشريكه بما حدث . أغلقا على نفسيهما غرفة فارس بعد أن حذرا من أية محاولة لازعاجهما .

في الثامنة صباحاً غادر أيهم البيت وهو يتمايل ثملاً . وراح القلق ينهش ازدهار ، لكنها لم تفكر بعصيان أمره ودخول غرفته . عندما وصلت خديجة في التاسعة ملهوفة مرتاعة تسأل عنه . ، فاجأتها ازدهار بالقول انه لا يريد أن يزعجه أحد . دفعتها خديجة بعنف وهي تلعن غباءها ، وفتحت باب غرفته على مصراعيه . كان متكوّراً على كرسي وقد غرق في نوم عميق فيما رائحة الكحول والدخان المتخمرة تثير الغثيان في النفس . صرخت في عمتيها وفي زوجة عبد العزيز وزهرة أن يتحركن ، وتعاونت النسوة الخمس على نقله إلى غرفة نومه حيث أرقدنه في سريره .

هاهي الظروف تفرض نفسها على خديجة الصالح فتعود من جديد كما كانت سابقاً ، الآمرة الناهية المطاعة . أشرفت على تنظيف وتهوية غرفته والطابق الأول بأكمله ، وقامت بجمع واخفاء كل ما عثرت عليه من قناني العرق والوسكي والنبيذ ، وكانت عديدة متنوعة جعلتهن يكتشفن للمرة الأولى في حياتهن ، وبالأخص العمتان اللتان أصيبتا بالذهول وارتسم الاستنكار بجلاء على وجهيهما فراحتا تبسملان وتبصقان على الشياطين المنتشرة في الغرفة ، أن فارس الصالح التقي الورع الذي لا يقطع فرض صلاة معاقر عتيق لبنت الحان ! أصدرت خديجة أوامرها الصارمة بالتكتم على الموضوع ، وبتجنب الحديث أمامه عن الحريق . . بعد ساعة كانت تستقبل أول فوج من الزوار بنفسها معتذرة لهم بأن أباها لا يستطيع مقابلتهم بسبب الارهاق وحاجته الى بعض الراحة . نفت بحزم أن يكون الحادث أثّر على صحته ومعنوياته ، لكنها كانت على خطأ ، ظل فارس الصالح نائماً حتى المساء . واستيقظ واهناً مضعضعاً مصاباً بحمّى

شديدة .

أمضى أربعة أيام طريح الفراش شبه غائب عن الوعي . احتكرت خديجة مهمة رعايته ومعالجته تاركة للعمتين أمر طفليها . نامت على أريكة في غرفته . أطعمته وأعطته الدواء وأمضت ليلتين ساهرة تعمل على تخفيض حرارته بكمادات الماء والثلج . في اليوم الخامس فتح عينيه بصعوبة وطلب أن يشرب . عندئذ خرجت خديجة من الغرفة وقالت للعمة ازدهار بصوت آمر .

ـ جاء دورك الآن .

هرولت ازدهار إلى غرفته تهنئه بالسلامة . وكان أول ما قاله وهو يحاول الجلوس على السرير .

ـ كانت هنا خديجة ؟ .

هزت رأسها بالايجاب متوقعة أن تساعدهما تلك المحنة على فتح صفحة جديدة ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . شفي فارس الصالح وعادت خديجة الى البيت وبقيت علاقتهما على حالها ، رسمية متكلفة باردة . لكن ذلك لم يعد يثير اهتمام أحد ، فقد كانت هناك تطورات ومستجدات فلسطينية تشغل الجميع وتجرفهم الى دوّامتها . .

بعد احتراق المحل ، والخسارة الفادحة التي جعلته على الحديدة ، كما زعم ، بالاضافة إلى المبلغ الكبير الذي دفعه لتهريب عبد العزيز وأيمن ، وقع فارس الصالح في دوامة من القلق والتفكير المضني والبحث المحموم عن مخرج لأزمته المالية . عرض قطعة أرض للبيع ، فلم يتقدم لشرائها بمبلغ معقول إلا اليهود . حاول رهن بعض أملاكه ، ومن ضمنها البيت ، مقابل الحصول على قرض مصرفي ، لكن الوضع العام لم يكن يسمح بأي شيء من هذا القبيل ، فالحالة تزداد غلياناً ، والعنف يشمل فلسطين من أقصاها لأقصاها . وزاد الطين بلة شح الأمطار ذلك الشتاء مما بشر بموسم زراعي سيء .

بعدما بدا أن كل السبل سُدّت في وجهه ، اقترحت خديجة على النساء أن يقدمن له مصاغهن ، وهذا ماحصل . احتفظت كل واحدة منهن بقطعة ذهبية

واحدة ، وقامت العمة ازدهار بتقديم ما جمعته له . زعموا أنه بلغ حوالي الكيلوغرام من الذهب الخالص . أخذها بصمت وحتى دون كلمة شكر أو تقدير ، وكأنه كان ينتظر تلك الخطوة منهن . سّجل كل القطع مؤكداً لازدهار أنه سيعيدها إليهن ما أن يتجاوز الأزمة . ساعدته تلك الثروة على الوقوف مجدداً على قدميه ، لكن ليزداد في الوقت نفسه معاقرة للمنكر ، علناً ، وابتعاداً عمن حوله غارقاً أكثر فأكثر في عزلته .

أما خديجة فوجدت الفرصة سانحة أمامها للعودة الى الحياة العامة . المعارضة الوحيدة لرغبتها جاءت من العمة ازدهار التي ادركت أن عبء رعاية عزت وديب ستقع على عاتقها . وحذرت خديجة بأنها لم تعد في عمر يسمح لها بالقيام بتلك المهمة ، لكن دون فائدة .

بدا أن اقامة خديجة الطويلة في الولايات المتحدة زادتها تجربة وخبرة ونضوجاً في العمل السياسي والتنظيمي . أشرفت على فرع التعبئة في اتحاد المرأة . كثرت جولاتها ومهامها في قرى القضاء . ونجحت في تنسيب أعداد لا بأس بها من النساء ، وفي افتتاح دورات لمحو الأمية . . . في شهور الاضراب والثورة الستة أقامت أربع دورات شاركت فيها خمسون امرأة . اعتبرت خديجة ذلك نصراً شخصياً لها . في مطلع حزيران كانت تستعد للسفر إلى مصر ضمن وفد نسائي من أجل شرح التطورات في فلسطين ولجمع التبرعات . لكن عشية سفرها قتلت أم أحمد النجار برصاصة طائشة قرب سور عكا أثناء تفريق الشرطة لاحدى المظاهرات .

ماتت أم أحمد دون أن تصفح عما اعتبرته غلطة لا تغتفر من أبنها ، وغبناً تاريخياً لحق به بزواجه من خديجة . عارضت بكل قوتها تلك الزيجة المشؤومة والمشبوهة ، وحذرته بأنها ستغضب عليه كل عمرها . لم تستطع أبداً أن تبلع وتهضم فكرة أن تصبح خديجة ، تلك الفاجرة الملعونة المارقة التي صارت سيرتها مضغة في الأفواه ، كنتها وزوجة وحيدها . لكن ابنها مضى في غيه ضارباً عرض الحائط برغبتها وتهديداتها ، حاسباً أن الأيام كفيلة بتهدئتها وباجبارها على

الرضوخ للأمر الواقع . وكان أن طاشت حساباته .

ورفضت أن يقيما معها وأن تقيم أية علاقة معهما . . كانت عنيفة في غضبها . زارتها خديجة اكثر من مرة تحاول اصلاح ذات البين معها ، لكنها لم تحقق أية نتيجة . رجا أحمد النجار أمه أن تمسك لسانها عنهما وأن تحافظ على الأقل على المظاهر ، فهما غير قادرين على تحمل المزيد من المشاكل والاتهامات والثرثرات والاشاعات . . لكن ذلك كان صعباً في عكا التي راح مجتمعها العربي ، الرازح تحت نير الانتداب الانكليزي والخائف من الأطماع الصهيونية ، يزداد انغلاقاً على نفسه ، ويقف بالمرصاد لكل شاردة وواردة وحادثة وقصة وفضيحة تقع بين ظهرانيه . . في ذلك الوضع كان يستحيل التكتم والمحافظة على الأسرار وخبايا النفوس ، فكيف إذا تعلق الأمر بأحداث في مستوى فضيحة خديجة ، ومعارضة أم أحمد لزواج ابنها منها ، وكرهها العميق لها بعد أن صارت كنتها ؟ . .

وزاد الطين بلة بين الامرأتين تلك الشائعات والاتهامات التي قيل ان بعضهم نقلها عن لسان أم أحمد ، وأكثرها لؤماً الزعم أن الجنين الذي أسقطته خديجة اثر المظاهرة الشهيرة لم يكن من أحمد النجار ، بل من ذلك المجهول الذي هربت معه على أمل أن يتزوجها . فقد تبين لخديجة أنها ستضع مولودها بعد سبعة أشهر من زواجها الرسمي ، وهذا سيثبت دون أي شك جريمتها النكراء . فتعمدت التصادم مع رجال الشرطة وصار ما خططت له . . أجهضت وخرجت من مأزقها كالشعرة من العجين ، بل وكبطلة وطنية .

ـ اشاعة حقيرة مقرفة رفضت خديجة أن تصدق أن حماتها ، مهما بلغ كرهها لها ، يمكن أن تروّج مثلها !

في منتصف صيف ذلك العام ، والأضراب العام في ذروته ، وكذلك ثورة فلسطين الكبرى ، وفي خضم الآمال والمشاعر المتناقضة ، وفيها البلاد قائمة قاعدة تنشد للجهاد والنصر المبين والشيخ أمين وترفع صور القسّام وتزغرد

لأبطالها وشهدائها ، زارهم عبد العزيز متخفياً . عاد إلى فلسطين وانضم الى القاوقجي ليشارك في الجهاد وليبرز ، كما أكد لأبيه باعتزاز ، مخططاً عسكرياً استراتيجياً من الطراز الأول ، مما جعل القاوقجي يصطفيه ويضمه الى قيادة أركانه ويعيّنه مسؤولاً عن منطقة الجليل .

كان ضعيفاً مرهقاً جائعاً . . فهو لم يأكل منذ يومين سوى الحشائش والخبز اليابس ، لكنه كان متفائلاً واثقاً من قدرة المجاهدين على تحقيق النصر إذا ظلوا على وتيرتهم العسكرية الراهنة . حدثهم عن المعارك التي يخوضها الثوار ضد الانكليز ، وعن الأمال الكبيرة ، عن الفلاحين الذين قدموا معظم ما يملكون للثورة ، عن طلاب وعمال ومعلمين ، عن سوريين وعراقيين واردنيين ومصريين . آه كم امتلأت نفوسهم تلك الليلة فخراً واعتزازاً !

لكن سعادة فارس الصالح برؤية ابنه سليماً معافى منتصراً تحولت الى مأساة وعبد العزيز يبلغه ان أيمن رحل إلى القاهرة بعد أن تعاقد مع فرقة مسرحية مصرية زارت لبنان وسورية وعمل معها !

هذا ما كان ينقص فارس الصالح لتكتمل مصائبه ! رضوان مع تلك العاهرة في بلاد لا يعرفها سوى الله ، وعبد العزيز مع المجاهدين مهدد بالموت كل يوم ، وأيمن مع عوالم مصر وراقصيها !

هل كتب عليه أن يفقد أولاده الثلاثة ؟ ليست بيده حيلة مع رضوان وعبد العزيز ، أما الكلب أيمن فسيذهب إلى مصر يبحث عنه ويعيده إلى عكا حتى لو اختفى تحت الأرض !

- ١٠ -

نيويورك ٢-١٢

كل يوم يزيدك نفوراً من تلك المدينة القاسية الخيالية الموحشة المستوحشة . كل ما فيها يشبه سندويشة الهمبرغر التي لا بد وأن يأتي يوم تحل فيه محل الشعلة في تمثال الحرية كشعار للمدينة . تأكلها لمجرد ملء معدة فارغة . . الجنس صار

كالهمبرغر تراهم يمارسونه بنفس الطريقة الخاطفة التي يلتهمون بها تلك السندويشة ، الشطيرة أو المشطورة ، يستمتعون بها رغم معرفتهم أنها قد تحوي أقذر ما يمكن لانسان أن يأكل . . الصداقات ، إن أقمت بعضها ، هي كذلك أيضاً ! كان على ديب أن يأتيها غازياً قاهراً . . سيندمج فيها اندماج الغاز بالنار ، ويشتعل في شوارعها ناسكاً للجنس والأنثى . لعله كان سينتهي إليها لولا تلك الصدفة الخيالية التي قادته إلى سجن الفارعة ليتوج نفسه ملكاً على عسكره . هل جُنّ أو هو في طريقة إلى الجنون ؟ تتخيّله متنكّباً عصا المكنسة يقود رتلاً أحادياً لفرقة المغاوير التي حلم دائماً أن يتقدمها الى فلسطين

ـ الوطن هو الدمغة التي تحدد أبعاد شخصيتك بعد جنسك ولونك .

التقيت في البار الذهبي أمريكياً من أصل هندي أحمر . لم يتحدث إلا عن تلك الأصول بعد أن تعتعه السكر وأظهرت له بعض التعاطف والتفهم . . استعاد وجهه في الضوء الخافت تلك الخطوط الملونة الزاهية لذلك العرق البائد . وتحرر من كل قيوده وهو ينفخ أوداجه ويدني شفتيه المزمومتين من أذني يأتمنني على اسمه الحقيقي .

ـ الرمح ذو النصل المزدوج المقدس .

لونه ضارب إلى الحمرة الداكنة ، وعيناه عاد يحلّق فيهما ذلك النسر الأمريكي الفخور . أربعمئة سنة عجزت عن صهره في بوتقة ذلك المزيج الأمريكي الذي يجعل كل الأصول تتلاشى .

مشكلتك هي الشعور الطاغي بان الأرض سرقت منك ، وان ما هو لك صار لغيرك . لم تعد سيد نفسك وربّان حياتك . قرروا أسلوبا جديدا لدنياك وركّبوا وصفه مسبقه لتفكيرك . نصّبوا أنفسهم أربابك وحكامك وشرطتك وقضاتك واستباحوا فرج امرأتك ومؤخرتك . إن عشقتك احدى نسائهم فلأنها شاذة أو لأنك فحل كالبغل أو وحش فريد ككينغ كونغ تصف لأصدقائها عضوك الأسطوري وتكيدهم بقدرتك على اشباع غريزتها حتى التخمة . . ألا تتساءل من أين تنبع تلك العلاقة الأبدية بينك وبين أرضك ، فيستحيل أن تنسى أنها

أرضك ، وأنها ستظل ارضك تجترّها في صحوك ونومك ، في حلمك ويقظتك ، في فرحك وترحك ، بمفردك ومع الآخرين ، بشجاعة حينا وبخوف اناً ، في السر والعلن ، في الحياة وفي الموت ؟ .

اعتادت أمي أن تحدثنا دائماً عن سنواتها الثلاث في أمريكا . هنا أنجبت ديب . حطوا أحمالهم في بوسطن حيث كان أحد أبناء عمومة أبي يعيش رجل أعمال أمريكياً موسراً ناجحاً . . ساعدهم بكل امكانياته . افتتح أبي متجراً للموبيليا وسط مؤشرات تنبىء أن الحياة سرعان ما ستبتلعهم في دوامتها . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وما كان يمكن أن يحدث على الاطلاق . لم تستطع أمي أن تتأقلم مع الحياة الأمريكية بأي شكل من الأشكال . عانت وتعذّبت نفسياً وجسدياً ، وجعلت أبي يعاني ويتعذب معها وبها . . من الأساس لم تكن تريد الاغتراب لولا ظروف فلسطين التي أجبرت أبي على الهجرة بحثاً عن حياة أفضل وهرباً من ملاحقة سلطات الانتداب له لانخراطه في نشاطات سياسية ممنوعة ! جاءت إلى أمريكا عاجزة عن قطع أي حبل من الحبال التي تربطها بعكا . وأمضت فيها ثلاث سنوات عاجزة عن وصل أي حبل من حبالها بها . وظل الاثنان غريبين ضائعين عاجزين . في النهاية لم يكن هناك مفرّ من العودة إلى ذلك العذاب الممتع الذي اسمه فلسطين !

هل ورثت عنها لعنة الفشل في التأقلم ؟ لم تندم خديجة للحظة واحدة ، أما أحمد النجار فقد ندم « هي التي تأكل الحصرم وأنا الذي يضرس » . وكان يحبها إلى الدرجة التي تدفعه لأن يستسلم لكل رغباتها ، وأن لا يحمل لها أية حزازة حتى وتلك الرغبات تتمخّض عن نتائج مأساوية . حدث ذلك بعودتها من الولايات المتحدة وقد خسر كل رأسماله وأفلس ، كما حدث بقضائه ثلاث سنوات في السجن بعد أن أحرقت خديجة البيت الكبير . كان يعتبر مجنون خديجة ، وكانت هي فخورة بهذا المجنون !

كنت في العاشرة عندما خرج أبي من السجن ليلتئم شمل العائلة مجدداً ، عمل بجد عدة سنوات في البناء إلى أن تمكن من توفير رأسمال أتاح له الاستقلال

بعمله وافتتاح ورشة نجارة ، ولنخرج بعض الشيء من حالة الاملاق والضنك التي أجبرتنا في أحيان كثيرة على أن نكتفي بوجبة طعام واحدة في اليوم . تعذبت أمي كثيراً ، وتعذبنا ، في فترة سجنه . انتقلنا خلالها ثلاث مرات إلى بيوت أقذر وأصغر وأبعد ، وانتهينا أخيراً إلى حي الفاخورة على شاطىء عكا .

أو تعرف عكا وشاطئها ؟ هو أجمل شواطىء فلسطين . منه تنطلق في آفاق ذلك الامتداد اللازوردي اللانهائي حيث تتراقص في لمعان وهج أشعة الشمس الغاربة أسماك وحوريات ذهبية تناديك إلى عالمها المسحور . في ذلك الجحر بدأت تفهم بعضاً مما يدور حولك ، بدأت تشعر بالمسؤولية والخوف ، ورحت تتساءل إلى أين سينتهي بكم المطاف ؟ فكرت أنه لم يبق سوى البحر ترفعون عليه سقفاً لا يصل إليه شرطي يبلغكم أن عليكم أن ترحلوا . . تنظر إلى قلق خديجة وحيرتها . الى كآبة عزت وديب . . على رؤوسهم ترى ذلك الطير الأسود الذي ستتعرف عليه لاحقاً . تصير الحياة ثقيلة الوطأة قاتمة الوجه لا تجرؤ معها على أن تمارس أياً من تلك الرغبات الطفولية التي تتملكك . لا تنزل الى الشارع ولا تلعب ولاتضحك ولا تصرخ ولاتتعارك ولا تطلب لعبه أو نزهة أو واحدة من تلك الدراجات الرائعة ذات الثلاث عجلات والصندوق الملحق بها . تصير فجأة وقوراً رزيناً مترفعاً عن تلك التوافه تجلس صامتاً كالكبار غارقاً في أفكارك وهمومك . لكنها أفكار وهموم لا تكف عن التحويم حول تلك التوافه ، وفي مقدمتها الدراجة الرائعة ذات الثلاث عجلات والصندوق الملحق بها !

بعد سنتين من سجن أبي جاءنا أمر اخلاء بيت الخرابة . . منحونا هذه المرة مهملة معقولة . ثلاثة أشهر . حفيت أقدامنا ونحن نبحث عن مأوى جديد . . الحارات العربية ، بالأحرى الخرابات ، مزحومة زحمة يوم الحشر . بعد أسبوعين دلّونا على بيت الفاخورة . طلب السمسار ألفي ليرة لا تنقص قرشاً . كان المبلغ فلكياً تلك الأيام . لكن لم يكن أمامنا أي خيار . رحنا نبيع كل ما يمكن أن يجد مشترياً . حتى أدوات المطبخ . عمل ديب مساء في دكان لبيع الفلافل ، وعثرت أمي لنفسها على عمل إضافي في احدى ورش الخياطة

الصغيرة . وطبّقنا برنامج تقشف صارماً على مصروفنا واستهلاكنا .

لم يكن بقي على الاخلاء سوى ثلاثة أيام ونحن لم نجمع إلا /١٥٠٠/ليرة ، وعندما بدا أن كل جهودنا ستضيع هباء ، جاءت أمي تصطحبني في العصر إلى الفاخورة حيث مكتب السمسار . كانت واضحة وعملية في العرض الذي قدمته له .

ـ لم أجمع إلا /١٥٠٠/ ليرة . لن أشرمط لتدبير الباقي ، ولن أقف مكتوفة اليدين وأولادي مهددون بالنوم في الشارع . هل تقدر أن تقسّط لي الباقي لمدة عام وسأدفع الفائدة التي تطلبها ؟

وافق الرجل ، إما لأن الرحمة دبت في قلبه ، وإما لأن أمي ، في استجدائها الأبي والحزين ، فتنته

كان بيت الفاخورة عبارة عن ثلاث غرف من البلوك والاسمنت بمساحة خمسين متراً . ما أن رأيته في اليوم التالي حتى كدت أصاب بالاغماء . كان بيت الخرابة قصراً بالمقارنة به . لا وجود فيه لما يسمّى المطبخ والمنتفعات باستثناء مرحاض عند المدخل تفّح منه الروائح المقيتة . أما الجدران والأسقف فمليئة بثقوب لا تسرّب المياه فحسب ، بل وأيضاً جرذان البحر التي يكاد بعضها يوازي في الحجم القطط .

بقيت أسبوعاً كاملاً لا تجرؤ على النوم إلا ملتحماً بأمك تود لو أنك تختبىء داخل صدرها هرباً من ذلك الرعب الأسطوري الذي ولّده فيك جرذ بشع فاجأته يتسلل من أحد الثقوب الى نمليّة الطعام . هي ليست المرة الأولى ترى جرذاً ، لكنها المرة الأولى تشعر أن الجرذ يمكن أن يكون غولاً يثير فيك من الهواجس والمخاوف ما يجعل حتى وبر جسدك يتحول إلى ابر تدميك حتى الموت . لم تستطع أبداً أن تنجو من وهم أن تفتح عينيك على ملمسه المفزع المقرف وهو يهم أن يقضم أنفك أو أذنك فيكاد قلبك يتوقف عن الخفقان . وكأن ذلك لم يكفك فلا تعود تسمع سوى قصص الجرذان والمصائب التي تلحقها بالبشر . . دخل أبو عطوة إلى المرحاض فعضه جرذ في خصيته ومات .

استيقظت أم علي على بكاء رضيعها فوجدت جرذين يلتهمان أنفه . . بـــع . . .

بعد شهرين صار الجحر بيتاً . قام عزت وديب بترميمه وسد ثقوبه وتثبيت مفاصله المخلّعة من أبواب ونوافذ . وتكفلت أمي بترتيبه مضفية عليه تلك اللمسة السحرية التي تحول قطعة القماش البالية إلى لوحة رائعة من الكنفا . قسمت الغرفة الأولى إلى مطبخ وحمام في الصباح ، وإلى صالون استقبال بعد الظهر وفي المساء . أما تحفتها الأبرز فكانت الحديقة الصغيرة التي صارت نقطة علام في الفاخورة كلها . لم يبالغ أبي وهو يقول بعد عدة أيام من خروجه من السجن .

ـ أنت عظيمة يا خديجة . وأنا فخور بك . . .

كان بامكانها أن تطرق أبواباً كثيرة طلباً للعون بدءاً ببعض المعارف والأصدقاء الموسرين وانتهاء ببيع الأرض التي كان يمكن أن تأتينا بسعر يسيل له اللعاب . . لكنهم فشروا . خديجة الصالح لا تطأطىء الرأس لأحد !

لماذا لا تتأقلم مع تلك النيويورك ؟ أهو خطأك أم خطأها ؟ يُخيّل إليك أحياناً أنها المرأة الفاتنة وأنت العنينّ العاجز عن امتلاكها . أهي لعنة فلسطين التي تتملكك حتى العبودية ، أم هو شعورك بأنك مخنوق في مدينة صهيونية أكثر من اسرائيل نفسها ؟ قبل أسابيع بدأت حملة الترشيحات للانتخابات الرئاسية القادمة ، والبازار يهودي صرف يثير قرفك حتى الاقياء . تريد أن تأتيك هيفاء لتعرف إن كان الحال سيتغير بوجودها . ديب وحده نجا من تأثير خديجة ، كان أعند من أن تسيطر عليه كما فعلت بك وبعزت . هل هرب منها أم من فلسطين أم من إيمان ؟ ماذا ستقول لو أنها تراه يُقاد في موكب مهيب الى الفارعة ؟ جلده القديم يأبى أن ينسلخ عنه ، وهو إن سلخه فليس هناك جلد جاهز على قياسه . حتى جواز سفره السويدي لن ينفعه بشيء كما قالت خالتك سعاد . . ضراط على بلاط . ومن أغراه بأن يرتمي في تلك السفينة الطائرة التي لن تهرب أبداً من مصيرها المحتوم ؟ جاء لبنان سائحاً أم فدائياً أم جنرالاً ؟ .

في ذلك الزمن البعيد قررت أمي مستقبلنا . أواخر عام ١٩٥٦ خطبت

لعزت سعاد الخوالدة . كان الاسرائيليون انسحبوا من غزة وبدأ اسم عبد الناصر يتوهج في العالم العربي ويحيي موات الأمل فينا ، نحن عرب اسرائيل . زارنا أهل الخطيبة عشية رأس السنة لنحتفل بالمناسبة وبانتصار ناصر . رحنا منذ تلك الأيام نحلم بأنه قد يأتي يوم ينتصر فيه على اسرائيل . أتفقت العائلتان على عقد القران في مطلع شباط ١٩٥٧ . بعد أن ذهب الضيوف ، وفي الساعة الأولى من أول أيام العام الجديد ، أبلغتنا قرارها .

ـ سأكتب الأرض لعزت . إنه الكبير وظروفه كانت الأصعب . سجن أبيكم ، كما تعرفون ، أضطره لأن يترك المدرسة ويعمل للمساعدة في اعالتنا ثم جاءت حادثة قطع أصابع يده لتحد من امكاناته . ديب ووليد لن يتغير عليهما شيء . ديب سيستلم ورشة ابيه ووليد سيواصل دراسته حتى الجامعه . ما بقي من الأرض أصغر من أن يوزع على ثلاثتكم ، وأن يوزع بعد ذلك على أولادكم ، هذا إذا نجت من المصادرة ولم تفرطوا بها . هذا كان شرط جدكم عندما خصّني بها وهو شرطي أيضاً . وعدني عزت أن لا يفرط بالأرض ولا يفكر ببيعها حتى لو شحذ ، وبعد عمر طويل ينقلها الى بكره . اتفقنا على ذلك ثلاثتنا ، أنا وأبوكم وعزت ، فهل لدى أحدكما اعتراض ؟ .

كانت كعادتها حاسمة وعملية وآمرة . لم يكن لدينا أي أعتراض . . ما كانت تلك الأرض ، أو ما بقي منها بعد أن صادر اليهود ثلاثة ارباعها ، تعني لنا شيئاً . مجرد مساحة مهملة جرداء لازرع فيها ولا ضرع في الكفر النائية على تخوم السكة الحديد المهجورة المؤدية الى منجم فحم مغلق منذ الحرب الثانية . زرناها أول مرة بعد خروج أبي من السجن . كانت تلك أول نزهة عائلية نقوم بها بعد النكبة . ملأت أمي سبتين بما لذ وطاب من طعام وفاكهة ولبست أجمل ثوب رأيته عليها . . بدت جميلة إلى درجة أنني انتابني غير قليل من الضيق والغيرة وأبي يناجيها بكلمات غزل صريحة مستغلاً ابتعاد عزت وديب لكن غافلاً عن فضولي الذي دفعني إلى الالتصاق بهما متسقّطاً كل كلمة وحركة منهما . كانت في فستانها الأبيض ووجهها المتورد المغندر كالواحة وسط الجرود التي أحاطت بنا . قبّلها أبي

من وجنتها ومدّ لي لسانه وهو يقول :

ـ رح ألعب مع عزت وديب . . .

وتضحك أمي ويزداد احمرار وجهها وهي تبعده عنها بخفر ولكن بابتسامة حملت ، وقد أدركت معناها لاحقاً ، كل العواطف والايحاءات التي تمتلك انثى راغبة في الحب .

زرنا الأرض ثانية بعد أن تزوج عزت وبدأ عملية استصلاحها الشاقة المكلفة مع ولادة أحمد النجار الحفيد . خلال عشر سنوات تحولت تحت يديه إلى جنة صغيرة تثير في نفوسنا جميعاً مشاعر الفخر والاعتزاز والبهجة ، ولتنمو في الوقت نفسه تلك المشكلة العويصة المضنية التي ما غابت قط عن أذهاننا ، وهي امكانية مصادرتها في أي وقت دون أن تكون بيدّنا حيلة .

بعد أسبوعين من وفاة أمي وصل إلى عزت اشعار من مصلحة الضريبة يبلغه بمضاعفة الرسوم على أرضه بنسبة ٤٠٠ بالمئة . . انها المؤشر الأول على عملية المصادرة الروتينية غير المباشرة . سارع إلى تقديم التماس يطلب إعادة النظر في الزيادة . قد يستغرق الأمر عدة أشهر لبينما تقوم لجان التخمين بعملها . في تلك الأثناء سيأتي من يقدم له عرضاً ، قد يكون مغرياً ، لبيع الأرض . إن باع ارتاح ، أما إن ركب رأسه فلا مفر أمامه من اللجوء إلى محام للاعتراض على الضريبة الجديدة . ستأخذ الشكوى بدورها عدة أشهر من المداولات لكنه سيخسر القضية ، ولا يبقى أمامه إلا أن يدفع أو يبيع . اذا دفع يصبرون عليه سنة ثم يضاعفون الضريبة مرة ثانية . فإذا ظل على عناده يحسمون الأمر في النهاية باصدار قرار استملاكها للصالح العام .

إذا ظرفٌ لما يستقبل من الزمان ! . لو كان الأمر بيد عزت لباع الأرض وتخلّص من وجع الرأس . لكن أحمد النجار الحفيد لن يسمح له بأن يتصرف بها بأي شكل . نما مع أشجارها واضعاً نصب عينيه أن يصير مهندساً زراعياً يقوم بمشاريع تطورية في الأرض التي يعتبرها ، كما أكدت له جدته ، وقفاً له .

الأرض متوفرة ورخيصة وخصبة في أمريكا . ماذا لو يبيعون بيارة الكفر

ويأتون الى هنا يشترون أرضاً ليست مهددة بالمصادرة في أي وقت ؟ لو تسمعني أمي ستقول أنها هلوسات مجنون

تكلمت مع هيفاء . الأوضاع مقلقة على عدة جبهات . حالة العجوز الصحية ليست على ما يرام . هو بالكاد يغادر البيت . نعم . لقد حطمه موت أمي وأيقظ في جسده الناحل كل ما اختزنه من أمراض دفعة واحدة . الروماتزم والسكري والكلاوي والدوخة . بوفاتها بدا وكأنه رغب عن الحياة . أوغل في الكآبة والاستسلام مثيراً قلقنا وحيرتنا . حاول قبل سفري أن يخرج من قوقعته ويستعيد طبيعته . يبدو أنه لم ينجح كثيراً . أشفق عليه بدوري . وجود هيفاء معه يريحني بعض الشيء ، وإن كنت لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشك أحياناً بأن مرضه ليس كله حقيقياً ، وهو يبالغ فيه ليعرقل نية هيفاء اللحاق بي . من سيعتني به إذا تركته ؟ هو يلح الآن لرؤية ديب . لم يسمحوا لأحد بزيارته حتى الآن . قد يكون هذا أفضل له ولهم

كيفك الآن أيها البريغادير جنرال ؟ أتذكر آخر معاركنا ؟ كان ذلك قبل اسبوع من رحيلك . فاجأتني أقلّب في اوراقك العسكرية فطاش صوابك وكأنني اقترفت جريمة ! لم ينقذني من غضبك ويدك إلا أمك التي صرخت فيك أن عقلك لن يكبر أبداً ، وأنك ستظل أزعر فاشلاً لن تستطيع أن تمتهن حرفة وأن تتعلم شيئاً !

الجبهة الثانية هي أحمد النجار الحفيد . استدعي قبل أيام إلى التحقيق . انها الشين بيت بالتأكيد . يبدو أن القضية بدأت تأخذ أبعاداً جديدة وجدية جداً . . لم تستطع هيفاء الافصاح كثيراً على الهاتف . . انها نشاطاته السياسية السرية تلك !

الأمر الوحيد الذي أزعم أنني متأكد منه هو حالة عزت . إنه بالتأكيد في أقصى درجات الانهيار . لا ألومه . حاول المستحيل مع ابنه لكنه لم يستطع أن يزحزحه عن موقفه الأخرق وأفكاره الحمقاء . .

لم يخطىء عزت اذ قال لأحمد أن التكتم المطلق الذي يضفيه على أفكاره

وتحركاته واتصالاته المشبوهة لن يفيده بشيء . في مجتمع كالذي تعيشون أنتم مراقبون كما حيوانات التجارب في المختبرات الحديثة ، وأي خروج على الصراط المستقيم المقرر لكم سيجذب انتباههم فوراً ،فيركزون على ذلك المارق إلى أن يعرفوا حتى ما يجول في ذهنه ، تعلمتم أن تحذروا حتى التفكير فيما تعرفون أنه ممنوع ، فكيف أن تحاولوا ذلك الممنوع مثلما يريد أحمد النجار الحفيد ؟ .

- ١١ -

أواخر تشرين أول من العام ١٩٣٦ ، ولما تمض سوى أيام على ايقاف اضراب الأشهر الستة ، وهجوع الثورة باعلان الهدنة بين المجاهدين والانكليز ، أصيب فارس الصالح بأولى نوباته القلبية . كانت شديدة الوطأة إلى درجة أنهم حسبوا أنها النهاية ، لكن الله لطف . أصدر الأطباء أوامر صارمة بضرورة استكانته إلى الراحة التامة ، وملازمته الفراش شهرين ، كحد أدنى ، بعيداً عن أي ارهاق جسدي وقلق نفسي . لم يكن قادراً على مخالفة تعليماتهم ، أقلّه في المرحلة الأولى ، فأوكل إلى أحمد النجار مسؤولية المحل ، وانزوى يجتر احزانه ووساوسه قاطعاً معظم علاقاته مع العالم الخارجي .

في تلك الأثناء وصلت رسالة من أيمن . قال فيها ان نجمه الفني بدأ بالصعود ، وحصل على دور في مسرحية من بطولة ذائع الصيت نجيب الريحاني . « دور صغير لكنه سيفتح أمامه أبواب المجد والشهرة » . لكن بانتظار أن تُفتح هذه الأبواب فإنه يحتاج الى قليل من الدعم المادي الذي يأمل أن يسنده به والده . . قالت خديجة ، تؤيدها العمة ازدهار ، ان الوقت غير مناسب لاطلاع فارس على الرسالة ، فهي قد تستثيره وتجدد حنقه . لكن أحمد النجار رفض تلك الحجة ، وعلى العكس من السيدتين رأى أنها قد تحمل له بعض العزاء . قام بنفسه بقراءتها له . أمضى الرجلان أمسية طويلة انتهت الى إزالة تلك الرسميات التي ميزت علاقتهما منذ زواج أحمد وخديجة ، ولتبدأ بينهما صداقة حميمة استمرت الى وفاة فارس .

قالوا ان هذا الأخير فتح قلبه لأحمد النجار تلك الليلة ، وانطلق ، للمرة الأولى في حياته ، على سجيته مع أحد أفراد العائلة . تحدث عن مشاعر القلق واليأس والاخفاق التي تملأ نفسه بالأسى والحنق . الصبيان الثلاثة تبعثروا في بلاد الله الواسعة ، لا يعرف في أي أرض يسعون . معظم ما جناه تلاشى في تهريب عبد العزيز وأيمن وحريق المحل . هل يراهم مجتمعين حوله ثانية قبل أن يموت ؟ انه مستعد للتنازل عما تبقى من عمره مقابل أن تتحقق تلك الأمنية . ألم يشبع رضوان من تلك الانكليزية اليهودية ومن بلاد الانكليز ؟ سأل أحمد النجار إن كان أخطأ في طرده ، وأجاب بنفسه أن الوقت فات على الندم . لماذا تزوجها ؟ ألم يكن بامكانه أن يكتفي بعلاقة عابرة معها ؟ وهاهي الثورة وضعت أوزارها ، وصدر عفو عن المجاهدين ، فمتى يرجع عبد العزيز ، وماذا يريد من اللحاق بذلك المغامر القاوقجي الى الشام والعراق ؟ وذلك الأخرق أيمن ، كان بمقدوره أن يشتغل في الفن هنا ، فلماذا مصر ؟ نعم . لم تعد هناك من فائدة للندم . ندمه الوحيد ، وهو محصور ومحاصر كالفأر في غرفته ، أنه لم يتزوج ثانية . تنهشه الرغبة في أليف يناجيه ويشكو إليه همومه ويلقى العطف والحنان لديه . كانت أمنة امرأة ولا كالنساء . بوفاتها حسب أنه لم تعد هناك امرأة تستأهل أن يعيش معها . ووجدفي خديجة العزاء عن غيابها . لم تشبه أمها فقط في الشكل بل وفي الروح والطبع أيضاً . لكنه نسي أن خديجة ستكبر وستتزوج وسيبقى في النهاية وحيداً !

احتاج فارس الصالح الى اسبوع بعد تلك الاعترافات ليتغلب على الخجل والاحراج اللذين لابد انتاباه ، وليطلب من أحمد النجار أن يستدعي الليدي اليزابيت لزيارته . في عصر يوم جمعة جاءت تحمل باقة كبيرة من الورد . كانت لازالت كما عهدوها في زيارتها الأولى ، وكأن تلك السنوات كلها لم تضف كثيراً إلى عمرها الذي يراوح حول الخمسين . التغير الملحوظ فيها كان نحولها وتراكم بعض التجاعيد الخفيفة تحت عينيها وحول شفتيها وأسفل عنقها ، واسمرار بقع النمش في المساحات الظاهرة من جسمها . استقبلتها خديجة بود

وحرارة ، أما بقية نساء العائلة فاختفين في غرفهن إما احتجاجاً ، ازدهار وروحية ، وإما خجلا ، زوجة عبد العزيز وزهرة . كذلك منع الأطفال من الظهور ومن احداث أي ضجيج .

كانت عربية الليدي اليزابيت قد اكتملت ، فلم تعد تستعمل أية كلمة انكليزية في حديثها . وسمعتها العمة ازدهار المتوارية وراء باب غرفتها تقول لخديجة بعد أن تبادلتا التحية .

ـ أبوك لا يكل ولا يمل من الحديث عنك . إنه يحبك كثيراً . .

أصابت الدهشة خديجة . صمتت فترة ليست بالقصيرة وكأنها تحاول استيعاب ما قالته المرأة . ثم تورد وجهها وقادتها الى غرفة فارس. وهي تتمتم بالانكليزية ما لم تفهمه ازدهار . كان دور الليدي اليزابيت لتصيبهاالدهشة . لكنها هزت رأسها وهما تدخلان الغرفة .

أمضت عنده أكثر من ساعتين . تشاغلت خديجة بصنع القهوة وبالأطفال لتترك لها فرصة البقاء وحدهما . كان لزيارتها فعل البلسم عليه . استعاد بعضاً من حيويته ورونقه ، وبدا وسيماً واثقاً بنفسه وبخاصة بعد أن حلق له أحمد ذقنه التي طالت لحيتها لأكثر من أسبوعين . راحت عيناه تبرقان وشفتاه تبتسمان . بل وانطلق أكثر من مرة في ضحكة مجلجلة لم يسمعوها منه منذ دهر . في نهاية الزيارة دعت خديجة الليدي اليزابيت لتتفرج على البيت . لبّت ذلك بسرور وعرفان . وكانت مناسبة لتجدد تعارفها بجميع أفراد العائلة وعلى رأسهم العمتان ازدهار وروحية . تصرفت الليدي معهم بلطف فائق وتعليقات مرحة أجبرت حتى العمتين على الابتسام . في تلك الجولة شاهدت دمية خديجة الخشبية التي صنعها أحمد النجار قبل عشرين سنة ، وعبرت عن عظيم اعجابها بها .

خرجت العمة ازدهار من زيارة الليدي اليزابيت بعدة أفكار وتحليلات بسطتها أمام خديجة وروحية على الشكل التالي :

أولاً تأكدت أن هناك علاقة حميمة ، أي جنسية ، بين فارس وتلك القحبة الانكليزية ، وهي لا تستبعد أن يكون متزوجاً منها في السر . لكن العمة

روحية فنّدت هذا الاحتمال بالقول أن الانكليزيات لا يتزوجن سراً ! إذاك راهنت ازدهار بعذريتها أن فارس ينفق عليها ، بل وبأن البيت الذي تقيم فيه لا بد أنه هو الذي اشتراه وفرشه لها ، وكذلك كل الحلي والجواهر التي ترصع جيدها ومعصميها وصدرها مشكّلة ثروة لا يستهان بها . لهذا السبب فضلت أن تبقى في عكا على أن ترجع لبلادها ، ولهذا أيضاً لم يعد هناك من داع للتساؤل أين ذهبت السيولة المالية التي كانت معه . إن المبالغ التي دفعها لتهريب عبد العزيز وأيمن ، وخسائره في احتراق الدكان ، لا تبرر انحداره إلى الاملاق الذي يضطره لأن يأخذ حليهن من أجل مواجهة أزمته المالية . واختتمت ازدهار تلك الفكرة بالتعبير عن مخاوفها من أن يكون باع قسماً من أراضيه لتلبية الطلبات اللامتناهية لعشيقة مثلها وقررت أن تتحرى بنفسها حول هذا الموضوع .

ثانياً ان أخاها فعلاً طاغية مستبد كريه . لماذا ثار وغضب وضربه الجنون عندما تزوج رضوان تلك الانكليزية اليهودية ، وما الفرق في ذلك بينه وبين ابنه أم أن ما يحق له لا يحق لغيره ، حتى لو كان بكره ؟ قالت روحية ان المقارنة هنا غير دقيقة ، ففارس لم يتزوج الليدي اليزابيت ، وهي ليست يهودية ولا راقصة . يجوز أنه أنفق عليها ثروة، لكن ذلك لايؤثر على اسم العائلة ومركزها وشرفها!. أما رضوان فقد ربط نفسه بالزواج وأعطى اسمه ليهودية قحبة لا يعرف أحد أصلها وفصلها . . لكن الأختين اتفقتا ، في النتيجة ، أن أخاهما أخطأ في طرد بكره .

ثالثاً أن فارس الصالح تيس عنيد أحمق . هو ، كما قالت الليدي ، لا يزال يحب خديجة ويعتبرها أثيرته ، وبالتأكيد نسي فعلتها الطائشة ، فلماذا لا يزال يركب رأسه ويرفض أن يغفر لها لتعود الأمور بينهما إلى سابق عهدها ؟ لقد مضت حتى الآن خمس سنوات ، وهي فترة تكفي ليصفح هابيل عن جريمة قابيل

أصغت خديجة إلى فذلكات ازدهار وروحية دون تعليق . وعندما حاولت ازدهار استفزازها بالقول انها هي أيضاً تيس عنيد كأبيها ، اكتفت خديجة بهز كتفيها ومط شفتيها بسخرية . عندئذ سألتها ازدهار ماذا قالت لليدي اليزابيت

بالانكليزية . فأجابت أنها طلبت منها ألا تذكر لأبيها شيئاً مما قالته لها على الباب .

وتكررت زيارات الليدي اليزابيت . صارت تلقى ترحيباً مطرداً بعد أن تآلفت مع الجميع ونجحت في بث مشاعر البهجة والمرح في البيت الذي أهرمته أجواء الكآبة والجفاء . وحدها العمة ازدهار ظلت فترة طويلة على رفضها لها وارتيابها في نواياها نحو قارس . أما خديجة فاعتبرتها سيدة واعية ومثقفة محبة للحياة لطيفة المعشر تود أباها وتتعاطف مع الفلسطينيين . أصبحتا صديقتين ، وكانت تلك الصداقة ضرورية لتبرير زياراتها الدائمة ، ولمنع الألسن العكاوية من الثرثرة حول الموضوع .

لكن تلك الصداقة أثارت مشكلة لم تكن في الحسبان بين خديجة وأحمد النجار . ففي نهاية العام ، ١٩٣٦ ، أقدمت خديجة على اجهاض نفسها مستفيدة من خبرات الليدي وصداقتها لطبيب يهودي . . كان طفلاها صغيرين ، وهي لا تريد قيداً ثالثاً يقعدها في البيت ويبعدها عن اتحاد المرأة ونشاطاته التي أخذت تتسع وتتشعب وتستقطب اهتماماً اعلامياً وجماهيرياً متزايداً . أخفت الأمر عن زوجها معتقدة أنه لن يلاحظ ، لكن أحمد النجار لاحظ فوراً . كان انتبه لتأخر الطمث عليها الشهر الماضي ، وراقب التغييرات الجسدية والنفسية التي تصيب الحامل . عندها تجاهلت ذكر الموضوع أمامه حسب أنها تريد أن تتأكد قبل أن تفاجئه بالخبر السعيد . . لم يكن يخفي حبه للأطفال وحلمه بأن تكون عنده دزينة منهم . لكن أحداً لم يأخذ كلامه على محمل الجد معتبراً أنه مجرد نكرزة لخديجة .

لذا فاجأ الجميع بثورته العارمة تلك الليلة وهو يكتشف ، بنفسه ، أن خديجة لم تعد حاملاً ! صبّ على رأسها جام غضب جامح ، ودوى صراخه في أرجاء الطابقين يهز البيت ويوقظ الجميع . قالوا انه لم يترك شتيمة ولعنة وتهديداً إلا وصبّه على رأس خديجة ورأس اليزابيت . . نعم هو رجل مرن متفهم لم يمانع ولم يعارض في أي أمر تقوم به ، حتى في ذلك الذي لا يراه مناسباً ولا يعجبه ،

لكن أن تصل بها الوقاحة والاستهتار حد اجهاض نفسها سراً ، واتخاذ قرار في موضوع يهمه ويخصه مثلما يهمها ويخصها دون أي تشاور معه ، فهذا شيء لا يستطيع احتماله والسكوت عليه

كان حانقاً بشكل مريع . انتفخ وجهه وجحظت عيناه وازداد حَوَلَه بشاعة . اقترب منها عدة مرات وكأنه يفكر بضربها . لكنه سرعان ما يتراجع وهو يفرك يديه أو يضربها ببعض وقد علا صراخه وتضاعف غضبه . أما خديجة فقد تكورت في سريرها مطرقة الرأس خائفة شاحبة مرتجفة لا تعرف ماذا تقول ، إن كان هناك ما تقوله . .

وكان لا بد من تدخل العمة ازدهار . بعد أن زالت صدمتها وتماسكت طردت الجميع وصرخت في أحمد النجار أن يهدأ لتبدأ من ثم مهمتها الصعبة والحسّاسة . مرت نصف ساعة قبل أن يسيطر على أعصابه ويعود السكون يلف البيت لا تقطعه سوى صرخة أو لعنة بين الفينة والأخرى .

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل غادر أحمد الغرفة ونزل إلى الصالون ليمضي الليل بكامله سهران يزرع الطابق جيئة وذهاباً . في الثالثة والنصف تركت العمة ازدهار خديجة بعد أن كاد الأعياء والنعاس يقتلانها . نسوا تماماً أنها أجهضت قبل ساعات ، وأنها كان يجب أن ترتاح لاأن تتعرض لتلك الهزة التي لم يحسب أحد حساباً لنتائجها . وكان أن سقطت محمومة أسبوعاً كاملاً تناوب على علاجها خلاله ثلاثة أطباء . تفاقمت حالتها إلى درجة جعلت الأطباء يفكرون بنقلها إلى المستشفى خوفاً من مضاعفات قد تعرض حياتها للخطر . لكنها مع بداية الأسبوع الثاني تماثلت للشفاء . وفي الأسبوع الثالث استطاعت أن تغادر السرير وتتريض قليلاً وقد أصابها النحول والاكتئاب .

جرح مرضها أحمد النجار في الصميم . ظن في البدء أنها تتمارض لتخفف من ذنبها وتستدر شفقته وصفحه . ولكن اشتداد الداء عليها رماه في دوامة من القلق والندم يرثى لها . صار كالطفل الذي أسقط في يده . لا يكاد يصل الى المحل إلا ويرجع يطمئن عليها ، ينحي على نفسه باللائمة ويعلن أنه لن يسامحها

إذا حدث مكروه لخديجة . لم تسع الدنيا فرحته وهي تخرج من دائرة الخطر .
تجاهل تعليمات الأطباء المشددة بأن لايتم ازعاجها بأي شكل ، وانكب فوقها يناجيها ويطلب منها الصفح . سارعت العمة ازدهار تطرده قبل أن يبدأ بالبكاء حسب زعمها . صبر يومين الى أن استعادت بعض قوتها وصفاء ذهنها ، وعاد يعتذر ويرجوها أن تنسى ماصدر منه في ساعة جنونه تلك . أجابته بوهن أنه هو الذي يجب أن يصفح وأن ينسى .

في الصباح التالي سأل فارس عن سبب الضجة التي حدثت في الليل . أبلغته ازدهار بما حدث . . أزعجه الأمر ولام خديجة ، لكن وضعه الصحي لم يسمح له بأكثر من ذلك . أما الليدي اليزابيت فقد استقبلت بوجوم جعلها تشعر أنها تتحمل قسطاً من مسؤولية ما حدث ، فكان أن خففت زياراتها لفترة . وقالوا أن تلك الحادثة أحدثت تغييراً جذرياً على مجرى حياة خديجة . تبين فيما بعد أنها كانت تهيء نفسها لخلافة الست ألفت في رئاسة فرع اتحاد المرأة بعكا . قامت بترتيب الأوضاع لتفوز في الانتخابات المقررة مطلع عام ١٩٣٧ . وكان الأجهاض ضمن تلك الترتيبات . لكن ثورة أحمد النجار ومرضها جاءا ليضعا نهاية مأساوية لكل تلك الطموحات والمشاريع . أبتعدت عن مسرح الاتحاد حوالي الشهرين مما أفسح في المجال لبروز وجوه جديدة . لم يعنِ ذلك أنها تخلت عن مهامها وسقطت من الصورة ، لكنها ، ومنذئذ ، قنعت بالبقاء في الصف الثاني منكبة على العمل الصامت البعيد عن البهرجة الاعلامية ، ومخصصة مزيداً من وقتها لرعاية زوجها وطفليها . لم تعد تخرج إلا بعد أن تبلغ أحمد بتحركاتها ، إلى أين تذهب ومتى تعود . صارت تشركه في أفكارها واهتماماتها ومشاريعها ، وتستشيره في الكبيرة والصغيرة منها . وعمدت إلى تبديل طباعها ، وتغيير أسلوب تعاملها مع الناس . خَفّ بوضوح الاندفاع والحماس اللذان كانت تواجه بهما الحياة . لم تعد تنجرف في عملية التحدي المحببة لها ، والتي تجد فيها وسيلة لابراز ما تعتقده شخصيتها المستقلة القوية الآمرة الناهية . صارت أكثر حذراً وتأنياً ، وأقل طموحاً وجوحاً ، واسدلت على وجهها قناعاً من الحكمة والنضج

زادها جمالاً واغراء . تخلّت بعض الشيء عما كانوا يعتبرونه مفهومها المستهجن للمرأة العصرية المتحررة المنفتحة على العالم ، والذي برز بوضوح في تصرفاتها وأفكارها بعد عودتها من الولايات المتحدة . عادت تلتزم ، على الأقل شكلياً ، بالمفهوم الشرقي التقليدي للمرأة الرصينة المصون المحترمة المحتشمة ، الزوجة والأم وربة البيت التي تتوارى دائماً وراء شخصية رجلها وتعيش تحت كنفه وتغرق في واجباتها المنزلية والأسروية .

وساهم الوضع الفلسطيني العام آنذاك في تركيب شخصيتها الجديدة . فالاضراب العام انتهى مخلّفاً مجتمعاً عربياً منهكاً فقيراً مضعضعاً يتخبط في أزمات اقتصادية عمل اليهود والانكليز على زيادة حدتها . . اشتعل الغلاء وندرت المواد الغذائية ، وأفلست المعامل العربية ، وتضاعفت الضرائب ، وتفاقمت البطالة ، وتراجع المنتوج الزراعي العربي الى أدنى مستوياته مع اندلاع الثورة وقيام الانتداب بتطبيق سياسة الأرض المحروقة انتقاماً من الفلاحين وللحد من عمليات المجاهدين .

وفي المقابل بدأت القوة الصهيونية ، بمظاهرها السياسية والعسكرية والاقتصادية ، تبرز بسطوة تفرض أمراً واقعاً جديداً لم يعد باستطاعة الفلسطينيين مواجهته ، فرؤوس المال الفلكية تكتسح السوق ، والمصانع الحديثة الضخمة تقتل الورش العربية البدائية ، والبندقية تقهر السيف . . .

وعادت حياة خديجة الصالح وأحمد النجار إلى مجراها الطبيعي ، لكنهما عاشا ست سنوات كاملة في دوامة القلق والترقب ، وبين عيادات الأطباء والمخابر ، بعد أن أدى الاجهاض الى اصابة خديجة بما يشبه العقم المؤقت . ورأت العمة ازدهار أن ذلك كان عقاباً من الله على الجريمة التي اقترفتها بحق جنينها

- ١٢ -

نيويورك ١٢-١٢

أمضيت ليلتي السبت والأحد في البار انتظر الرمح ذو النصل المزدوج المقدس لكن عبثاً . أجهل سبب انجذابي الى ذلك الكهل الأحمر . لعله الحزن الدفين الذي لا يفارق عينيه حتى وهو في أوج مرحه وسعادته ، أو هو أسلوبه الوصفي المثير ، وقد انتشى بالخمر ، في الحديث عن المرأة ومحاسنها وقدرته على عشق كل نساء العالم مرة واحدة ، أو هو في نكاته البذيئة الساخرة التي حوّرها بحيث تدور دائماً حول الهندي الأحمر الماكر واليانكي الأبيض الغبي ، تماماً الأمر بين العكاويين والحيفاويين ! أتوقع أن نصبح ، اذا التقينا ثانية ، أصدقاء . وحاجتي هنا ماسة الى صديق . أنظر حولي فلا أجد أحداً ، واكتشف أن وحدتي هي صديقي الوحيد . إنه إحساس يصعب أن يتخلص منه جيلي الفلسطيني . لذا يستحيل علينا أن نقيم ذلك النوع من الصداقات السهلة العابرة . قد يكون لدى الرمح ذو النصل المزدوج المقدس ما أبحث عنه .

الوحدة رافقتك منذ عامك الخامس . قد لا تكون الوحدة هي الكلمة الصحيحة التي تعبر بدقة عن تلك المشاعر والوساوس والأفكار والرؤى والكوابيس والأحلام والمخاوف والاحباطات التي تنطبع في مخيلة أي طفل في الخامسة تسحقه رؤية دبابة انكليزية تعجن عربياً اردته رصاصة يهودية في ذروة الأحداث التي عصفت بعكا في نيسان ١٩٤٨ فيما جحافل الناس تعبر الطريق الساحلي هاربة بعد أن أعلنت قوات الانتداب قرارها المفاجىء بالانسحاب من المدينة قبل ثلاثة أسابيع من الوقت المحدد .

طفل في الخامسة من عمره لا يفهم ما يدور حوله لكنه يخاف لخوف من حوله . أو أن خوف من حوله يفزعه حتى الموت . يجهل لماذا كل من حوله يكره اليهود والانكليز لكنه يكرههم بدوره ويتصورهم ، وراء تلك الأقنعة التي

تجعلهم يبدون مثل كل الناس ، غيلاناً وعماليق وشياطين وأشراراً كما لو أنهم خرجوا لتوهم من تلك الحكايات المرعبة التي يعشق سماعها بقدر ما تثير فيه من قشعريرات خوف تدفعه إلى الالتحام بأمه أو بالعمة ازدهار هارباً منها أو هارباً إليها ! يتحدثون عن مدن ليست غريبة عليه . عكا ، القدس ، حيفا ، بيروت ، دمشق ، عمان ، نابلس . وتثيره كلمات لا يفهم معناها إلا لاحقاً ، التقسيم ، الهجرة ، الحرب ، المذابح ، الأمم المتحدة ، الأمريكان ، الثوار ، الجهاد . يبكي لبكاء ومخاوف الخائفين ، يسب ويلعن لسباب ولعنات اللاعنين . يحاول تقليد عزت وديب في التظاهر بالفهم والاتزان ، وفي عدم تحميل والديه فوق ما يرى أنهما يعانيانه ويقاسيانه .

لم نهرب من عكا مع من هرب لأن أمي رفضت أن تترك البيت للخنازير تدنّسه وتعيث فيه ، ولأن أبي ، بعد يومين من التنقل في العراء ، وجد في صديق يهودي الحماية التي سمحت لنا بأن نختبىء لديه بأمان ، وبأن نرجع ، بعد أن هدأت الأمور واستتبت الأوضاع ، إلى البيت الذي نجا ، مؤقتاً ، من الضياع . كانت علاقتهما ترجع إلى عشرين عاماً مضت ، عندما أنقذ جدي لأبي الشاب موشي ابراهام من القتل باخفائه في ورشته عن أعين مجموعة من الشباب الفلسطيني الغاضب الذي كان يتعقبه لقتله . ارتابت أمي دائماً بذلك التفسير لتلك العلاقة ، كما شكّت في أن يكون هناك يهودي يمكن أن يرد الجميل في تلك الظروف وبعد كل تلك السنوات . لكنه حمانا في بيته ، السيد موشي . لم نره ثانية ولا سمعنا عنه . لكنني ، أحياناً ، لا أستطيع إلا أن أستعيد ذكرى ذلك الأسبوع الذي قضيناه في بيته ، متذكراً بحنان ورغبة زوجته السمينة الطيبة وابنته الجميلة المرحة التي كانت تقاربني بالعمر .

نعم صدقت توقعاتها وحدث ما حدث . لم تكن أبداً أيام معدودات وترجعون من ثم إلى عكا بعد أن تسحق الجيوش العربية الجرارة العصابات الصهيونية . ما كان بامكانها أن تتخلّى عن كل شيء بسهولة رمي الثوب العتيق حتى لو ارتكب اليهود المجازر . تتخلى عن روحها ولا تتخلى عن الوطن

والبيت . لكن ماذا كان حدث لولا السيد موشي ؟ وتهدأ الأمور بأسرع مما توقعتم لكن شيئاً ما عاد أبداً كما كان سابقاً . . التغيير صاعق وجذري . ما عاد الموت هو ما تخافون ، بل صار الخوف هو اللحظة التالية ، هو المصير والمستقبل . خوف لا تشعره سوى الأقلية وهي تحت رحمة أغلبية منتشية بالنصر والتفوق . أغلبية قد تطلب منك أن تأمن لنفسك وأن تثق بها ، لكنك لا تأمن ولا تثق فتغلق على ذاتك باب جحرك الموحش البارد المسكون قلقاً تنتظر في كل لحظة أن تطرقه أيد غليظة معربدة تقودك إلى المجهول . هو شعور الحيوان الحبيس بأن يد الجزار ستطبق عليه لتحز عنقه في أية لحظة ، هل يعرف الحيوان تلك المشاعر والأحاسيس والمخاوف ، وهل يقعى وحيداً متوحداً يمارس غرائزه بآلية ، يأكل ويشرب وينام ويتبرز ويضاجع ، لكنه دائماً ينتظر تلك اليد الغليظة كي تطبق عليه تحز عنقه في أية لحظة ؟! .

تكتشف أن عليك أن تصير اسرائيلياً ، ولا تعود ذلك الفلسطيني العربي . ويجبرك خوفك أن ترضخ وأن تفعل ما يطلبون . أوليست هذه سنة الحياة عندما يكون هناك منتصر منتش ومهزوم مهان ؟ في المدرسة عليك أن تحيي العلم الذي لم تنس بعد أنك كنت تشارك أترابك في احراقه والتبول عليه . عليك أن تنشد نشيد اسرائيل التي تمزقك فكرة أنها صارت واقعاً يحرقك كل مرة الف مرة . تبتعد عن طريق الأطفال اليهود الذين يماثلونك في العمر . فجأة صاروا متميزين عنك . هم أطفال النصر وأنت طفل النكبة . تعرفهم بقسمات وجوه منبسطة أو بنظرات افتخار وغطرسة أو بشفاه مقلوبة وتتوارى عنهم بهزيمتك تتلاشى وكأنك لست بموجود . ويتعملقون هم كأنهم وُجدوا دائماً

وعندما تعود الى جحرك حيث لا رقيب هناك ولا يهود ولا علم ولا نشيد ولا نشوة المنتصر ولؤمه ، تحاول استرجاع ذاتك مع الآخرين أمثالك . تنسى من أنت والكبار يتحدثون عن الماضي العزيز والوطن الذي كان والعز الذي اندثر ، عن الثوار والجهاد والعرب وناصر ، عن الظلم الذي لا بد أنه يوماً سيزول لأن الله كبير ولأن الحق حقك والأرض أرضك والوطن وطنك . تتحرر هنيهات من

واقع تعيشه لتنصهر في ماض لا تعرفه ومستقبل تجهله . وتروح ، في السر مطمئناً ، تمارس فلسطينيتك وحريتك وهم يعلّمونك أنشودة للوطن تتمتم بها ولحناً تترنمه ، وتعلّق في صدر البيت خارطة مهترئة تنضم إلى جانبها لا حقاً صورة لعبد الناصر . وهناك أيضاً صورة مؤطرة للعائلة كلها أمام البيت الذي كان . وهكذا صارت فلسطينكم موضوعاً ميتافيزيقياً . تموتم مع تلك الأحاسيس . عوّدتم أنفسكم على التأقلم ومسايرة الوضع الجديد. ما كان أمامكم خيار آخر . لكن باطنكم كان نقيضاً مفزعاً وبشعاً لكل ذلك . لعلكم كنتم أكثر الفلسطينيين تحسّساً بفلسطينيتكم وحاجة إليها . بها تلوذون كلما اشتدت خطوبهم عليكم . إلى أحضانها تهربون كلما عجزتم عن تحمل ذلك التغيير الساحق

وهل كان بامكاننا أن نقبله ؟ أبحث عن ذلك الرمح ذو النصل المزدوج المقدس . . ماذا رماه في طريقي ؟ أرجع خائباً أسهر إلى الفجر لا أجد متنفّساً سوى في الاتصال بهيفاء أبثها شوقي وحبي . لكن المجال ضاق أمام تلك العواطف الآن . . العائلة كلها على كف عفريت . مشكلة الأرض وورطة أحمد النجار الحفيد واعتقال ديب ومرض أبي ووساوس عزت وقلة حيلته . وأنا هنا بعيد عاجز عن فعل أي شيء . وأسخر من نفسي . حتى لو كنت هناك ماذا بوسعي أن أفعل ؟ .

هل رحم الله أمي فأخذها قبل أن يعود ديب مكبّلاً ويستدعوا أحمد للتحقيق وتقع الأرض تحت سيف المصادرة ، أم هو حرمها من فرصة كانت ستجد فيها مجالاً لمعركة جديدة تخوضها وهي تعلم سلفاً أنها خاسرة ؟!. كانت دائماً موجودة ، في كل الملمات هي حاضرة ، تغذّي فينا مبدأ أن علينا أن نحاول ، والنتيجة ليست مهمة .

كنت في التاسعة عندما تسلّط عليّ ثلاثة أطفال يهود . . بدأ ذلك ذات اثنين . كنت عائداً إلى البيت أغذّ الخطا متأملاً أن يفرج عن أبي في أي يوم بعد أن أوشكت فترة محكوميته ان تنتهي . اصطدمت دون قصد بأصغرهم فأوقعت حقيبته المدرسية وتناثرت محتوياتها على الأرض . خفت وركضت هارباً لكنهم

لحقوا بي وبطحوني أرضاً ومرّغوا وجهي في التراب قبل أن يطلبوا مني تقليد عواء الكلب . بكيت ذلك اليوم كما لم أبك في حياتي قط . وعلى مدار الأيام الثلاثة التالية انتظروني ، صدفة أو عمداً ، في نفس المكان ، وكنت أتقي شرهم بالعواء . لو كانت الأوضاع طبيعية لما خرج الأمر كله عن شقاوة الطفولة وخبثها ولؤمها . لكنه تحول إلى كابوس مريع من المهانة لم أعرف كيف أتخلص منه . لم أجرؤ على اخبار أحد أو الاستنجاد بأحد ، حتى عزت وديب . في اليوم الخامس قررت تغيير طريقي لكنهم اكتشفوني وعويت إلى أن بح صوتي . غير أن كل مشاعر الذل والعجز والانكسار هانت أمام الهوان الذي خنقني وأمي تسألني ، عقب عودتها من العمل ذلك اليوم ، لماذا أعوي في الشارع ؟ كان لا بد أن أقول الحقيقة . ولم تنظر نحوي وهي تخاطبني برصانة .

ـ صرت رجلاً يا وليد . والرجل لا يعمل مالا يريده .

يوم الأحد وجدتهم أيضاً في انتظاري . كانت المعركة خاسرة سلفاً . تعاركنا الى أن سقطت من الاعياء والألم والدماء تنزف من أنفي وفمي . رجعت وكانت بانتظاري . خُيل إلي أنها كانت متوارية في مكان ما تراقبني . لم تسألني ماذا حدث . طلبت مني أن أغتسل ثم قامت بتعقيم جروحي دون أن تبالي بأوجاعي . وتألمت الى درجة وددت معها لو أصرخ وأبكي ، لكني سيطرت على نفسي . من يومها لم أعد أشاهد الأولاد في طريقي . كتمنا الأمر عن عزت وديب اللذين ألحّا كثيراً لمعرفة سبب تورم وجهي وجروحه . شعرت أنني نلت مكافأتي بعد يومين ونحن نحتفل بالافراج عن أبي . قالت له اننا الثلاثة ، عزت وديب وأنا ، كنا رجال البيت أثناء سجنه .

في الواقع هي التي كانت رجل البيت تلك السنوات العصيبة ، تركنا أبي على الحديدة وعاد ليجدنا وقد وقفنا على أقدامنا . لا أذكر أنها شكت مرة أو تحدثت لأحد عن الظروف القاسية التي مررنا بها . القضية الوحيدة التي وقفت عندها دائماً واعتبرتها عقاباً قاسياً من الله لا نستحقه ، هي الحادث الذي أدى إلى قطع أصابع يد عزت اليمنى . كان في السابعة عشرة من عمره عندما دخل سوق

العمل في منجرة أبو مصطفى . طول عمره وهو يكره الدرس والدراسة . لايرى فيها أي مستقبل له معتبراً أن الخشب مجال ابداعه . لكن المنشار الكهربائي الجديد الذي اشتراه أبو مصطفى سرعان ما بخر هذه الموهبة عندما أطار في ساعة نحس وشؤم ثلاثاً من أصابع يده اليمنى .

كان ذلك أسوأ ما مر بنا في فترة سجن أبي . وللمرة الأولى والأخيرة رأيت أمي تنهار انهياراً كاملاً . تلاشى كل ما كانت تتحلى به من عزيمة وصبر وتحمّل وقدرة على مواجهة الشدائد والتعامل معها بعقلانية شبه آلية أحياناً . تحولت الى امرأة يائسة تجسد كل الضعف الانساني الانثوي . بكت حتى جف الدمع من عينيها . لعنت الآلهة والقدر وحظنا والدنيا والعالم وأنحت على نفسها باللائمة لأنها هي التي شجعته على العمل . ثم كأنها ندمت على كفرها ، تابت إلى الله ووعدت أن تصوم مجدداً رمضان الذي أصبح على الأبواب . كانت قد امتنعت عن صيام أول رمضان تلا النكبة وسجن أبي معلنة ، وسط ذهول واستنكار الجميع ، أن من لا وطن له لا رب له

لم تصفح عن نفسها أبداً . الى موتها ظلت تعتبر أنها المسؤولة عن العاهة التي أصابت عزت . ربما لهذا السبب اعتادت أن تعامله ، الى أن تزوج ، باهتمام أكبر ومراعاة أشد وعطف أقوى . حتى الأرض التي آثرته بها ، دون أي شعور بالغبن أو الرفض من قبلنا ، أقلّه بالنسبة لي ، كانت أحد أوجه التعويض الذي حاولت منحه له بأي أسلوب استطاعت .

لم تخطىء . قلبت تلك الأرض حياة عزت رأساً على عقب . حررته من شعور النقص الذي لازمه منذ إصابته ، وساعدته على تكوين شخصيته واستعادة بعض ثقته بنفسه ، وأغرت سامية الخوالدة على القبول به زوجاً . دفعته أمي دفعاً ليصبح فلاحاً منتجاً موسراً ذا شخصية اعتبارية في عكا .

هل يضيع كل ذلك مجدداً ويقطفون هم الثمرة التي أفنى عزت عمره من أجل انضاجها ؟ .

إنها الليلة الرابعة التي أبحث فيها عن الرمح ذو النصل المزدوج المقدس .

كأنما الأرض انشقت وابتلعته . هل كذب عندما قال لي ان البار الذهبي حيث التقينا هو الرحم الذي يأوي إليه عندما يضجر من زوجته وأولاده والتلفزيون ، لعله لم يضجر حتى الآن ؟!.

- ١٣ -

في سلسلة الاشاعات والأقاويل والدسائس التي تناولت هروب خديجة ، واحدة نأت بعيداً عن المنطق والمعقول وامتزجت بالخيال والوهم ، تنفيها جملة وتفصيلاً ، كما أكدت العمة ازدهار في تفنيدها الحاسم لها ، الطباع والأفكار والتصرفات التي كوّنت خديجة الصالح وميّزت شخصيتها منذ طفولتها . لكن متى كان الواقع والمنطق قادرين على الصمود في مواجهة تلك الألسن العكاوية النمّامة الردّاحة المغرقة في سذاجتها وإيمانها وحماسها ، المستعدة لأن تموت في سبيل ما تعتبره الحقيقة الواحدة المجردة ، التي كل ما عداها باطل وقبض ريح ؟ .

قالت تلك الاشاعة ان خديجة هربت مع شاب يهودي عشقته بكل جوارحها ، هو ابن الصائغ ديفيد الالماني الذي جاء الى فلسطين مطلع القرن ، وتزوج اليهودية الفلسطينية ايفيت ، وأنجبا صبياناً وبناتاً تميزوا بالجمال والذكاء ولطف المعشر . وقعت خديجة في هواه كما يمكن لكل فتاة أن تقع ، وهل كان باستطاعتها أن تقاوم اغراءاته وهي تلتقيه في غدوها وإيابها واقفاً على باب دكان أبيه ينسج حولها شباك نظراته الساحرة ؟ .

كان من المستحيل أن يتزوجا . فالوصول الى القمر أهون من أن توافق العائلتان والطائفتان على ذلك الرباط في تلك الأجواء الفلسطينية الملتهبة ، لذا لم يكن هناك بد من أن يهربا ليتزوجا في السر . ذهبا إلى تل أبيب ، لكن الوضع هناك لم يكن أهون . فالزواج لا يمكن أن يتم دون أن يغير أحدهما دينه ، ومن منهما يغير ؟ . لا بد أنهما نزلا في أحد فنادق تل أبيب الرخيصة ، وهناك نال منها وطره . . إنهما بالطبع لم يمضيا الليل في عّد النجوم . بعد يومين رجعا إلى عكا بخفّي حنين والباقي معروف ! لم يكتف راوو تلك الاشاعة بالتأكيد أن خديجة

شوهدت أكثر من مرة وهي تتحدث مع اسحق ، الحبيب المزعوم ، بل وأقسموا أن المذكور اختفى من عكا في الفترة التي هربت فيها خديجة . . لا يتذكر أحد أنه رآه أيام الأربعاء والخميس والجمعة يسند كعادته باب دكان أبيه . كان صعباً التأكد من تلك المزاعم . وعلى الاجمال لم تنل تلك الرواية اهتماماً يذكر ، ونسيها الناس سريعاً الى أن أعادتها إلى ذاكرتهم عملية اغتيال اسحق على يد مجهولين في منتصف عام ١٩٣٧ .

كان جد اسحق ، والد ايفيت ، الدكتور موسى ، الطبيب اليهودي الأشهر في عكا ، ومن أكثرهم احتراماً وتقديراً في المدينة . . متبحر في مهنته بحيث ندر أن أخطأ في تشخيص وعلاج مرض . كانوا يؤمنون ببراعته ، بل وبلمسته السحرية ، الى درجة أن فارس الصالح اعتقد أنه لو كان موجوداً في عكا إبان ولادة خديجة ، كان آنذاك في لندن يتعالج من اصابة في القلب ، لأنقذ حياة آمنة . عندما توفي في منتصف العشرينات خرجت نصف عكا تشيّعه . وظلت عائلته في منأى عن معظم الاضطرابات التي نشبت إلى أن شّب أولاد ايفيت وديفيد مشبّعين بالدعوة الصهيونية . انخرط اسحق في العمل السري وبرز في منتصف الثلاثينات واحداً من أشهر المتطرفين اليهود في عكا . . جرى اغتياله في أوائل شهر تموز وهو راجع الى منزله . في اليوم التالي انتشرت قوات الانتداب في المدينة واعتقلت أكثر من خمسين عربياً . لكن ذلك لم يمنع انفجار أعمال عنف متفرقة أخطرها اغتيال عدد من العمال الفلسطينيين وهم عائدون إلى عكا على يد عصابة يهودية .

لم تخف خديجة أسفها لمقتل اسحق . قالت أنه لولا الظروف والأطماع اليهودية التي جعلت فلسطين أتوناً حارقاً مؤججاً بالحقد والكراهية ، لما كانت نهايته بهذه السرعة وعلى هذا الشكل المأساوي . كان يحلم ، قالت ، بأن يصبح طبيباً كجده ، لكنه صار ارهابياً كمعظم اليهود الذين جاؤوا فلسطين هرباً من الارهاب . ورأى من سمعها أن هذه الأقوال تحمل اعترافاً مباشراً منها بأنها كانت على معرفة به ، ولكن إلى أي حد وصلت هذه المعرفة ، هذا ما لن يحاول أحد

أن يسألها عنه أو يشغل فكره فيه .

في تلك الأيام أرسل عبد العزيز يطلب ان توافيه زوجته وولداه إلى عمان تمهيداً لينتقل منها إلى الحجاز . وجدها فارس الصالح فرصة للسفر يرى فيها ابنه ويغير الجو . غاب ثلاثة أسابيع وعاد في منتصف آب ليواجه مفاجأة أليمة غير متوقعة وقعت على رأسه كالصاعقة . كانت الليدي اليزابيت تستعد للعودة إلى بلادها دون أن تعطي أي سبب مقنع . مرة تقول أنها سئمت الحياة في فلسطين لوحدها . ومرة تدعي أن أحد أقربائها توفي وترك لها في وصيته مبلغاً محترماً . كانت قد نجحت ، بالرغم من كل العواطف المتناقضة حيالها ، وبخاصة بعد إجهاض خديجة ، في فرض نفسها على الجميع . أصبحت وجهاً مألوفاً محبوباً ، وصديقة تغري الكل باللجوء الى وساطتها ساعة تتعرقل أمورهم مع فارس الصالح . حتى العمة ازدهار ، ودون أن تتخلى عن قناعتها بأن الليدي ليست سوى قحبة انكليزية ، وقعت في حبائلها ، واستنجدت بها في اكثر من مشكلة مع أخيها .

صدم قرارها الجميع . لم يقتنع أحد بتبريراتها وحججها بعد أن كانت تؤكد أنها ستمضي بقية عمرها في فلسطين . رأت العمة ازدهار أنها لا تريد أن تبقى مجرد عشيقة فخرية لرجل تجاوز السبعين من عمره . وقادها هذا الرأي الى التخمين بأنها قد تبقى إذا عرض عليها فارس الزواج . لم تجرؤ على أن تكلمه بنفسها في الموضوع ، فاستعانت بأحمد النجار . سخر هذا مما أسماه خرفها لكنها ألحت .

ـ وما بها إن تزوج على سنة الله ورسوله ؟ انهما يليقان ببعض . تستره ويسترها ويلتهي بها عني . لقد مللت أنا من خدمته وتعبت . لم تعد فيّ قدرة على تحمل طلباته وعصبيته وجنونه ومزاجه . معها يصير كالقط !

عندما تدخلت خديجة تذكّرهابأن فارس طرد رضوان من البيت لأنه تزوج انكليزية ، فبأي وجه يواجه العالم إذا تزوج انكليزية ، سارعت ازدهار تجيب .

ـ طرده لأنه تزوج راقصة ويهودية .

ومع تفاقم أحزان فارس الصالح وكآبته باقتراب موعد رحيلها ، تشجع أحمد النجار وتطرق الى تلك الفكرة بشكل غير مباشر . فما كان من فارس إلا أن صرخ بنزق :

ـ ومن قال لك اني لم أعرض عليها الزواج ؟ لكنها لا تستطيع ،أو لا تريد ، لا فرق . لم أفهم هذه المرأة أبداً . وقد تكون هي أيضاً لا تفهم نفسها . كل يوم أعرض عليها أن نتزوج فتضحك وتقول اننا كبرنا كثيراً على تلك اللعبة .

واكتأبوا كلهم وهم يكتشفون أنهم يودون الليدي اليزابيت ، وأنهم حقاً حزينون لرحيلها المفاجىء واللا مفهوم . أقاموا لها حفلة وداع حافلة استمرت طيلة يوم الجمعة السابق لسفرها . راح فارس الصالح يحوم حولها كالطفل الذي يوشك أن يفقد أثمن ما يملك . بكت النسوة وهن يتوادعن . وترقرقت عينا فارس بالدموع وهو يضغط على يديها بقوة حزيناً مرتبكاً . وعدت أن تواظب على مراسلتهم ، بل وأن تدعوهم إلى زيارتها ما أن تستقر في وطنها .

زاد رحيلها من ضياع فارس الصالح وانزوائه . كأنما زهد الحياة ولم يعد يجد فيها ما يغري . اقتصرت تسليته ، وربما متعته الوحيدة ، على لعب الطاولة مع أحمد النجار ، وعلى التريّض كل عصر ، مهما كان الجو ، على الشاطىء ، وعلى موعده الشهري مع أيهم المتولي . حاول أن يعود إلى العمل في المحل . لكن ضعف همته ونفاذ صبره لم يساعداه على المواظبة طويلاً .

سافرت الليدي اليزابيت مطلع ايلول . وصلت منها رسالة في أواخر العام . كانت الأولى والأخيرة . لم تتضمن شيئاً كثيراً . عدة أسطر تبلغ فيها فارسها وأفراد العائلة أشواقها وتشكرهم على الأيام الحلوة التي قضتها معهم . أثلجت الرسالة صدر فارس ، إلا أنه أصيب بخيبة أمل لأنها خلت من أي عنوان يمكن أن يراسلها عليه .

مطلع عام ١٩٤٠ ، جاء إلى الدكان رجل ، قالوا فيما بعد ان منظره كان مريباً ، يسأل عن عبد العزيز . عندما أجابه أحمد النجار أنه في السعودية بدا

عليه الضيق والقلق . ابتعد لكنه سرعان ما رجع ليعطي أحمد ، بعد أن تأكد من شخصيته ، مغلّفاً طالباً منه أن يسلمه الى عبد العزيز شخصياً . قلّب أحمد وخديجة المغلف عدة أيام قبل أن تقرر هذه الأخيرة فتحه على مسؤوليتها بحضور العمة ازدهار . كان يحتوي على رسالة مطولة وقصاصة من جريدة المانية فيها صورة باهتة جداً لليدي اليزابيت ، أو لامرأة تشبه الليدي اليزابيت . وقالت الترجمة العربية المشبكة بدبوس مع القصاصة ذات الصورة :

« مقتل جاسوسة انكليزية خطيرة » .

قتل رجال الأمن في فينا أول أمس المدعوة حنة ليتش ـ ٥٢ عاماً ـ وهي تحاول الهرب مع مجموعة من الوثائق السرية الهامة عن انتشار قوات الفوهرر في النمسا وهولندا . وكان رجال الأمن قد وضعوا المذكورة تحت المراقبة المشددة منذ عدة أشهر بعد أن اكتشفوا تسرب بعض الوثائق الهامة من دار المستشارية حيث كانت تعمل في السكرتاريا . وبيّنت التحقيقات أنها تسللت إلى فينا بجواز سفر مسروق وتم زرعها في المستشارية قبل فترة قصيرة من الانشلوس (انضمام النمسا الى الوطن الأم المانيا) . ويبدو أنها أحسّت بانفضاح أمرها فحاولت الهرب ، إلا أن رجال الأمن كانوا لها بالمرصاد . لا حقوها وأردوها قتيلة بعد أن حاولت المقاومة وأطلقت النار عليهم فأصابت أحدهم بجراح . ان التحقيقات مستمرة للوصول الى مزيد من المعلومات عن هذه الجاسوسة الخائنة . وعلى كل من لديه معلومات عن تلك المرأة ان يدلي بها فوراً الى الأجهزة المختصة مؤدياً واجبه نحو المانيا والفوهرر » .

وكانت الرسالة المرفقة موجهة الى عبد العزيز :

« هل هذه حقاً أول رسالة أرسلها لك ، لكم ، بعد تسع سنوات طويلة كاملة كدنا ننسى فيها بعضنا البعض ؟ كيفك أنت ، كيف صحة الجميع ؟ كيف حال العجوز ، وهل لا تزال رأسه يابسة كالحجر ؟ أراهن أنك لن تطلعه على الرسالة !

اني أقيم في الآن في برلين . جئت الى المانيا عام ١٩٣٣ بعد أن طلقت ،

الأفضل أن أقول هجرت ، سوزان ولندن . كان في النتيجة على حق . لكني لم أستطع التغلب على سحرها . ربما لو أنه عرف كيف يتعامل معي ، أو لو حاول أن يبدي تفهماً أكثر ، لما وصلنا الى تلك القطيعة . ليس هذا وقت الندم الآن ، وأنا لست بنادم . . أوضاعي جيدة جداً هنا والحمد لله . وقد أحسنت صنعاً بالاستقرار في المانيا . فمستقبل العالم يتقرر هنا . . تزوجت منذ خمس سنوات ، وأنا واثق أن امرأتي ستعجبكم ، وستعجبه . عندنا الآن طفلان آريان جميلان يجعلان الفوهرر نفسه يتيه فخراً بتلك الذرية المنتقاة . أعمل في القسم العربي بالاذاعة وأتوقع أن استلم قريباً رئاسة الدائرة . ساعدني الحظ بأن تزوجت قبل أن تشدّد الحكومة قيود زواج الأجانب من الالمانيات . قبل أسبوع تشرفت بحضور حفل استقبال أقامه وزير الاعلام السيد غوبلز لرجال الاعلام . شعرت بالفخر وهو يتحدث عن الدور الذي تقوم به الأقسام الأجنبية في الاذاعة الالمانية . ثقوا أن الفوهرر يحب العرب ويتعاطف مع قضاياهم ، ولا تصدقوا دعايات الانكليز عن كرهه لنا . إن كان للعرب أمل في التخلص من الاستعمار فهو بتحالفهم مع ألمانيا . إن المستقبل لها . وسيجعلها الفوهرر زعيمة العالم بلا منازع

هل تذكر الليدي اليزابيت ؟ الآن عرفت لماذا بقيت في فلسطين بعد أن زعمت أن زوجها قتل في القدس ، ولماذا أقامت تلك الشبكة الواسعة من العلاقات مع العرب . كنت أصدق أنها تحبنا وتعطف على قضيتنا وتعارض سياسة بريطانيا اليهودية في فلسطين . لقد نجحت في الضحك علينا . لو لم أكن أعرفها كما أعرف باطن كفي لقلت ان الجاسوسة المذكورة في الخبر ليست سوى امرأة تشبه الليدي اليزابيت . حملت شكوكي إلى الغستابو وعرضت عليهم مالدي من معلومات عنها . كانت لاتزال في المشرحة . لا مجال للشك في أنها هي بلحمها ودمها . في وركها حبة الكرز وتحت ابطها الندبة التي نتجت عن حادث اصيبت به في طفولتها ، على حد زعمها . طيلة علاقتي معها كنت أتساءل عما يعجبها بشخص مثلي ، ويجعل أرملة لعوباً في جمالها ونضجها ومركزها

تصطفيني ، كما كنت أحسب ، عشيقاً مدللاً ؟ حسبت ، مغروراً ، أن شبابي ووسامتي وفحولتي ، لا تسخر ، هي السبب . أما الآن فأنا أحاول أن أبحث عن أسباب أخرى ولا أجد . أذكر انها أحياناً اعتادت أن تسألني عن عدد من القضايا والأوضاع السياسية ، وعن رأيي ، وربما معلوماتي ، عن الأحداث الراهنة والموقف الفلسطيني . لكنها كانت أسئلة جد عادية . نعم كنت أشترك في المؤتمرات السنوية للجنة الوطنية الفلسطينية آنذاك . لكني كنت هامشياً بالمقارنة مع غيري . لا أستطيع ان أجزم بشيء ، أرجو منك على أية حال أن تحاول جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها من الأشخاص الذين عرفوها . من كانت تصادق ، وأين كانت تذهب ، ومتى غادرت فلسطين . ستفيدني تلك المعلومات كثيراً مع الغستابو ، وقد تعجّل في استلامي رئاسة الدائرة ، هذا اذا لم أحصل على مركز أعلى . بالتأكيد هم لديهم في فلسطين عيونهم ومصادرهم الخاصة ، ومنها قد يحصلون على تلك المعلومات ، لكن سيساعدني كثيراً أن اتعاون معهم ، لذلك انتظر منك جواباً بفارغ الصبر .

كيف أخبار الجميع عندك ؟ لا تعرف كم أنا مشتاق لكم وللوطن . سلامي الخاص إلى خديجة . آمل أن نستطيع اللقاء قريباً .

ملاحظة : من المستحيل ارسال تلك الرسالة بالبريد . حاملها هو أحد الأشخاص المؤتمنين ، سيرجع بعد شهر ليأخذ الجواب منك . كن لطيفاً معه ولا تحاول ازعاجه بأسئلتك . .

واسلم لأخيك المحب رضوان . .

برلين ١٩٣٩/٨/١٩ »

كانت الحرب العظمى الثانية ، عندما وصلتهم الرسالة ، لا تزال في بدايتها ، والمانيا الهتلرية تنطلق في أرجاء أوروبا كالإعصار يقتلع في طريقه كل ركائز العالم القديم . في فلسطين أصاب الشلل كل شيء بانتظار أن تنجلي الزوبعة النازية . العرب يحلمون بأن ينتصر هتلر ليتخلصوا من اليهود ، واليهود يعملون كي تنتصر بريطانيا ليتخلصوا من العرب .

كالصاعقة وقعت الرسالة على رؤوس خديجة وأحمد وازدهار . لم يصدقوا حرفاً مما جاء فيها . كان مستحيلاً أن يصدقوا . هي رواية كالخيال . إنه يخرف رضوان الصالح . هل يعقل أن تكون الليدي اليزابيت ، تلك المخلوقة اللطيفة المحبوبة المرحة التي يغمى عليها لدى رؤية نقطة دم ، والتي كان يمكن أن تكون زوجة فارس الصالح ، هي نفسها تلك الجاسوسة الخطيرة التي تعيش في دياجير المغامرة وتهرب في الظلام وتحمل مسدساً في محفظتها ، مستعدة في كل لحظة لأن تقتل ، بفتح التاء ، وتقتل ، بضمها ؟ غير معقول . إنه يخلق من الشبه أربعين . لكن تلك الندبة تحت أبطها ، وهل هناك حقاً شهوة في وركها ؟ من يستطيع أن يعرف ؟ هل يسألون فارس ؟ .

بالطبع أخفوا الموضوع عن العجوز ، وهو اللقب الذين سيستخدمونه من الآن فصاعداً في الاشارة إليه . ستقتله الرسالة لو وقعت في يده . قالت خديجة ان الليدي اليزابيت ، حتى لو صدقت مزاعم رضوان ، كانت تحب أباها ، ولم تكن علاقتها معهم قائمة على أي هدف نفعي . وماذا يمثل فارس وآل الصالح بالنسبة لها لو كانت فعلاً تلك الجاسوسة التي تحدث عنها رضوان ؟ .

أما أحمد النجار فقد أحيت الرسالة حقده المنسي على الليدي اليزابيت . رأى أن هناك غوامض كثيرة في حياتها تبرر الشك فيها . هل هي حقاً أرملة ضابط قتل في فلسطين ؟ ولماذا بقيت فيها ؟ لم يسبق لها أن تحدثت عن أهل وأقرباء لها في بلادها ، فلماذا عودتها المفاجئة والنهائية ؟ ثم انها ، دون كل السيدات الانكليزيات ، كانت الوحيدة التي اندمجت في المجتمع العربي وأقامت علاقات صداقة ، مريبة ، مع عرب ، فلماذا ؟ هل حقاً كان رضوان على علاقة جنسية معها ، عشيقها ؟ هل هذا ممكن ؟ ماذا كانت حقيقة علاقتها مع فارس الصالح ، صداقة أم حب أم جنس ، ولماذا فارس الصالح ، ما محله من الاعراب إن هي كانت تلك الجاسوسة التي يتحدث عنها رضوان ؟ .

أسئلة حاول أحمد النجار القيام بما أسماه تحريات للحصول على أجوبة شافية لها ، لكنه لم ينجح ، بالأحرى لم يجرؤ على المضي قدماً فيها . في أجواء

الطوارىء المفروضة على البلاد منذ بدأت الحرب ، كان هذا النوع من التحريات سيجذب الأنظار إليه ، بل وقد يوقعه في مشاكل هو في غنى عنها بخاصة إذا كانت مزاعم رضوان صحيحة . حاول أن يستجر العجوز للحديث عن علاقته بها ، لكن هذا الأخير كان شحيحاً جداً في الافضاء بمكنونات صدره وبسط ذكرياته معها . راودت أحمد فكرة أن يبلغه برسالة رضوان ، بل وتشجع ذات يوم يقول له ان انقطاع الليدي عن مراسلته يثير الشبهات . فما كان من العجوز إلا أن حدجه بشذر وهو يقول ان الرسائل كانت بالكاد تصل قبلاً فكيف الآن والحرب في أوجها ؟

من يومها طُوي موضوع الليدي اليزابيت نهائياً على صعيد العائلة . حتى العجوز صار يتجنب الحديث عنها أو ذكرها من قريب أو بعيد . أما ذلك الرسول الذي أوصل الرسالة ، وخمّنوا أنه ولا بد جاسوس الماني ، فإنهم لم يروه ثانية . واختفى المغلف بشكل مريب بعد فترة قصيرة بحيث لم يره أحد ثانية كذلك . قالوا أن خديجة دفنته في جذع شجرة اللبلاب مخافة أن يقع في يد أبيها . نسوه الى أن وضعت الحرب أوزارها ، وتذكروه يوم وردت سيرة رضوان في بعض أحاديثهم . تساءلت العمة ازدهار ان كان ذكر عنوانه في رسالته الشهيرة تلك . أكدت خديجة أنه لم يذكر ، واردفت أنها عندما ارادت قبل فترة اخراج المغلف لم تجده . هو تلف أو تحلل بسبب المطر والرطوبة ، أو هي نسيت في أية بقعة طمرته . وعلّقت ازدهار بسخرية :

ـ وقد يكون الشيطان بلعه !

اختفت الرسالة ، وكذلك اختفى رضوان الصالح ، فلم يعد أحد يعرف أحي هو أم ميت . كان الاحتمال الثاني أقوى . ولو هو نجا من أتون الكارثة الالمانية لحاول على الأقل الاتصال بهم ، أم لعله نسيهم . فالبعد ، كما يقولون ، وثبت ، جفاء ؟

وانتابهم ، بصمت واستكانة ، ذلك النوع من الحزن الكئيب على ذلك المتمرد الذي ضل وضاع ، أو اندثر ، في بلاد الله الواسعة . وبالرغم من ذلك

قرروا ألا يفقدوا الأمل في أن يكون لا يزال حياً في مكان ما من ذلك العالم المترامي الأرجاء ، يعيش سعيداً مع زوجته الالمانية وطفليه الآريين المصطفين ، بل وقد يكون انضم إليهم مزيد من الأطفال الآريين المصطفين !

ـ ١٤ ـ

نيويورك ٢٠ـ١٢

يبدو وكأن كل شيء يعمل ضدي . اكتشف خطأ حسابياً غبياً ، لكنه فادح ، في تصميم استغرق مني شهر عمل . يصيبني شبه انهيار عصبي . لا أجرؤ على ابلاغ رئيس القسم فعطلة الميلاد على الأبواب ، والمشروع يجب أن يُسلّم اول العام الجديد . أعرف ردة فعلهم لكنني أجهل أي اجراء قد يتخذون بحقي . إنها غلطة مريعة لا يقترفها طالب سنة أولى

ذهبت الى ذلك البار من جديد أبحث عن الرمح ذو النصل المزدوج المقدس . صارت عملية البحث والانتظار حالة ادمان ليلي لا أستطيع التخلص منها . ما أن تحين الساعة التاسعة حتى أغادر زريبتي وأقود السيارة الى البار الذهبي لأمضي فيه ساعتين أعود بعدهما لأنام قلقاً . ليلة أمس اختلف الوضع . كنت بحاجة ماسة إلى ذلك الهندي الأحمر ، الى أي انسان يسمح لي بنسيان غلطتي وبالشعور بالدفء والرفقة . لم يكن هناك . . بدأت أقتنع أنني لن ألتقيه ثانية ، ورحت أتساءل ان كنت حقاً قابلت هندياً أحمر اسمه الرمح ذو النصل المزدوج المقدس . ملامح وجهه بهتت في مخيلتي . لم يبق منها سوى اللون الداكن والانف الكبير والعينان النسريتان اللتان يخالطهما من الحزن قدرما يخالطهما من التحدي .

بعد الكأس الثانية تلمحها متكئة بذراعيها على طاولة توارت قرب باب الحمام بالكاد يصلها ضوء أحمر خَفَت حتى أظلم . حملت رأسها الجميل بين راحتيها وراحت في شبه اغفاءة تهتز برتابة على ايقاع موسيقى غرباء في الليل . لو لم تكن كلمت هيفاء قبل يومين لقلت أنها هي جاءت هنا لتفاجئك . منذ متى

وهي هنا ؟ تنتهي الأغنية وتعود الأضواء تشع تضفي على الحضور مزيداً من الوضوح والأبعاد . هي هيفاء دون شك . لماذا لاتأتي لتكلمك ؟ لا أنت لستسكران ! هيمثلك يبدو عليها الضجر القاتل ، تجيل النظر فيما حولها بسأم وقرف دون أن تبدي أي اهتمام بالنقاش الضاحك الدائر بين رفاقها ، أربع فتيات وشابين وكلهم في العشرينات . تنتظر بفارغ الصبر الى أن تقع نظراتها المتطايرة عليك فتسارع ترفع كأسك لها ، تماماً كما في الأفلام جمدت لحظة تتمعن فيك قبل ان تستأنف عيناها تجوالها اللامبالي . لم تسمح لخيبة الأمل أن تحبطك . راحت تتهامس مع الجالسة إلى يمينها . لا بد وأنها كانت تحس نظراتك المسلطة عليها بالحاح فقد رمتك رفيقتها بنظرة سريعة . بعد قليل عاودت عيناها تجوالها . توقفتا هذه المرة هنيهة أطول على كأسك المرفوعة . لمحت ، أو خيل إليك ، شبح ابتسامة على شفتيها الشهيتين . غمرتك سعادة طفولية ، وكان عليك أن تنتظر للمرة الثالثة كي ترد تحيتك بهزة متأنية من رأسها .

ما صدقت نفسك وأنت تنهض تنقاد نحوها كالمنوم مغناطيسياً تدعوها للرقص وتحتويها بين ذراعيك كما اللقية الثمينة . الموسيقى أصخب من أن تسمح لكما سوى بتبادل ابتسامات جوفاء وأسئلة غير مسموعة . راحت تهتز كالغزال وكالأفعى وكالساحرة وكالالهة وأنت ما شعرت أنك عظيم رائع حي مقبل على الدنيا كما شعرت في تلك اللحظات المجنونة المغتصبة وأنت تنصهر من جديد في زخم الحياة تزيل عن جسدك وروحك صدأهما العفن

إذ جلستما ورحتما تتفاحصان عن قرب ما عادت تلك الهيفاء . كانت مجرد أنثى جميلة فيها بعض الشبه من تلك الحبيبة البعيدة . شعرها الأحمر المكزبر لا يشبه الفاحم الحريري . العينان الزرقاوان ليستا سوداوين تغرفان من ليل الفضاء اللانهائي . الفم أصغر والشفتان اكثر تسطحاً . وجنتان تبرزان قليلاً وجسد أنحف وأطول وأكثر ليونة . الشبه هو فقط في ذلك الوميض المنبعث من العينين ، في تلك النصف ابتسامة توحي لجليسها بالثقة والطمأنينة :

ـ جاكي .

ـ فاليد .

تحرّف اسمك تؤمركه . تتوقف لحظة وكأنها تحاول أن تجد له معنى ؟ .

ـ من أين جئت ؟ .

ـ اسرائيل . .

ـ يهودي ؟ .

ـ لا لا . . ماذا تشربين ؟ .

كأنك في دوامة لا تعرف ماذا قالت وماذا تقول . تغير الموضوع بسرعة . بدت متهالكه لوعيها بالرغم من أن رائحة فمها المشبعة بالكحول تبين أنها شربت كثيراً ، بل ، أكثر مما يجب . وتقرر أن تسكر . تشرب في ساعة كما لم تشرب في حياتك ، وتطلق روحك من عقالها تنطلق حرة في تلك البراري الأمريكية الخيالية . تتحدثان عن كل شيء وعن لا شيء . تضحكان كطفلين يكتشفان متعة الضحك للمرة الأولى في حياتهما . تشاركك فرحك الغوغائي الوحشي وكأنها مثلك تشعر الوحدة المضنية . تحكيان لبعض أبذأ النكات التي يمكن أن تخطر في البال ويجرؤ اللسان على لفظها . وما عرفت كيف حافظت على وعيك لتقود السيارة الى البيت حيث لبت دعوتك لاكمال السهرة . لم يكن بمقدورك إلا أن تمارس الجنس معها . كنت مستعداً لأن تدفع نصف عمرك مقابل ليلة حب معها في السرير ، بالنشوةالتي أجّجتها الكحول فيك ، أو عن تصميم مسبق ، عدت تراهاهيفاء ! نمت معها على أنها هيفاء . لا تذكر أنك استمتعت وحلّقت وأجدت كتلك الليلة وأنت تناجيها باسم هيفاء ، غير مبال إن أدركت معناه أو لم تدرك .

ماذا تفعل في الفارعة ياديب ؟ كيف تركت نساء اسكندنافيا لتضاجع قاووشاً أو ليغتصبك قاووش ملأته أبخرة الصديد والبول والبراز والعفن والدم والاقياء ؟ وتصرخ تنادي ديب . . تصرخ بصوت أخرس إلى أن توشك أمعاؤك تنقذف من شدقيك

لم أستيقظ إلا على التلفون الذي صرع رأسي برنينه المتواصل . بعد لأي

غادرت السرير . أفرام يسأل عني فالوقت صار ظهراًوليس من عادتي أن أتأخر .
أخبرني أن هناك رسالة لي من الوطن . دهشت وطلبت ارسالها مع أحد الحجاب فقط بعد أن وضعت السماعة ونظرت إلى نفسي وفيما حولي تذكرت أحداث الليلة الفائته . قفزت كالممسوس ابحث عنها . لم أجد أحداً . كانت هناك فحسب روائح الكحول والجنس النفاذة التي أفتقدتها لأكثر من عشرة اشهر . رائحة أثارت ضيقي وحنقي ، قدر ماأشعرتني بالمتعة واللذة والنشوة امس . . فتحت النوافذ على وسعها وتركت للهواء الثلجي مهمة طردها .
أخذت حماماً ساخناًفركت فيه جسدي بكل ما أوتيت من قوة . لكن الرائحة ظلت مكانها ، في الغرفة وفي أنفي وفمي ، وظلت معها صورة هيفاء ، تلك البعيدة المرابطة هناك ، تكبر وتتعملق تملأ علي خيالي ونفسي وكل ماحولي وكأنها لاتنتظر سوى أن تتجسّد .

أهو الندم أم القلق أو الحيرة ؟ لست أعرف حقيقة المشاعر التي تتخبط في داخلي . إنها المرة الأولى منذ تزوجت . لم افكر بامرأة أخرى طوال تلك السنوات ، ولا حاولت مرة التورّط في علاقات جانبية سريعة بالرغم من عديد الاغراءات التي واجهتني . كنت ولا ازال مقتنعاً قانعاً بهيفاء ، غير شبق ولا مهووس بتلك الرغبات الجامحة التي تجعل الكثيرين ، كديب ، يلاحقون كل إمرأة ، ويتامون مع أية أنثى تتاح لهم ، ليعودوا في المساء الى بيوتهم ونسائهم دون اي شعور بالإثم أو الذنب ، بل ودون أي تفكير بالموضوع حتى ، وكأن ما فعلوه ليس اكثر من شرب فنجان قهوة على الرصيف . ربما ما زاد في مناعتي كوني لا أزال اعشق هيفاء وكانت علاقتنا لم تبدأ إلا لتوها ، والعهد الذي قطعته على نفسي ، وهي تودعني في مطار تل أبيب ، أن لا أخونها . كيف صمدت حتى الليلة بالرغم من أنه ليست هناك مدينة في العالم تتوفر فيها الاغراءات والدعوات الجنسية كما نيويورك ؟ .

هل هي حجّة أنها تشبه هيفاء ؟ كم أود لو أراها وأنا صاح وبكامل قواي ، لكني أخشى تلك الرؤية . أتخوف أن لا يمنعني ندمي واحساسي العميق بالذنب من خوض تلك التجربة الالهية ثانية . لا أستطيع ابعادها عن ذهني ولا

أستطيع إلا التساؤل عن سبب اختفائها الغامض دون أن توقظني . هل تتصل ثانية ، وهل فهمت معنى كلمة هيفاء التي كررتها أكثر من مرة ونحن نمارس الحب ؟ لا أظن . كانت مثلي تماماً انصرف كل اهتمامها الى آلية العمليةالجنسية بين غريبين جمعتهما الصدفة في ليلة نيويوركية صاخبة .

وهل هي صدفة أن تصلني رسالة هيفاء اليوم بالذات تحمل في طياتها لوعة الاشتياق وآلام الوطن البعيد وجروحه والنداء الحزين ؟ مشكلة أحمد النجار الحفيد تكبر . بل هي صارت مصيبة بعد أن وجهوا له ولاثنين من أصدقائه تهمة الاتصال مع منظمة معادية ، وهذه أخطر جريمة يمكن لأحد عرب اسرائيل أن يرتكبها . كابوس عزت ، كابوسنا كلنا ، تحول الى حقيقة واقعة . الصبي يمكن أن يحكم بالسجن حتى الخمسة عشر عاماً ، وعشراً إذا ترأفت المحكمة ، ولا رأفة في أمثال تلك التهم .

هم ضائعون لا يعرفون ماذا يفعلون . لا يزال هناك أمل ، وإذ يكن ضعيفاً ، في كون الادعاء لم يقدم حتى الآن دليلا دامغا على ذلك الاتصال سوى عدة سفرات قاموا بها الى الضفة الغربية الصيف الماضي والتقوا خلالها أشخاصاً مشبوهين . قرر عزت دفع ضريبة الأرض ، فهو عاجز عن حمل بطيختين بيد واحدة . وضع الرجل ، بالأحرى عقله ، ليس على مايرام . تملكه هاجس بيع الأرض مقابل اطلاق سراح ابنه إيفكر جدياً بهذا الموضوع ويظن أن باستطاعته عقد تلك الصفقة ، فهم يريدون الأرض لا أحمد ، وسيأخذونها منه إن عاجلاً أو آجلاً ، بالترغيب أو بالترهيب ، بالقانون أو بالحيلة ، فلماذا لا يستفيد منها قبل أن تضيع ؟ .

لم يركن إلى الهدوء بعض الشيء إلا عندما حذره أحمد من التصرف بالأرض بأي شكل ، وهدده بأنه اذا باعها فسيعترف لهم بكل شيء . لم يخجل عزت من القول أن ابنه طلب منه أن يتصرف كرجل . من ميزات أخي الكبير انه يعرف قدر نفسه ، ويعترف بهذا القدر ، وهذا ما يدفعنا كلنا الى التعاطف معه ومشاركته همومه وقلقه . على كل لست أدري ، ربما لو كان عندي ابن ،

وواجهت ذلك الموقف العصيب ، لما تصرفت بطريقة أفضل . هل يكفي أن أبعث لهم حفنة من الدولارات ؟ .

تتجاهل هيفاء موضوع السفر . أفكر أن أتصل بها لكن الوقت لا زال باكراً . ماذا سأقول لها وجريمتي لا تزال حية داخلي وحولي وقد يفضحني صوتي ؟

تلح علي رغبة مرهقة في الذهاب للبار بالرغم من أن الساعة تجاوزت التاسعة . سألتقي بالتأكيد أحدهما ، جاكي أو الرمح ذو النصل المزدوج المقدس . يجب أن أراها في ضو النهار . . لعلها شاهدت صورة هيفاء قبل أن تذهب كيف لم أحس بذهابها ؟ شككت لوهلة بأن تكون سرقت شيئاً . واحتقرت نفسي بعد عملية التفتيش الدقيقة التي قمت بها

أحاول القراءة فلا استوعب . أجرب التلفزيون فتزعجني ضوضاؤه . رأسي لا يزال يطن بحيث لا أستسيغ الشراب بالرغم من جفاف حلقي ورغبتي في كأس . أعود الى قراءة رسالة هيفاء . لم تعد تخطىء كثيراً في الاملاء . عندما جاءت إلى فلسطين لم تكن تعرف من العربية سوى بعض الكلمات . تكفّل أحمد النجار الحفيد بتعليمها اللغة . استثارته فكرة أن يكون استاذ زوجة عمه الاسترالية . أنجز مهمته بامتياز . وعندما اجتازت بعد سنتين ، بتفوق ، الامتحان الذي أجراه لها ، لم تكن هناك أية مكافاة تشعره بالسعادة والفخر أكثر من ورقة الفحص التي دارت على كل أفراد العائلة وأصدقائها . ليس غريباً أن تحمل لاستاذها وداً خاصاً وأن تسألني بقلق ماذا يمكن أن تعمل من أجله ؟ .

هل كنتم تتوقعون أن يكون أحمد النجار الحفيد على غير ما هو عليه ؟ كانت ولادته حدثاً بارزاً أثار فيكم مشاعر فائقة بالفخر والحبور لم تتكرر مع غيره من أطفال عزت . كانت خديجة أكثركم ابتهاجاً واستثارة ، كأنها لم تتوقع أن يكون بمقدور عزت أن ينجب ! كانت حاسمة وهي تقرر أن الطفل يجب أن يسمّى على إسم جده . عارض عزت مفضلاً اسماً أكثر عصرية وحداثة . تشاجرا وغضب واشتكى وانتصرت هي في النهاية . على عاتقها وقع عبء تربية الطفل بسبب عمل أمه . ملأ حياة خديجة بالطول والعرض ، وكان لا بد أن

ينمو على مزاجها ، وضد رغبة أبيه . اتهم عزت أمه بأنها علمت الطفل أن يقول فلسطين قبل ماما وبابا . وشكت سامية بأن خديجة تحرمها من أمومتها . فما كان من هذه الاخيرة إلا أن اقترحت عليها أن تنجب طفلاً ثانياً لتمارس أمومتها معه . اعتادت خديجة أن تقول إنها لم تستمتع بتربيتكم ، فازدهار هي التي تكفلت بثلاثتكم . أما الآن فهي تريد أن تأخذ كل وقتها مع أحمد . ويبدو أنها أخذت وقتاً أكثر من اللازم أوصل الصبي الى السجن

حاول عزت أن يبتعد عنها . بذل جهده وتمكن ، بمساعدة أهل امرأته ، من شراء بيت للاستقلال بحياته وتربية بقية أطفاله الأربعة . لكن أحمد ظل ملتصقاً بجدته ، يفضّلها على والديه ويمضي عندها معظم وقته . من مدرستها تخرج نزقاً مستقلاً قوي الشخصية صاحب آراء هدامة ، فلسطينياً حتى العظم كما تقول خديجة فيقلق عزت ويضرب كفاً بكف وقد امتلأت رأسه بالمخاوف والوساوس .

كانت هزيمة حزيران لا تزال تسحقكم وتعجنكم عندما أغرى بعض أترابه بتشكيل ما أسماه خلية فدائية ضاربة . هو يذكرك بديب أليس كذلك ؟ قرروا ان يدشنوا عملهم باحراق سيارات اليهود . وبالفعل ملأ ثلاث زجاجات بالكاز وأعد مجموعة من الخرق وحدد ساعة الصفر ليلة سبت . انكشف الأمر عندما لم يستطع أحد الأطفال أن يكتم السر أكثر مما فعل فأبلغ أمه . سارعتم تمنعون الكارثة قبل وقوعها . أنّبتموه بشدة وشرحتم له النتائج الوبيلة التي كنتم ستحصدونها لو أنه مضى قدماً في فكرته الخرقاء المجنونة . كانت ردة فعل عزت اكثر عنفاً . حمّل خديجة المسؤولية الكاملة وحذّرها من مواصلة اسلوبها الهدام مع طفله . بل وهددها بأن يحرمها من رؤيته . أظهرت الندم وقطعت على نفسها عهداً بأن تصبح أكثر عقلانية وواقعية معه . كنتم واثقين أن ذلك لن يحدث ثقتكم أنها فخورة بمحاولته فخراً لا حدود له !

ماذا كانت ستقول لو انها لا تزال على قيد الحياة ؟ على الأغلب ستعتز أيضاً . كيف لا وهي لاتعتبركم ، أنتم أبناؤها ، سوى جماعة من الهمل

المستسلمين فاقدي الحيلة ، بعضكم هرب ، وبعضكم الآخر يحلم بالهرب . أما أحمد النجار الحفيد فشيء مختلف تماماً . هو كجدته لن يهرب ولن يفكر بأن يهرب . الأرض ستصبح له . وستكرر ما قالته بعد أن أفرجوا عنها .

ـ سجن عكا ليس بأسوأ من ذلك السجن الكبير الذي اسمه اسرائيل بل هو ألطف وأرحم . فيه على الأقل لست مجبراً أن تبتسم لهم ، وأن تمارس كل دقيقة فعل الرضوخ والاستسلام والقناعة . لست مضطراً لأن تطأطىء رأسك لعلمهم ، ولأن تبدي سعادتك بالهوية التي أعطوك إياها .

صدقت خديجة . انك لا تعود ذلك الحيوان المدجن الأليف في الزريبة الحديثة المعقمة التي بنوها لك .

إنه منتصف الليل . يجب أن اتصل بهيفاء وأن أسمع صوتها . لعلي أخطأت ، لكني لست اول ولا آخر الرجال الذين يخونون،وهي ليست اول ولا آخر النساء اللواتي يتعرضن للخيانة .

أحن إلى ذلك الرمح ذو النصل المزدوج المقدس ، الى جاكي . من أين جاء هذان الغريبان يغزوان طمأنينتي ويقلبان حياتي رأساً على عقب ؟

انه منتصف الليل . السابعة صباحاً بتوقيت فلسطين . يجب أن أتصل بهيفاء

ـ ١٥ ـ

ربيع عام ١٩٤٢ أصيب فارس الصالح بنوبة قلبية ثانية ، مرت عليه فترة عصيبة الى درجة أنهم اعتقدوا أن نهايته حانت حقاً . . لكنه شفي .

كانت الحرب العظمى تبدو بعيدة جداً عنهم ، لكنها فرضت عليهم القلق والترقب اللذين يؤطران الهدوء المريب الذي لا بد وأن يسبق العاصفة . أظهرت قوات الانتداب البريطانية حزماً صارماً في ضبط الأمن وتجميد النزاع العربي اليهودي بانتظار نتيجة الحرب التي يتوقف عليها وجود ومصير الامبراطورية العظمى .

كانت خديجة حاملاً في شهرها الخامس عندما استدعاها العجوز ، بعد أن تجاوز الأزمة ، ليبلغها دون سابق إنذار ، وبحضور العمة ازدهار ، انه قرر أن يهبها بيارة الكفر . حتى عام ١٩٣٦ كانت تلك البيارة تعتبر درة أملاك آل الصالح ، تمتد على مساحة ثلاثمئة دونم في أخصب وأغنى مناطق المثلث . وجاءت الثورة بمعاركها وعمليات الثأر الانكليزية لتحوّلها إلى أرض يباب محروقة . احتلتها من ثم فرقة مشاة مدرعة لم ترحل عنها إلا بعد اعلان الحرب لينجح فارس الصالح في استعادتها بعد عذاب طويل .

قال العجوز بتقريرية جافة وتعابير وجهه الجامدة تمنع المرأتين المذهولتين من ادراك حقيقة مشاعره :

ـ يبدو أن الصبيان نسوا فلسطين واستطابوا الحياة حيث هم بعيداً عن مشاكلها ووجع الرأس فيها . لا أظن أن أحداً منهم سيرجع إليها بعدكل تلك السنوات . لا أعرف كم بقي لي من عمر . لذلك أفضل أن أرتب الأمور بنفسي . بعد أن يأخذ الله أمانته سيأخذ كل واحد منهم نصيبه . لكني أخاف منهم . مررت بأوقات وأزمات عصيبة ولم أفكر ، بل ولم أجرؤ أن أفكر ببيع قطعة واحدة من أرض الكفر . لا شك أن الظروف ساعدتنا على أن نصبح حضريين وأن نبتعد عن الأرض مكتفين بريعها . لكن ذلك لم ينسني انني فلاح ابن فلاح ، ومهما صرت وتصورت سأظل فلاحاً ابن فلاح أعرف قيمة الأرض وأقدرها وأومن بها . المشكلة انني لست واثقاً أن أولادي سيكونون مثلي ، وهذا ليس خطأهم ، فأنا الذي أبعدتهم عن الأرض وحرمتهم متعةالعيش والعمل فيها لأجعلهم من أهل المدينة وباشاواتها . لست واثقاً انهم لن يفرطوا بالأرض بعد أن يتقاسموها . فلا شيء سيمنعهم من بيعهاإذا ساءت أحوالهم وعُرضت عليهم الأسعار المغرية التي يدفعها اليهود . انهم أحرار في أن يتصرفوا كما يريدون بما سيؤول إليهم بعد موتي . لهم كل الحرية بكل تأكيد . لكن أرض الكفر لن تكون أبداً للبيع . كنت أفضل أن تبقى في عهدة آل الصالح رمزاً لهم كما هي الآن . لكن القدر لا يريد ذلك على ما يبدو ، وأنا أفكر . . .

توقف قليلاً كأنه يبحث عن كلمات قادرة على التعبير عما يدور في ذهنه ، أو كأن الحديث أرهقه فارتاح هينهة يستعيد أنفاسه . في تلك اللحظات لاحظت خديجة كم صار عجوزاً نحيلاً غائر الوجنتين والعينين . كم هي تحبه وتود لو ترتمي بين ذراعيه تضمه إلى صدرها وتعتصره بكل قواها . احترمت صمته ولم تجرؤ لا هي ولا العمة ازدهار على قول شيء الى أن استأنف الكلام .

ـ انا أعتبر أحمد كواحد من أولادي . بل يجوز أني أفضله عليهم في كثير من النواحي ولولاه الله يعلم ماذا كان حل بي . ليس هذا وقت لومهم . لعل الظروف كانت أقوى منهم ، والظروف دائماً أقوى منا عندما نضعف ونهرب منها . سأكتب الأرض باسمك ليس لأن الأولاد ليسوا هنا ، وهم ليسوا هنا ، ولا لأني أخش أن يفرطوا بها ، وحسب معرفتي بهم سيفرطون بها ، بل لأني أعتقد أنك لن تفرطي بها ، وستحافظين عليها وتفيها حقها لتبقى دائماً رمزاً لآل الصالح ، وآل النجار . . حتى لو رجعوا لن يتغير قراري .

صمت يحملق في المرأتين فترة بدت جد طويلة للعمة ازدهار قبل أن تتمتم خديجة بصوت بالكاد سمعاه .

ـ كما تريد يا أبي .

بكت خديجة تلك الليلة في غرفة العمة ازدهار . سهرت المرأتان حتى الفجر وهما تتحدثان في كل ما خطر على بالهما . استعادتا الماضي وتوقفتا طويلاً عند قرار فارس الصالح . قالت ازدهار ان أخاها سيظل بالنسبة لها لغزاً لن تستطيع حله . هي تفهمه ولا تفهمه . تحبه وتخشاه . دائماً كان ذلك الرجل المستبد المتسلط الجامد الشحيح في اظهار عواطفه وأحاسيس الود . وللمرة الأولى نفسّت عن بعض ما في نفسها .

ـ هو السبب في بواري . لولاه كنت تزوجت من خمسين سنة ولكان عندي الآن دزينة أولاد وأحفاد . لم يكن يعجبه العجب . ما تقدم أحد بطلب يدي إلا ووجد فيه مئة علة وعلة . هذا غير مناسب ، والثاني عائلته نكرة ، وذاك طامع في مالي ، وفلان كبير جداً وعلان بسيط وأجدب . بعد أن تجاوزت

العشرين اكتشفت أنه يخطط لمصاهرة الباشا محمد علي أمين سر والي عكا . راح يزين لي الزواج من ابنه وكأنه نصر ستحسدني عليه كل بنات عكا ، بل وبنات الاستانة ذاتها . لحسبت أن الأمور مرتبة بينهما وانتظرت يمنعني حيائي من الالحاح عليه في الموضوع إلى أن انتقل الرجل من عكا . كم كرهته وحقدت عليه بعد أن عرفت أن ابن الباشا كان متزوجاً من أربع ، وأن أباك كان ينتظر أن يطلق واحدة منهن ليزوجني له !وهكذا لا أعرف كيف مرت السنوات فما صحوت على نفسي إلا وأنا عانس فاتني القطار . بكيت حتى لم يبق في عيني دمع . وأبكي في كل يوم تتزوج فيه فتاة وتلد امرأة . أفكر أحياناً أن أسأله إن كان يدرك ماذا فعل بي ، وهل هو نادم أم نسي الموضوع واعتبره مجرد غلطة لم تقدم أو تؤخر في مسيرة العالم ؟

بدورها تساءلت خديجة عن حقيقة مشاعره نحوها . يحبها هو لا شك في ذلك . لكنه حب لا تستطيع أن تفهمه وأن تستوعب طبيعته . . هي أيضاً تريد أن تعرف لماذا أراد اجبارها على الزواج . ولماذا لم يراع عواطفها بالرغم من الحب الكبير الذي يكنه لها . أهو عناده الأحمق أم طيشها الأخرق . هل لأنه آمن أن قراره صائب ، أم لأنها سارعت ترفض وتتحداه قبل أن تزن موقفها وكلماتها ؟ لماذا لم ينس ولم يصفح ، ولماذا يأتي الآن ليهب الأرض لها وليس لليلى أو لسعاد ؟ .

ما هي الأفكار التي كانت تتمسرح في ذهنه آنذاك ؟ كهل وقور دفع للحياة ضريبتها وقرر أن يعيش على مهل مرتاحا هادىء البال متنعماً بما حقق . لكنه يفشل فشلاً ذريعاً . كان عليه أن يقتلها كي يظل رأسه مرفوعاً . لكنه لم يفعل لأنه لم يتصور الحياة مستطاعة دونها ، فاكتفى بأن يقتل عاطفته نحوها ، أو هكذا ظنت . لعلها الآن تستطيع أن تدرك خطورة ما فعلت . لم تحسب حساب أي شيء لأنها نسيت أن لكل شيء حساباً . أوهمها نزقها وعنادها أنهم سيركضون وراءها يسترضونها ويعودون بها راضخين لرغبتها ومشيئتها . لماذا كانت جد واثقة من نفسها آنذاك فقررت أن تضرب عرض الحائط بكل شيء ؟ . نعم . . لقد

انعكست غلطتها أثارا وبيلة على العائلة . لم يعد آل الصالح كما في الماضي ، تلك العائلة التي تضع نفسها في مصاف وجهاء عكا وأسرها الكريمة . بهروبها أصيبت صورة العائلة بشرخ لم يعد بالامكان أبداً اصلاحه . صارت ترى الشكوك في كل نظرة ، والاحتقار في كل حركة ، والاستهزاء في كل بسمة . بسببها ضاقت علاقاتهم مع الآخرين إلى حدهاالأدنى . وبالرغم من كل ما يجري في فلسطين فإن الناس لم ينسوا قوانينهم الفطرية في رفض انتهاك المحرمات والخروج على التقاليد والعادات . وهل كان هناك محرم أشد ، وتجاوز للعرف أسوأ من هروبها ؟ جنباً إلى جنب مع أحاديثهم عن الوطن والثورة والمشاكل والفقر واليهود والانكليز ، وردت إدانتهم لفعلتها الطائشة ، واستهجانهم لتخاذل فارس الصالح ، وانتقادهم لابتذال أحمد النجار بزواجه منها . فعلتها دفعت العائلة إلى نسج ستار بينها وبين العالم . لم يعد مهماً إن كانت هربت مع أحد أو لجأت لعند الست الفت ، لوثت شرفها أو صانته . كان يكفي أن تهرب ، أن تقفز فوق ذلك الجدار الأخلاقي الراسخ لتصبح متهمة مدانة محكوم عليها بأن تحمل إلى الأبد وصمة الشك والريبة . هل هناك من يصدق الآن ، بعد كل تلك السنوات ، انها تتمنى لو أنهم عرضوها على القابلة أم فرحان لتؤكد عذريتها ؟ . هي ممنوعة أن تخطىء ، وإن أخطأت ممنوع عليها أن تعتذر أو أن تحاول اثبات براءتها !

هل لاحظت العمة ازدهار في كلامه ما يوحي بأنه نسي فعلتها ؟ هي ، خديجة ، ودت لو تلمس شيئاً من ذلك . هل كان يهبها الأرض لو أنه لم يصفح ؟

وأثار تنازله عن الأرض لخديجة شقاقاً عائلياًومشاكل ليست بالقليلة . احتجت ليلى وسعاد على ما اعتبرتاه إيثاراً ظالماً لخديجة على حسابهما . فأرض الكفر ليست فقط درة أملاك العائلة ، بل هي بالأحرى الأملاك كلها ، لا يتبقى بعدها غير قطع تافهة صغيرة لا قيمة لها في السهل . . اجتمعتا ما أن تواتر إليهما الخبر ثم هرولتا الى البيت تتأكدان منه .

شرحت لهما العمة ازدهار الموضوع وتمنت عليهما أن تأخذا الأمر بروية وأن لا تثيران القضية مع العجوز . فابوهما أولاً حر في أملاكه وأمواله ، وهما ثانياً ، ولله الحمد ، في بحبوحة لا تحتاجان معها الى مزيد تضيفانه إلى ثروة زوجيهما ، واكدت لهما ثالثاً أن أباهما سيترك بعد عمر طويل ميراثاً ستنال كل منهما نصيباً مرموقاً منه .

لكن المرأتين الغاضبتين أصمّتا آذانهما عن تحذيرات العمة ازدهار ورفضتا الاقتناع بالتبريرات ، وجاءتا في اليوم التالي تعاتبان خديجة وتتهمانها بالتأثير على العجوز والضحك عليه . اكتفت خديجة بأن قالت أن هذه هي رغبته فهل تقول له لا ؟ . احتدت سعاد عندئذ وقالت بلؤم :

ـ مسكينة أنت طول عمرك لم تقولي له إلا نعم !

وقامت القيامة بينهن . تشاجرن ولم تنفع كل جهود العمتين في تهدئة الوضع واقناع المرأتين بتقبل الأمر . عادت ازدهار تحذرهما من إثارة الموضوع مع أبيهما ، فهو لا يزال في طور النقاهة ولا يجب أن يتعرض لأي ازعاج . لكنهما كانتا مصممتين على الدفاع عما اعتبرتاه حقوقهما القانونية والانسانية والأدبية . من حقهما ، وبالتالي من حق أولادهما ، أن تنالا نفس ما نالته خديجة . وهذا مبدأ لن تساوما عليه

جاءتا في المرة الثالثة الى أبيهما تشكوان له وتناقشانه في إيثاره خديجة بالأرض . قدمت سعاد مرافعة طويلة حول عدالة التوزيع وحقوق الأبناء جعلته يستشيط غضباً ويوشك أن يطردهما من حضرته وهو يبلغهما بعنف أنه حر في أن يفعل ما يشاء بأرضه . وهددهما بحرمانهما من أي ملّ إذا تطرقتا للموضوع ثانية من قريب أو بعيد . فوجئتا بردة فعله الهجومية ، فتراجعت ليلى وحاولت الاعتذار قائلة انهما لم تقصدا الاحتجاج على قراره . لكن سعاد ، وكأنما طاش صوابها بدخول خديجة والعمة ازدهار الى الغرفة بعد أن جذبهما صوته المرتفع ، اندفعت في صياح هستيري تتهم أباها بأنه كان دائماً ، وسيظل الى أن يموت ، رجلاً أنانياً مزاجياً لم يعدل ولا مرة واحدة في حياته مع أبنائه . . هو لم يحب سوى

نفسه وخديجة ، وعامل البقية كأنهم عبيده لاأولاده من لحمه ودمه . لينظر اليها هي سعاد ، ماذا رأت منه سوى العذاب والألم والجفاء ؟ رسم حياتها كما يشاء ، اختار لها زوجها دون أن يسألها حتى رأيها ، بل وتدخل أيضاً في تقرير عدد الأولاد الذين يجب أن تنجبهم . لماذا الأرض لخديجة . ماذا لديها أكثر من الآخرين ؟ .

وكان أكثر ما قالته لؤماً وإيذاء للعجوز زعمها أن اولاده الصبيان لم يفارقوه لأن الظروف أجبرتهم على ذلك ، بل لأنهم ما عادوا يستطيعون البقاء تحت سطوته وسيطرته ، فوجدوها فرصة سانحة ليبتعدوا عنه ويستقلوا بحياتهم يعيشونها كما يريدون هم لا كما يريد هو

توقفت فقط بعد أن استجمعت العمة ازدهار نفسها وصفعتها على فمها تصرخ فيها أن تخرس . أذهلهم موقفها بحيث بدا أن أحداً لم يستوعب تماماً ما كانت تقوله . تلمست سعاد الجرح الذي خلفته الصفعة على شفتها السفلى وحدجت العمة ازدهار بحقد قبل أن تستدير بهدوء وتغادر الغرفة تاركة فارس الصالح والنساء الثلاث واجمين غارقين في صمت مقيت لم يجرؤ أحد على أن يكون البادىء بكسره . الأثر الوحيد الذي ظهر على العجوز تمثل في ارتجاف شفتيه وكأنه يود لو يبكي لولا ذلك المجهود الجبار الذي بذله ليسيطر على أعصابه .

لم تعرف خديجة ، إذ زالت فورة الغضب والمفاجأة ، طبيعة المشاعر التي انتابتها . انها لا تريد أن تتحامل وأن تحقد على أختها ، فما قالته لم يخل من بعض الحقيقة . تأكد لها من جديد أن سعاد لن تغفر لها أنها تميزت عنها في كل شيء ، كما لن تصفح عما تعتبره خطأ أبيها الذي لا يغتفر في تزويجها من مصطفى المشعلاني . لكن ذلك لا يبيح لها أن تتطاول عليه بهذا الشكل المهين ، وأن تستغل ضعفه وعجزه لتنهال عليه بافتراءاتها وتقريعاتها . وراودتها من جديد رغبة عارمة في أن تعانقه تبكي على صدره وتعتذر له ، تعتذر عن نفسها وعن سعاد . قد يكون قاسياً وطاغية ومزاجياً وشرساً ، لكنها لا تستطيع إلا أن تحبه ،

وإلا أن ترفض كل مزاعم سعاد .

سألت العمة ازدهار بعد فترة إن كان صحيحاً ما قالته سعاد عن هروب الصبيان . هل حقاً ابتعدوا عنه ليتحرروا منه ؟ وهل يعقل أنها ، خديجة ، وطوال تلك السنوات . لم تلاحظ أن اخوتها متحاملين عليه ، وعليها ، إلى درجة الضغينة والحقد ؟ لم تعرف ازدهار ماذا تقول . هي لا تزال غاضبة على سعاد غضباً لا حدود له ، ولا يمكن أبداً أن تسامحها على موقفها المعيب الشنيع اللا اخلاقي . . انها حقاً لا تعرف . ربما هم وجدوا الحياة خارج فلسطين أفضل وأسهل . وهذا لا يعني أبداً أنهم هربوا منه . لا يمكن أن تنكر أنه ميّز في المعاملة بين خديجة وبينهم ، وسبب ذلك ، برأيها المتواضع ، لا يرتبط به بقدر ما يرتبط بخديجة ، بطفولتها ، بشخصيَّتها ، بذكائها ، بدلالها ، بتمردها ، وبما لاتعرف ماذا أيضاً

ضحكت خديجة وهي تتهم عمتها بأنها تبالغ . انتهى الحديث بينهما عند تلك النقطة وكأنهما فضلتا عدم الإيغال كثيراً في ذلك الموضوع .

كانت ردة فعل العجوز مختلفة عما توقعوا . لم يحمل ضغينة على سعاد ، بل تصرف كأن شيئاً لم يحدث . صباح اليوم التالي سألته خديجة إن كان يريد أن يتراجع عن قراره حول الأرض ، فرفض .

المصاب التالي الذي هز فارس الصالح تلك السنة بعد نوبته القلبية ، وقع في أول الصيف بوفاة رفيق عمره وشريكه أيهم المتولي . كانت علاقتهما قد وهنت في السنوات الأخيرة . خفت لقاءاتهما منذ احتراق الدكان ، وصفيّا شراكتهما شيئاً فشيئاً ، لكنهما بقيا أمينين لعرى الصداقة التي ربطتهما ما ينوف على الستين عاماً . آخر لقاء لهما كان قبل أسبوع من وفاة أيهم . تريضا على الشاطىء وأمضيا طيلة ما قبل الظهر في المقهى ، وعاد العجوز مرحاً يحمل لولدي خديجة كيساً من السكاكر .

بوفاة أيهم تهيأ لفارس الصالح أن المصائب تتوالى عليه دون أن تترك له مجالاً للراحة والتقاط أنفاسه . ينفض أولاده من حوله ، يحترق المتجر وتبور

الأرض ، تهجره الليدي اليزابيت دون انذار ، يضعف قلبه ويرتمي في الفراش ، وها أخيراً يرحل الصديق الذي كان بمقدوره أن يتبادل وإياه أسراراً يعجز الانسان عن الاحتفاظ بها لنفسه ، وأن ينطلقا معاً على سجيتهما يبسطان لبعضهما مكنونات نفسيهما دون حذر أو شعور بالخجل ، يحكيان أحلامهما ومشاكلهما ، خيباتهما وانتصاراتهما ، مغامراتهما واحباطاتهما ، عشقهما وغرامهما ، ماضيهما وحاضرهما ، قلقهما وسعادتهما ، حقاراتهما ونبلهما ، ما يجب أن يكونا عليه وما لا يجب . .

وبدا لخديجة أن الخيوط التي تشده الى الحياة تقطعت كلها باستثناء غريزة البقاء . صار أكثر انعزالاً وصمتاً وشروداً ، وأقل تدخلاً في قضايا البيت وشؤونه . وهذا ما حاول أن يعبر عنه محمود ، بكر سعاد ، عندما كتب تلك الخاطرة قبيل وفاة العجوز بأسابيع .

« اعتدنا تمضية أيام الجمعة في بيت جدي . بيت كبير موحش يطل على الشاطىء من تلة صخرية نصعدها بخمسين درجة . أيام الشتاء ، والطقس البارد يحول بيننا وبين اللعب على الشاطىء ، كنا ننزوي في ركن غرفة الجلوس الواسعة في الطابق الأول نقطع الوقت في اللعب والشجار والثرثرة وقص الحكايا . . جدي شيخ وقور لا نجرؤ على رفع أصواتنا أثناء وجوده ، أو الانطلاق على حريتنا في الصخب والتعارك . ما أن يعلو صوت واحدنا عن الطبقة المتعارف عليها حتى يسارع الجميع الى إخراسنا وتأنيبنا وتحذيرنا . كان هو يكتفي باطلاق نظراته الحادة نحونا فنسارع إلى التكوّم على بعض وكأن على رؤوسنا الطير . كانت الرصانة المحتضنة وجهه دائماً ، والنظرة القاسية غالباً ، الساهمة أحياناً ، تجبراننا على وزن حركاتنا وتعيير كلماتنا ، نكبتها إلى أن ينصرف للقيلولة ، أو يلتهي في اللعب بالطاولة مع أحد الكبار .

أتساءل دائماً لم هو مختلف عن غيره من الأجداد الصاخبين المرحين يجمعون الأحفاد حولهم يروون لهم الحكايات والنوادر يداعبونهم ويلاعبونهم ويضاحكونهم ؟ لم عندما يبتسم لنا لا تكون بسمته صافية سخية ، ولم عندما

يدعونا ليعطي كل منا بعض الملآت نأخذها بوقار أبله وقبلة جافة على يده المتغضّنة الممدودة ، ثم نبتعد مسرعين مفتقرين الى ذلك الشعور بالسعادة المعهودة التي تنتاب الطفل عندما يأخذ نقوداً من أحد الأقرباء ؟ .

ماذا هناك وراء هذاالجفاف والوقار الظاهرين بافراط الى الدرجة التي تثير كآبة كل من حوله ؟ هل هي طبيعته أم هناك أسرار ممنوع علينا أن نعرفها ؟ يتحدثون عن حريق الدكان لتبرير ذلك الحزن الدفين المتقوقع ابداً في عينيه ، ويعيدون ذلك الشرود الغالب على نظراته الى غياب أخوالي الثلاثة الذين نسوا في خضم بلاد الغربة البعيدة والقريبة أن لهم أباً . لكن تلك الأعذار أعجز من ان تقنعني بان رجلاً حفل تاريخه كجدي ، كما يروون ، ينتهي الى هذا الاستسلام المشين الذي يحاول عبثاً اخفاءه وراء قناع من التجبر يثير النفور » .

بكت خديجة وهي تقرأ تلك الخاطرة . أنّبت سعاد التي أرتها إياها متباهية بما وصفه زوجها أسلوب محمود الأدبي الراقي . تأوهت وهي تؤكد لسعاد أن اباهما ليس كما وصفه الغلام اطلاقاً . لم يفهمه محمود ، ولا فهمه أحد . هرم وضعف فلم يعد أحد يرى فيه إلا جانبه السلبي . صار عجوزاً يجب أن يوضع على الرف . قررت خديجة أن تحدث محمود عن جده . ستقول له ان فارس الصالح ليس أبداً ذلك المتجبر جامد الأحاسيس شحيح العواطف كما يعتقد . لكن فارس الصالح يموت . وتسارع عائلة المشعلاني تحمل أحمالها الى استراليا رافضة أن تتأخر حتى لحين أنتهاء العام الدراسي . وكأنهم كانوا يتوقعون ما سيحدث في الأشهر القليلة القادمة . وهكذا لم تستطع خديجة أن تغير صوره فارس الصالح في مخيلة محمود

- ١٦ -

نيويورك ٢٤ـ١

مضت فترة طويلة لم تكتب فيها حرفاً . . رأسك ممتلىء خواطر لا تجد طريقها الى الورقة البيضاء فتستكين محبطاً شاعراً بالعجز عن التعبير عمّا

بنفسك ، عن تقيؤ ذلك الاحساس الغامض اللئيم باليأس والضيق والرغبة في الانفجار ، تفجير نفسك وما حولك . رغبة حارقة تمتلكك لأن تهرب مما تجهله ، أو تهرب الى ما تجهله . . في الحالتين تقف محتاراً فاقد الحيلة مشوّش التفكير وقد أصابك اعياء لا تخف وطأته إلا عندما تصرخ بعنف أو تحطم شيئاً . . تود لو أن معك فأساً تنهال بها على كل ما حولك . لكنك أجبن من أن تفعل ذلك . هي تلك المرآة التي لا تنفك تطالعك بشخصك اللعين . لو انها تنفجر شظايا تفقأ الدمامل المضطرمة في أعماقك . لكنها لا تنفجر

انها تلك الهيفاء التي تشعرها بعيدة الى مالا نهاية ، هي كالخيال تلوح وراء أفق وهمي لن تصله أبداً . خف تأنيبك لنفسك . هذه هي سنة الحياة . لست أول الخطاة ولن تكون آخرهم . هي منذ تلك الليلة صارت أبعد ، غارقة إلى ذؤابات شعرها ، هل التعبير صحيح ، في هموم تبدو لك لا حقيقية ، أين منها مشاكلك مع الشركة بعد أن اكتشفوا خطأك ، ومحاولاتك الفاشلة للتخلص من امتلاك جاكي لك ؟ سيطرت عليك نيويورك وبدأت تستمرىء مجونها وعهرها ، وهل أمامك إلا أن تستمرىء ؟ .

هل صمدت كل تلك الفترة لتسقط مرة واحدة سقوطاً مدوياً ؟ تقودك جاكي من متاهة الى أخرى وتتبعها مستمتعاً منتشياً مستسلماً . إنها لا تشبه هيفاء ، ولا يمكن أن تكون هيفاء ، لا شكلاً ولا مضموناً . . قد تكون الوجه الآخر لهيفاء ، الوجه العاهر الذي يرفضه الرجل في زوجته ، أوّلا يتبادر إلى ذهنه أبداً انها تمتلكه . مع هذا الوجه تكتشف الخطيئة بأجمل صورها ، تنهل من الخيانة حتى الثمالة ، تمارس الجنس الأسطوري المحرّم حتى التحلّل . . في بارات نيويورك ومرابعها ، في خفاياها المنعزلة ، في حدائقها المقفرة غطتها طبقة سميكة من الثلج والزمهرير ، في دهاليزها الأحجية ، معها تلج كهوف الجنس المجهولة الغافية في أعماق الرجل الشرقي منذ ما قبل الخليقة .

فاجأني عبد المعطي ، زوج هيفاء ، دون سابق إنذار . جاء نيويورك أمس ليبحث مع مستثمر أمريكي مشروع مطعم شرقي في مانهاتن . في أحد

بارات الحي الخامس أمضينا سهرة لطيفة في الدردشة عن حسنات ومساوىء امرأتينا . اتفقنا على أنهما جيدتان جداً .

ـ نعم نحن محظوظان بهما . ها أنت في نيويورك تعيش على كيفك وأنا في ديترويت أعيش على كيفي دون منغّصات . الزعران الأربعة لا يتركون لها لحظة راحة واحدة ، وهي في الأصل لا تحب التدقيق كثيراً . تعرف انني مهما صلت وجلت مع نساء أمريكا فإن مرجوعي لها وللأولاد . كيف أمورك هنا ؟ يقولون أن نساء نيويورك غير طعمة

تلمظ فابتسمت وهززت كتفي دون تعليق .

ـ صمتك ملغوم . لا تريد أن تتحدث عن مغامراتك ؟ . ثق انني لن أخبر هيفاء . . . ها . . ها .

فكرت أن أحدثه عن جاكي . . أشعر أحياناً اننا كبرنا على تلك الأحاديث الصبيانية ، لكننا لا نكبر أبداً . أطلق صفيراً خافتاً وهو يتابع بأعجاب آية من الجمال أنزلت شالها عن كتفين بلوريتين وصدر مرمري . . تبادلنا النظرات وضحكنا بصفاء . لم أعرف كيف ومتى بدأ الحديث عن ديب . انتبهت فقط وهو يقول :

ـ من المؤسف فعلاً ما حدث له . انها مصيبة .

صمت هنيهة يتفحص دهشتي قبل أن يتابع بالعربية .

ـ موضوع غريب أليس كذلك ؟ . ماذا جاء يفعل في لبنان ؟ .

شعرت أنني محاصر . ولم أفكر كثيراً وأنا أرد .

ـ لا أعرف . آخر مرة سمعنا منه كانت بعد وفاة أمي . اتصل بالهاتف وبعث رسالة . ربما جاء في زيارة عادية فاعتقلوه صدفة . . أنا . .

وقاطعني بإشارة من يده .

ـ لا مجال للصدفة هنا . انه يحمل الجنسية السويدية ، وهو لم يأت إلى لبنان للسياحة . البيان الاسرائيلي يقول انها اعتقلت مجموعة من كوادر وزعماء فتح وهم متجهون الى صيدا على سفينة قبرصية . صيد ثمين تقع عليه .

لم أستطع حتى الآن أن أدرك ما وراء كلماته من معنى . فسارعت أقول بنزق ، بل وبتحد .

ـ ديب من زعماء أو كوادر فتح ؟ إنك تشتط كثيراً ! كان يحلم بأن يكون عسكرياً . لكنه مجرد حلم . هل يترك أوربا ليقاتل في لبنان ؟ صار فوق الأربعين فهل تتصوره بعد هذا العمر كله يحمل الكلاشنكوف ويحارب اسرائيل والكتائب وأمريكا والعالم ؟ إنها نكتة . . .

ـ يبدو أنك لا تعرف ديب مثلي ، أو لعلي أنا لا أعرفه مثلك !.

تلطمني المفاجأة ، ويزداد الحصار حولي وهو يردف .

ـ التقينا في الجزائر قبل ثلاثة أعوام . . العالم صار صغيراً جداً أليس كذلك ؟ كان ذلك بعد عملية ميونيخ بشهرين . هرب من ألمانيا بعد أن حامت حوله شكوك لم يوضحها لي . أنت الآن تتساءل لماذا لم أحدثك في الموضوع عندما زرتنا في ديترويت ؟ . لولا اعتقاله لكانت العلاقة بيننا بقيت سرية ، هو أراد ذلك . عمله يحمل صفة سري جداً ، خاصة وأن نطاقه هو أوربا الغربية . لا أعرف محلّه من الاعراب في سلك المنظمة الأمني ، لكني واثق أنه محّل هام ، أو كان كذلك . عرض علي أن أعمل معهم ، واقترح افتتاح المطعم الشرقي ليكون ستاراً لتحركات جماعته هنا . لم أستحسن الأمر ، فقد بدت المجازفة كبيرة ، ولم يكن مضى على هجرتي لأمريكا إلا ثلاث سنوات . لكنه كان قادراً على الاقناع فاقتنعت . أما الآن فأظن أن كل شيء انتهى بالنسبة له . عاد الى فلسطين . ولكن ليس كما كان يحب .

هل هو جاد أم مازح ؟ . هل هو حقيقي أم كاذب ؟ . تود لو أنك قادر أن تقهقه حتى يتمزق شدقاك الكريهان . . تود لو تلكم ذلك الأحمق حتى تنبجس الدماء من شفتيه المكتنزتين . . ما عدت تتذكر ماذا قال . ظل يتكلم وظللت تتلاشى ! هل جاء نيويورك في عمل أم ليحدثك عن ديب ؟ هل هو ديب النجار نفسه ، ابن أحمد النجار وخديجة الصالح ، أم هو ديب آخر ؟ هل نسيت ديب ومحاضراته ؟ .

ـ نحن مخصيون في اسرائيل . لا نقدم ولا نؤخر قيد أنملة . وجودنا مثل عدمه ، لم يعد لنا ماض ولا مستقبل ، أما يومنا الحاضر فنعيشه على التيسير . نغلق أبوابنا على ذواتنا المقهورة ونروح ننظّر ونحلّل الأوضاع المحلية والاقليمية والعالمية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية ، ونغمض أعيننا ونحلم بالنضال والتحرير والحرب وفلسطين وعكا ويافا وحيفا ونابلس والخليل وغزة والقدس . عندما نفتح أعيننا نسب إله اسرائيل والاستعمار والامبريالية والتروتستات والرجعية والانهزامية ونأكل ونشرب وننام مع نسائنا ونتناسل ، ثم نخرج لنصوم ونصلي ونتعبد الله الواحد القهار ونخاف اسرائيل والاستعمار والامبريالية ونحلم بالبيت والفيلا والسيارة البويك والتلفزيون والبراد والغسالة والزوجة الصالحة والمال والبنين زينة الحياة الدنيا . . ثم نزور مواخير تل أبيب ننكح العاهرات اليهوديات لننتقم لأنفسنا من اليهود . أما أبوك فيأكل هوا في سجنهم لأن أمك حرقت بيت أبيها . ونأكل نحن هوا لأن أبانا في السجن .

كالعادة يصغي عزت مستنكراً محذراً بأن للحيطان أذاناً . أما أنت فتكتفي من كل ما قال بالاستمتاع والانتشاء بكلماته البذيئة وبالخيالات اللذيذة التي تثيرها فيك الأحاديث عن المرأة فتحرّض ما بين ساقيك على التمدّد

سافر عبد المعطي ظهر اليوم فسارعت أواعد جاكي على المساء . هي التي اتصلت بي عشية عيد الميلاد بعد ثلاثة أيام على لقائنا . . كنت حسبت أن الأمر انتهى بيننا عند تلك الليلة العابرة وأنها ستكون نسخة مكررة من ذلك الرمح ذو النصل المزدوج المقدس ، نلتقي صدفة ونضيع من ثم في سراديب العالم اللانهائية ، بل وانتابني شعور عميق بالارتياح إذ خلت انني تغلبت على الرغبة الملحة في البحث عنها . لم يكن بمقدوري أن أقاوم دعوتها فأسرعت أُلبّيها أسلس لها قيادي أتبعها طائعاً مستسلماً ممتلئاً نشوة وسعادة وفخراً بنفسي وبفحولتي التي تفجرّت فجأة وكأنني لست أنا . أنسى برفقتها العالم فلا أعود سوى ذلك المراهق الغرّ يكتشف دنيا غير التي يعرفها وينغمس في عالم غير الذي يعهده . لكنها عالم ودنيا يثيران قلقي إذ ينموان على حساب تلك البعيدة المرابطة هناك . بالتأكيد

اكتشفت هيفاء التغيير الذي انتابني . ما عدت قادراً على مناجاتها بنفس الحرارة والصدق السابقين ، حتى ولا عدت أجد في صوتي ذلك الدفء الحزين المفترض انه يغلف عبارات الحب والحنين . انه تغيير ملحوظ . في اتصالي ما قبل الأخير سألتني ماذا بي . في الاتصال الأخير سألتني متى أعود . لا بد وانها حقاً تعرفني كما اعرف نفسي . إذ كانت تؤكد لي ذلك في لحظات الحب والصفاء كنت أعتقدها مجرد مزاعم توحي بها مشاعر العشق . سألتني متى أعود وكأنها قررت ألا تأتي . لم أقل لها كعادتي أنني انتظرها على أحر من الجمر . ربما هي على حق . وربما حان الوقت لأعود . الاستمرار هنا أصبح صعباً . لم تبالغ أمي عندما قالت أن الاغتراب لئيم وحقير . لو أنني ختنتها هناك ربما ما عانيت الذي أعانيه هنا . كانت ستكون دائماً بجانبي أهرب الى حضنها أكفرّ عما اقترفت . اما هنا فأين أهرب سوى إلى شقة باردة صامتة لا حياة فيها؟ .

انهم ينتظرون قلقين حائرين لايعرفون ماذا سيحدث . لو أن أمي موجودة لكانت بثت فيهم بعض الطمأنينة والثقة حتى وهم يدركون أنهم في النهاية سيخسرون . في قصتي مع الأولاد اليهود الثلاثة ظل هناك سؤال يلح علي طويلاً دون أن أجد الفرصة لطرحه عليها . عندما فعلت كنت بلغت الثامنة عشرة من عمري أقدم أوراقي الى الجامعة العبرية . كانت فرحتنا لا توصف إذ تجاوزنا كل العقبات والمشاكل التي تواجه عربياً وضع نصب عينيه أن يواصل تعليمه الجامعي . في الهزيع الأخير من ليلة ايلولية منعشة ، وبعد أن أخلد أبي الى النوم ، سألتها :

ـ هل كان الأمر اختلف لو كانوا فلسطينيين ؟ .

فكرت قليلاً ومطت شفتها السفلى قبل أن تقول :

ـ يجوز . كانت المشكلة انهم يهود . نعم . هذا هو الأمر . أنت خفت منهم لأنهم يهود لا لأنهم ثلاثة أولاد شرسين عدوانيين وأنت وحدك . كان يمكنك عندئذ أن تطلب مساعدة أخويك ورفاقك . كنت ستخاف حتى لو كانوا ولداً واحداً . هذا هو الواقع الذي أرادوا تعويدنا عليه . أن نخاف منهم ونتقي

شرهم بأي شكل حتى ولو شعرنا أنهم بشر مثلنا وأننا أقوى منهم . كان مطلوباً منا أن نخافهم كفكرة ، كبعبع ، لا كناس من لحم ودم ، لأن الخوف من الناس يمكن أن يزول في أية لحظة . هل تفهمني ؟ نحن ، أي أنا وأبوك ، عرفنا اليهود على حقيقتهم ، ناس مثلنا مثلهم ، انتصروا ليس لأنهم الأقوى والأفضل ، وهزمنا ليس لأننا الأسوأ والأضعف ، بل لأن الظروف ساعدتهم وخانتنا . أما أنت ففتحت عينيك على الوهم الذي يريدون زرعه في مخّك وهو أنهم انتصروا لأنهم المتفوقون ، لأنهم السادة ونحن العبيد . انتصروا فقرروا أن تكون قدسنا اورشليمهم ، وفلسطيننا اسرائيلهم . شيء طبيعي أن أرفض هذا القرار وأن أعلمك أن ترفضه وأن تعلم أنت ذلك لاولادك ، وأن يعلموه هم لأولادهم . وسنظل نرفض إلى أن نصبح الأقوى فنقرر ما نريد . كان استاذ اللغة العبرية في مدرستنا يهودياً بولونياً هاجر الى فلسطين قبل الحرب الأولى . اعتاد أن يستفزّنا بالقول أنهم سيسترجعون أورشليم لأنهم لم ينسوها ، ولأنهم رضعوها مع حليب امهاتهم وهم بعيدون عنها سفر سنة . منذ ألفي سنة يحلمون بتلك الاورشليم باعتبارها الجنة الموعودة لأحيائهم وأمواتهم ، وها قد حان الوقت ليرجعوا إليها . . ونحن يجب أن نكون مثلهم ، أن نتعلم كيف نحلم بالقدس ، وكيف نرضعها لأطفالنا مع الحليب الى أن يأتي يوم رجوعنا

اعتادت أن تسترسل بمتعة في مثل تلك الأحاديث المغرقة في طوباويتها وسذاجتها ، لكن المفعمة صدقاً وإيماناً وحرارة . لا تقاطعها . تكتفي بالاصغاء بحيادية باعتبارك من الجيل العملي الواقعي العاجز عن التشبع بمثل هاتيك الاحلام عن فلسطينكم واسرائيلهم . شعارات للاستهلاك . لكنك لا تنكر مشاعر الامتنان التي ساورتك إذ تفكر أنها ساعدتك ، بطريقتها ، على التعامل بواقعية مع عقدة النقص التي لا بد وسمت كل أفراد جيلك بعد التغيير الهائل الذي افرزته وقائع ضياع فلسطين وظهور اسرائيل .

هل كان أحمد النجار الحفيد الضحية المباشرة لأحلامها ، أو أوهامها ؟ وجدت فيه تربة خصبة تزرعها بتلك الأحلام ، فتنمو برية وحشية دون تشذيب

ورعاية . وهاهي النتيجة الآن . نسوا أن الوقت لا زال باكراً جداً على الأحلام . هيفاء تتوقع أن لا يقل الحكم عن عشر سنوات سجناً . الوضع متوتر جداً في الوسط العربي . الصحف الاسرائيلية تتحدث باسهاب عن تقرير أعده متصرف لواء الجليل عن الكثافة السكانية العربية في الجليل والمثلث ، وعن تناسلهم كالأرانب . الجيروزاليم بوست حملت في عددها الأخير تحذيراً واضحاً للحكومة من أن يؤدي التذمر العربي الى مشاكل لا حصر لها . المزيد من الأراضي تصادر في الشمال لمشاريع التطوير ، الى أين سيذهب العرب ؟ هل أرض عزت من ضمنها ؟ ما كانوا طالبوه بضرائب اضافية لو أن المصادرة تشملها . لكن لاعبرة في ذلك . لا أحد يعرف متى يقع الفأس فوق الرأس .

أشعر بالضيق لأن تلك الأحداث تجري وأنا بعيد آلاف الأميال . لماذا الآن بالذات ؟ منذ قامت اسرائيل وهم يصادرون الأرض العربية جملة وتفصيلاً . لم يكن هناك أي مجال لأي نقاش . من لا يعجبه الأمر يستطيع أن يرحل أو أن يدق رأسه في الحائط الى أن ينكسر أحدهما . كنا لا نستطيع إلا أن نرضخ فهم المنتصرون ونحن المهزومون كان يكفينا بيت يؤوينا وعمل يطعمنا . عودنا أنفسنا أن ننغلق على امتعاضنا وغيظنا وحقدنا ، وأن نعزّي النفس بأننا في وضع أفضل من باقي شعبنا ، على الأقل نحن في أرضنا ووطننا . نجونا من ذل التشرد واللجوء وهوان صدقات الاونروا والاعاشة و . . .

كم يبدو لك كل شيء سخيفاً صبيانيا ساذجاً الآن . اسرائيل هي الذل والتشرد واللجوء والخيم والهوان والاعاشة والموت . حتى هنا ، في نيويورك ، عاصمة العالم وقبلته ، لا يختلف الوضع كثيراً . أينما ذهبت ففلسطينيتك مشردة خائفة ضائعة مهانة ، تحملها كتلك الصخرة التي ناء بها ذلك الملعون من الالهة في الاسطورة الاغريقية . وكأن ذلك لا يكفيك فتأتيك عقبان تنهش جسدك دون أن تستطيع إلى منعها عنك سبيلاً . كتب عليك العذاب إلى أن ترضى عنك الالهة الغاضبة الحقودة . ومتى ترضى تلك الالهة ؟ .

فلسطينيتي تتحول إلى لغز مع جاكي . حاولت أن أشرح لها فلم تفهم ولم

تقتنع .

ـ لا توجع رأسي بمشاكلك السياسية المعقدة مع اليهود . تكفيني فييتنامي وأخي المفقود في سايغون وأمي التي فقدت عقلها . يبدو انني مرصودة لرجال العالم الثالث ، لم أعرف كيف تخلصت من ذلك التشيلي حتى جئتني أنت الاسرائيلي الفلسطيني . لنكن فالد وجاكي فهذا أفضل لكلينا .

حتى الحب عملية حسابية صرفة . عصر الهمبرغر . كينغ كونغ . تخيفني برودتها وتفزعني أنانيتها اللا انسانية .

ـ لا تراهن كثيراً عليّ . أنا غير عاقلة ولا أستطيع التحكم في مزاجي . قد أتركك فجأة ولا تعود تراني أبداً . . عش معي ليومك فقط .

يجب أن ترجع . لا مندوحة عن ذلك على ما يبدو . حتى القدر يقف ضدك ويتلاعب بك بشماتة غير تارك لك أي خيار . حسبت أن حياة جديدة ستبدأ بك هنا . هي سنوات معدودات وتصير مواطناً أمريكياً كامل المواطنية . كم حلمت بذلك وكم خططت له بينك وبين نفسك . كان صعباً الجهر به . خديجة جاهزة دائماً للتصدي بشراسة لتلك الفكرة ، ولا تنسى أنها ماتت دون أن تصفح عن ديب الذي اعتبرت هروبه خيانة شخصية لها . أما هيفاء فاعتادت على واقعها في عكا . هي لم تترك استراليا لتهاجر الى أمريكا . حسبتها ليلة القدر عندما جاءتك الفرصة على يديها ورجليها . حتى لو كانت خطتهم المعهودة لتفريغ فلسطين من عربها ، وهل أنت مسؤول عن بقاء الفلسطينيين في فلسطين ؟ وماتت خديجة قبل أشهر من سفرك وكأنها تعبر عن احتجاجها الصامت على رحيلك عن فلسطين .

يجب أن أرجع الى تلك الفلسطين المسماة اسرائيل . . لو أن هيفاء تأتي . . لو أن جاكي تنسل من قلبي وعواطفي . . لو التقي ثانية الرمح ذو النصل المزدوج المقدس . . لو أن نيويورك أقل يهودية من تل أبيب . لو أمزق الأسبوعين الأخيرين من حياتي وعقلي وعاطفتي وقلبي وأعود كما كنت

- ١٧ -

في أحد أيام تموز من العام ١٩٤٣ ، وقعت في سوق السمك حوادث عنف دموية بين العرب واليهود أثارت موجة من الاضطرابات قامت قوات الانتداب بقمعها بقسوة وبطش لم تعرف عكا مثيلاً لهما من قبل .

قالوا ان نار المشكلة كانت تعسّ في عكا منذ بداية الأربعينات . في تلك الفترة بدأ اليهود الالمان يستوطنون المنطقة الساحلية ويزاحمون على صيد السمك ، قطاع العمل الوحيد الذي كان لا يزال تحت سيطرة العكاويين . كانت المنافسة غير عادلة والنتيجة معروفة سلفاً . فالمراكب والفلوكات والحسكات كانت أعجز من أن تصمد في وجه الزوارق السريعة والسفن الكبيرة التي امتدت من رأس الناقورة الى رفح . كذلك كانت عاجزة علاقات العمل العائلية والعشائرية البدائية عن مجاراة قدرة الكارتل الذي شكله اليهود الالمان للسيطرة على السوق .

بدأ الحادث بتلاسن عاصف بين أبو عجاج شيخ الصيادين العرب وكورت فلنر رئيس نقابة الصيادين العبرية بعد أن أقدمت النقابة على أغراق سوق الاثنين بكميات كبيرة من السمك ضربت الأسعار وأوصلتها إلى الحضيض . تطور التلاسن إلى شجار فهب العرب ينجدون شيخهم وفزع اليهود يساندون ابن ملتهم .

ـ ماهي رمانة . . هي قلوب مليانة

سقط في تلك المعركة قتيلان يهوديان وثلاثون جريحاً من الطرفين . لم تهدأ الأمور نسبياًإلا بتدخل قوات الجيش . اعتقلت كل من حوصر في السوق . لكن ، وكما هي العادة في أمثال تلك القضايا ، كان كل المعتقلين من العرب لسببين ، الأول أن القتيلين يهوديان لذا فإن الجناة لابد ان يكونوا من العرب ، والثاني ان قوات الجيش لم تجد اي يهودي عندما وصلت إلى السوق لكن هذين السببين المفحمين ، كما قالت صحيفة العرب في اليوم التالي ، لم يقنعا

أحداً ، فمعظم الجرحى من العرب ، وحالة اثنين منهم خطيرة ، واليهود كانوا يملأون السوق ، فأين ذهبوا ؟ .

ـ غرائب والله ! ليس هناك من يشك في أن الحادث كان مدبّراً ، وأن اليهود تم تهريبهم خلال نقلهم الى سجن البلدية .

فرض حظر التجول اعتباراً من الساعة الثانية بعد الظهر . انتشرت دوريات راجلة وراكبة من قوات الانتداب تحسباً من وقوع أعمال عنف وبحثاً عن اثنين من الفارين العرب اتهمتهما الافادات بأنهما مسؤولان عن الفتنة التي وقعت ، الأول هو أبو عجاج المحرض الرئيسي للعرب على مهاجمة اليهود ، والثاني أحمد المتولي الذي زعم شاهد عيان يهودي أنه طعن كورت فلنر تلك الطعنة القاتلة التي أودت بحياته .

لم تنم عكا تلك الليلة ، ولا رحب شاطئها بسّماره الليليين من عشاق وباحثين عن السكينة والرحابة . ظلت مستيقظة الى الصباح وجنباتها تغلي من الغضب والغيظ والعجز عن مدّ يد العون لأبنائها المعتقلين في سجن البلدية ، وللسمك الذي بدأ يفسد في السوق المختومة بالشمع الأحمر . قالوا ان عكا بدأت ، منذ تلك الليلة ، تشعر بالخوف الحقيقي وهي تسمع البساطير الانكليزية تطرق بلاط شوارعها برتابة ، والسيارات العسكرية تجرح بجنازيرها صمتها الكئيب ، فيما قوة مشتركة من الانتداب والمنظمة الصهيونية تداهم البيوت والمناطق بحثاً عن المشبوهين والملاحقين . منذ تلك الليلة بهتت تلك الابتسامة التي اشتهرت بها عكا على مر العصور . بدأ وجهها الجميل يعرف الاكتئاب والانقباض ، وصارت ردات فعلها عصبية تنعكس توتراً وضيقاً على الجميع . لم تكن الأسباب ، يزعمون ، مرتبطة فقط بذلك الصراع الدموي بين العرب واليهود والعرب والانكليز ، أو بالغلاء الفاحش والنقص الحاد في المواد التموينية ، أو بتلك الحرب البعيدة . وإنما كان هناك ، في الدرجة الأولى ، ذلك الأحساس الفطري الغامض بأن الأمور لاتسير على مايرام ، وأن الناس عندما يسأل بعضهم عن أحوال بعضهم ويجيبون أنها مستورة وماشي الحال والحمد

لله ، إنما يدركون في أعماقهم أنها لا مستورة ولا ماشي الحال وأن المخفي أعظم . . .

ـ حتى القمر غاب تلك الليلة . .

بتلك الجملة علّقت خديجة بعد أن أرقدت وليد في سريره ، فيما أحمد النجار يطل من النافذة على البحر الساكن أضاءت بعض ظلماته انوار متباعدة لسفن أمتدت من لسان الخليج إلى عرض البحر . تابعت بعد أن حسبت أن زوجها لم ينتبه لما قالته :

ـ حوادث اليوم لن تمر على خير . الهيئة أن الإنكليز يبيتون شيئاً ما وإلا ما منعوا التجول إلى إشعار أخر . أين أنت سارح يا أبو عزت ؟ .

أشباح عكا بسورها ومآذنها وبيوتها تهتز بلطف مع انعكاسات أضواء سيارات الدوريات . نداءات لا معنى لها تصلها خافتة مبتورة .

ـ أفكر بأن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ . ليس الانكليز وحدهم من يبيّتون الشر . . اليهود يخيفونني أكثر . . اننا نفقد السيطرة شيئاً فشيئاً على كل شيء . لن تقوم بعد اليوم قائمة للصيادين العرب . فقدوا رزقهم ولن يبقى أمامهم إلا البحث عن مهنة جديدة أو العمل مع اليهود وبأمرتهم . أليس هذا ما يحدث منذ انتهت الثورة ؟ لم يكن اليوم في ميناء عكا إلا سفينتين ومثلها في ميناء حيفا . أما ميناء تل أبيب فيعج بها عجّاً . يقولون أن السفينة لا تفرغ حمولتها إلا بعد أسبوع أو أسبوعين من الانتظار . كان تجار الجملة اليهود في مصلحة النسيج يعدون على أصابع اليدين . في السنتين الأخيرتين تضاعف عددهم ومعظمهم من الألمان . صرنا لا مع سيدي بخير ولا مع ستي بخير . كأنه ما كفانا الانكليز حتى جاءنا هتلر بحربه الجهنمية يرمي علينا يهوده بالجملة . متى سينتهي هذا الكابوس ؟

وزفرت خديجة وهي تلتصق به :

ـ لن ينتهي سريعاً على ما يبدو . أمس كنت أتحدث مع الست الفت حول هذا الموضوع . قالت اننا نحن الذين سندفع ثمن الحرب . هكذا الحال

دائماً . الكبار يأكلون الحصرم والصغار يضرسون . حدثتها عن رضوان . لا أعرف لماذا أفكر به كثيراً هذه الأيام . حلمت أمس أنه مات في احدى الغارات على ألمانيا . ألا يزال هناك ؟ هل ساعرفه إن رأيته الآن ؟ .

وقطع عليهما خلوتهما دخول العمة ازدهار العاصف تبلغهما خبراً وقع على رأسيهما كالصاعقة . أحمد المتولي في البيت ويجب إخفاؤه .

لم يكن هناك مجال لكثير تفكير . فمثل هذا الظرف يمكن أن يمر مع أي شخص في أي وقت هذه الأيام . فكيف اذا كان الشخص المعني هو الحفيد الأكبر لابراهيم المتولي ؟ كان الشاب قد نجح في الفرار سباحة واضعاً نصب عينيه الوصول إلى الكابري ، لكن انتشار الدوريات أجبره على الالتجاء الى المنشرة . صبر حتى منتصف الليل ثم تسلل الى بيت العم فارس بحثاً عن مكان أكثر أمناً .

كان في العشرين من عمره . شاب ناحلٌ أصفر الوجه بلحية خفيفة وعينين صافيتين لا تدلان أبداً على أنه يمكن أن يكون قتل رجلاً قبل بضع ساعات . بدا مذعوراً عصبياً لا يكف عن التلفت حوله بقلق وحيرة وهو يعتذر للازعاج الذي سببه لهم . هدّأ أحمد النجار من روعه مؤكداً له أنه على الرحب والسعة . قدموا له الطعام وراحوا يتبادلون الرأي حول أفضل الحلول . قرروا في النهاية أن بيت المؤونة هو أنسب مكان لاخفائه دون أن يثير حتى انتباه أهل البيت . فليس هناك من يدخل إلى تلك الغرفة سوى العمة ازدهار . اتفقوا أن يكتموا الأمر عن الجميع . مما دفع خديجة لأن تهمس في اذن عمتها أنهم سيعيشون مغامرة مثيرة . لكن ازدهار حذرتها من أنها قد لا تكون مأمونة العواقب .

ـ وجوده هنا يضع البيت كله على كف عفريت

ـ عفريت جديد لن يقدم أو يؤخر في شيء يا عمتي .

وعاشوا بالفعل يومين مليئين بالاثارة والترقب والمخاوف والهمسات والسير على رؤوس الأصابع . ولم تستطع العمة ازدهار أن تصبر اكثر من ساعتين على مغادرته البيت برفقة أحمد النجار متنكراً بزي امرأة متلفعةبالسواد من قمة رأسها

إلى أخمص قدميها ، حتى انطلقت تنشر ما اعتبرته أكثر الحوادث فتنة في حياتها . هي بالتأكيد لم تقرأ قصص شرلوك هولمز ، ولا حتى سمعت باسمه ، لكن قصتها التي كانت تزداد غموضاً وتشويقاً مع كل مرة ترويها ، فاقت بالتأكيد حبكات هولمز نفسه ، كما قالت خديجة ذات مرة ضاحكة .

القضية التي ظلت تؤرق العمة ازدهار كانت في أنها لم تتأكد ان كان هو قاتل اليهودي أم ألصقت به التهمة زوراً . سألته حول الموضوع وهو يتناول الطعام ، فكان أن توقفت اللقمة في حلقه اذ فاجأه السؤال ، لكن خديجة أنقذته عندما قالت في حدة :

ـ اتركيه في حاله يا عمتي .

وتركته في حاله مرغمة . اكتفت بأن تعيش متعة المشاركة في المغامرة المثيرة ، وأن ترتجف هولاً وهي تتخيل ماذا سيحدث إن توصل الانكليز لاكتشاف مخبأه فجاؤوا يحاصرون البيت ؟ .

في الصباح التالي رفع حظر التجول عن عكا . لكن اجراءات الأمن ازدادت كثافة . وصح ما توقعه أحمد النجار . خضع مرفق الصيد العكاوي لليهود الالمان ، واضطر الصيادون العرب الى الرضوخ والعمل بالسخرة في الكارتل الصهيوني الجديد ذي الادارة الصارمة والأرباح المضمونة .

في الليلة التالية أخرجوا اللاجىء الشاب إلى سطح البيت ليتنفس هواء نظيفاً . أمضوا الوقت في الدردشة الهامسة والتنصت لأية حركة داخل البيت وخارجه . . ورأت العمة ازدهار أن حديثه أكبر من عمره ، وفسرت لها خديجة ذلك بالقول انه مثقف ! قال الشاب انه يعمل في سوق السمك لأنها مصلحة أبيه ولأنه ليس هناك ما يمكن أن يفعله سوى أن يبيع السمك أو أن يكش الذباب . بدا لهم متشائماً وهو يتحدث عن المؤامرة التي تستهدف فلسطين ، وعن عجز العرب عن مواجهتها . أيامه في الوطن صارت معدودة . ليس أمامه إلا الهرب إلى لبنان لأن وقوعه في قبضتهم لايعني سوى الموت بعد محاكمة عسكرية سريعة في ظل قوانين الحرب والطوارىء .

ـ مثل عبد العزيز وأيمن ، إن ظل الوضع على هذا الحال لن يبقى في فلسطين إلا النسوان والعجائز

علقت العمة ازدهار وهي تتثاءب . قال أحمد النجار ان تشاؤم الشاب اشارة سوء . يحق فقط للكبار أن يتشاءموا ويعلنوا عجزهم ويستسلموا بطريقة من الطرق . أما الشباب فهم جيل المستقبل الذي يجب أن يبقى قوياً متفائلاً مؤمناً قادراً على حماية الوطن .

وغفت العمة ازدهار بعد أن سيطر عليها سلطان النوم مستمتعة بتلك الهمسات الموسيقية لأحاديث الثلاثة ، ومنتعشة بالنسائم الغربية التي راحت تتغلغل في مسام ظهرها ، فتهب فجأة بين الفينة والأخرى تنظر إليهم بحيرة قبل أن تعود للنوم . .

بعد عدة أسابيع ، في ذروة الاستعداد لانتخابات فرع عكا للاتحاد النسائي ، قالت خديجة لعمتها ان أحمد المتولي كان يشبه أخاها رضوان ، فعلقت ازدهار أنه ، كرضوان أيضاً ، صاحب أفكار غريبة .

كانت دهشة خديجة الصالح عارمة عندما زارتها الست الفت بعد ظهر أحد أيام أب تعرض عليها أن ترشّح نفسها لانتخابات فرع عكا للاتحاد النسائي المقرر أن تجري في الأول من شهر ايلول . كان عمل الفرع مجمداً تقريباً . وكان حمل خديجة وولادة وليد قد أبعداها نهائياً عن الاتحاد خلال العامين الأخيرين . لذلك كان الاقتراح مفاجئا .

قالت الست الفت أن الصراع التقليدي بين السيدتين صباح مسعود وعليا الرملي يهدد بشق الفرع بل وبالقضاء عليه نهائياً . لذلك فإن الحل المنطقي الوحيد هو المجيء بمرشح تسوية لاعلاقة له بذلك التنافس الضاري بين الحسينية والنشاشبية ، وليس هناك من ينطبق عليه هذا الشرط سوى خديجة . وقد وافقت السيدتان المذكورتان على الفكرة وهما مستعدتان للتنازل عن رئاسة الفرع لصالح خديجة .

كان الرجاء واضحاً في عيني وصوت الست الفت . المرض والعمر

أجبراها على التخلي عن الرئاسة . لكن ذلك لم يعن أبداً أنها تخلّت عن الفرع وعما يعنيه لها . نذرت نفسها أكثر من أربعين عاماً للاتحاد ولنساء عكا . وخديجة تعرف أكثر من غيرها مقدار ما تعرضت له من معاناة وعذاب ومشاكل وإهانات واتهامات قبل أن تنجح في إخراج وليدها ، بكل ما في الكلمة من معنى ، إلى النور . أقل تهمة وجهت إليها كانت انها عاهرة وأن الفرع هو ستار لبنات الهوى ، في بعض القرى رجموها بالحجارة وأطلقوا الكلاب في أثرها . في خربة الراعي كادوا يغتصبونها لولا أن انقذها الشيخ موسى ، ذكره الله بالخير وأمدّ في عمره . قالوا انها ربيبة الشيطان وعميلة الانكليز ويهودية . وحتى الآن لا يزال هناك رجال يبصقون على الأرض ما أن يروها ، ولا تزال عكا تتندّر بقصة الهجوم الذي تعرضت له الصيف الماضي عندما أقدم أبو زليخة على اعتراضها وتمزيق ملابسها بحجّة أنها المسؤولة عن هجر امرأته له . . حرمها الله الأبناء فوجهت كل حبها وحنانها الى الفرع . لو أنها انجبت أطفالاً حقيقيين لما رعتهم وأحبتهم بقدر مارعت وأحبت اتحادها . إن سهمها الأخير ، في ضوء ما يجري ، هو خديجة الصالح .

هل هو الحلم يتجدد ، وهل هي الفرصة التي حسبتها ضاعت إلى الأبد تطرق بابها مرة ثانية ؟ لكن هل هي قادرة على تحمّل عبء هذه المسؤولية حالياً ؟ أمور كثيرة تغيرت في عكا وفي حياتها خلال السنوات الست الماضية . المخاوف التي تتحدث عنها الست الفت هي نفسها التي تهمس لها بأن تقول لا . هل ستكون رئيسة فعلية للفرع أم ستاراً مرتهنا للصراع بين السيدتين المحترمتين صباح وعليا ؟ . الخلاف بين الفئتين يتسع ويزداد حدة ، بل انه احيانا ينتقل الى الشوارع يخلّف عدداً لا بأس به من الاصابات بين صفوف مشايعي الفريقين . . فما مصلحتها في ذلك كله ؟

لكن الست الفت عرفت كيف تحاصرها . هي لم تأتها بمكسب مادي ومعنوي ، وانما جاءت تطالبها بأن تقوم بواجبها وأن تضحي من أجل الاتحاد وعكا وفلسطين . لو كان هناك غيرها لما فكرت فيها . بعد غير قليل من الأخذ

والرد طلبت خديجة مهلة للتفكير . قلّبت الأمر على أوجهه كافة . قالت للعمة ازدهار ان لعابها يسيل كلما فكرت أنها ستصير رئيسة الفرع . لا تستطيع أن تنكر أن هذا كان ، ولا يزال ، وسيظل حلماً يراودها في صحوها ونومها . واذا كانت الظروف قد أضاعت هذه الفرصة من يدها ، فإن الوقت حان لتستعيد ما هو حق من حقوقها ، وما هي أكثر نساء عكا أهلاً له

أثارت القضية العائلة كلها . نقلت لها العمة ازدهار أن أباها يتمنى لها التوفيق والنجاح . . وحده أحمد النجار أبدى بعض المعارضة . تحدث عن محاذير لا يجب أن تتجاهلها . قال انه من الصعب أن تنجح في تحقيق شيء في ظل الأجواء الراهنة . وكونها غير محسوبة على أحد الطرفين يعتبر نقمة لا نعمة . فالمرأتان ستقفان لها بالمرصاد تتجاذبانها وتحاول كل منهما توجيهها حسب رغبتها ، فإن عارضتهما ستضيع ، وإن سايرتهما ستضيع ؟ .

ـ تتكلم وكأني ذاهبة إلى الحرب . هل نسيت انني خديجة الصالح ؟ .

بعد يومين أبلغت الست الفت موافقتها ، وانطلقت في حملتها الانتخابية . وضعت لها الست الفت برنامجاً حافلاً أخذ بعين الاعتبار أهمية تجديد شبابها الاتحادي بعد انقطاعها الطويل . زارت معظم قرى القضاء ، وعقدت سلسلة من اللقاءات والاجتماعات النسائية ملأت عليها وقتها من الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة من الليل ، فلا تعود إلا مرهقة تعتذر من زوجها وعمتها وأولادها تحدثهم عما مر بها وتشاركهم طموحاتها ومشاريعها وأفكارها . راحت شيئاً فشيئاً تستعيد شخصيتها السابقة القوية الواثقة المصممة المرحة اللاذعة الضاحكة المنطلقة . أكدت لأحمد النجار أنها ستمضي قدماً فيما بدأت به . المدعوتان صباح وعليا ليستا إلا امرأتين فارغتين مدعيتين لن تستطيعا الوقوف في وجهها والسيطرة عليها . . هي ، خديجة الصالح ، ستصبح الرئيسة الفعلية للفرع لا رئيسة التسوية والحلول الوسط . لقد بدأتا تفهمان هذه الحقيقة على ما يظهر ، وراحتا تراجعان حساباتهما ومواقفهما ، لكن سبق السيف العذل . الاتحاد سيستعيد في عهدها فعاليته ودوره ولن يكون أبداً مسرحاً لعرض

العضلات وتصفية الخلافات الحزبية بين الطرفين . إنه التنظيم ، والتنظيم هو القوة ، والقوة أن نكون يداً واحدة وصفاً واحداًفي مواجهة الإنكليز واليهود .

آه ياخديجة . . ها أنت ذي تعودين إلى صباك . . ها أنت ذي تواجهين التحدي بالتحدي وترفعين قبضتك تعلنين أنك قادمة . ستأتين وتثبتين أنك ابنة الصالح

وتدمع عينا العمة ازدهار لكنها تسارع تمسحها قبل أن ينتبه لها أحد . . هل ستخرج حياتهم أخيراً عن روتينها المقيت القاتل ؟ إنها منذ زمن طويل لم تشعر بمثل تلك الأحاسيس المليئة بالفخر والاعتزاز والسمو . نسيت متى كان ذلك لآخر مرة . منذ نالت خديجة شهادة المتريك ! نعم . هل حقاً مضت كل تلك السنوات بكل ما فيها ؟ ملعون هو الزمن . كأنما ما حدث لم يقع سوى بالأمس . هروب خديجة . زواجها . هجرتها إلى أمريكا . الثورة الكبرى . رضوان وزوجته اليهودية الانكليزية والمانيا . . الليدي اليزابيت وعبد العزيز وأيمن . فلسطين واليهود والانكليز . الحرب العظمى والالمان والانكليز والروس والأمريكان والملايين تموت كالذباب . أحمد المتولي يقتل يهودياً ويلجأ لعندهم ويهرب الى لبنان . هل حقاً عاشت كل تلك الأحداث وصارت في الثمانينات من عمرها ؟ كم ستعيش وتشهد أيضاً ؟ .

لكن أحلام خديجة لم تدم طويلاً . سقطت سقوطاً مدوياً مأساوياً عندما اتفقت السيدتان صباح وعليا على تأجيل الانتخابات إلى أجل غير مسمى . . لم يسبق سيف خديجة عذلها . عندما رجعت ظهر اليوم السابق للانتخابات بوجه يقطر سماً وصعدت الى غرفتها دون أن تتفوه بكلمة ، عرفت العمة ازدهار أن ما كانت لا تجرؤ على التفكير فيه وقع . كانت خديجة متماسكة وهي تبلغها بصوت مخنوق أن الأمر انتهى .

ـ لن تكون هناك انتخابات ولا رئاسة ولا ما يحزنون . . بعد أن وصلت اللقمة الى الفم ؟ . لماذا عملوا بي هذا كله ؟ لعنة الله على الفت واتحادها وعلى العمل الوطني والوطن والتضحية والنضال والنساء . اتفقوا على التأجيل منذ

يومين لكنهم أخفوا الأمر عني لمناكدتي واذلالي . أتعرفين كيف عرفت ؟ قرأت الخبر قبل ساعتين في جريدة الاتحاد . الظروف غير مناسبة الآن لاجراء أي نوع من الانتخابات . كيف لعبت الفت بعقلي ؟ هل هي التي لعبت أم انها غلطتي وغبائي وقصر نظري ؟ أحقاً حسبت انني قادرة وانني لا أزال خديجة القديمة اللعينة ؟ أتصدقين أنني نسيت نفسي . نسيت أنني تزوجت وصرت أماً لثلاثة أولاد . نسيت أنني كبرت وأن الدنيا تغيرت ، فَرُحت أتصرف وكأني لا أزال تلك البنت المحظوظة الحالمة بأن تمتلك العالم كله وأن تحبسه في كفها لتجعله رهن مشيئتها وأمرها ؟ كجني علاء الدين أفرك المصباح السحري فيأتيني طائعاً مستجيباً شبيك لبيك يا مولاي اطلب ما شئت تجده بين يديك . . وأنا ليس علي الا أن أطلب . قد لا أطلب شيئاً . اكتفي بأن أشعر أن كل شيء رهن اشارتي وعندئذ لا تعود هناك من قيمة لأي شيء ، لا المال ولا السلطان ولا الجاه ولا السعادة . أشعر اني لن احتاج شيئاً أو أحداً . بل ان الآخرين هم الذين يحتاجونني ويريدونني . آه يا ازدهار . لقد أذلوني وذبحوني . . طظ في الاتحاد وفي رئيسته .

وانهارت تبكي بحرقة . عانقتها العمة ازدهار وبكت معها تهدهدها وتناشدها أن تتمالك نفسها وتسيطر على أعصابها . معها حق . طظ في الاتحاد وفي رئيسته وفي رئاسته أيضاً .

بعد عدة أيام ، وهي تعود الست الفت ، عرفت ازدهار القصة كلها . عندما وصلت الست الفت الى الاتحاد صباح ذلك اليوم التعيس وجدت القيامة قائمة بين خديجة وصباح . أكثر من مرة كادتا تمسكان بخناق بعضهما لولا تدخل السيدات الموجودات . تهجمت خديجة على صباح بقسوة وقالت انها وعلياء لا تخربان فقط الاتحاد لمصالحهما الأنانية الحقيرة وصراعاتهما التافهة بل هما تخربان فلسطين . عندئذ فاجأتها صباح ، كما فاجأت الجميع ، بالقول أن الاتحاد سيخرب اذا ترأسته امرأة لها ماضي خديجة التي لم ينس أحد أنها هربت من بيت أبيها وغابت ثلاثة أيام تشـ . . الله وحده يعلم مع من .

وأسبلت الست الفت أجفانها متحرجة عن ذكر باقي الكلمة البذيئة التي قالتها صباح . .

شعرت العمة ازدهار بنياط قلبها تتقطع وهي تحاول أن تتخيل المشهد المريع وردة فعل خديجة . . تنازعتها مشاعر الشفقة والغيظ ولم تطلب من الست الفت مزيداً من الايضاحات ، ولا فتحت الموضوع مع خديجة .

صعب أن تتخلصي من ماضيك يا ابنة أخي المسكينة . لكم هي لئيمة عكا عندما تقرر أن تكون لئيمة . لم تنس بعد، أو هي نسيت لكن اوراقها القديمة مرمية دائماً في زواريب الماضي المهجورة مباحة لمن هب ودب يستخرج منها ما يشاء لخدمة مصالحه ومأربه . هل كانت خديجة بحاجة الى تلك التجربة المريرة الآن ؟ من أين تأتي ابن آدم المشاكل والمصائب ؟ .

لم تتوقف حياة خديجة عند تلك المحنة طويلاً . واساها ، يقولون ، التعاطف الذي أبدته كثيرات من عضوات الاتحاد . ساعدتها الزيارات العديدة التي تلقتها من سيدات عكا على التخلص سريعاً من حالة الاكتئاب والاستسلام . وللمرة الأولى في التاريخ ، يزعمون ، لم تتوقف عكا كثيراً عند تلك الحادثة ، بل هي لم تظهر أدنى اهتمام بها ، وكأنها كانت تعرف مسبقاً أن تلك الانتخابات ليست الا فقاعة صابون ، أو كأنها لم تكن في حالة تسمح لها بأن تهتم ، فهناك قضايا أكثر مصيرية تشغل فكرها وترميها في دوامات من القلق والضيق والترقب لها أول وليس لها آخر

وكان أن قطعت خديجة الصالح ، غير آسفة ، كما لاحظوا ، علاقاتها مع الاتحاد ، وانسحبت نهائياً من الحياة العامة مكتفية بأن تكون الزوجة والأم وربة البيت فقط . .

في الشهر الأخير من ذلك العام توفيت الست الفت ، كمداً وحسرة كما أكدت خديجة . مرّ موتها مرور الكرام على الصعيد العام فلم يشترك في تشييعها سوى أقاربها وبعض الأصدقاء . دفع الغضب خديجة الى تدبيج مرثية أدبية راقية تنعى فيها الراحلة وتعدد مآثرها ودورها النضالي منذ مطلع القرن . أرسلتها إلى

صحيفة العرب المقدسية فنشرتها في مكان بارز بصفحتها الأخيرة ، وفي نهايتها تعقيب من المحرر ينتقد الجحود والنكران اللذين تعرضت لهما الست الفت بالرغم من كل ما قامت به في مجال تحرر المرأة الفلسطينية والدعوة الى تحطيم الأغلال التي رسفت فيها طويلاً .

ـ على الأقل أعدت بعض الاعتبار للمرحومة .

قالت خديجة لأحمد النجار وهما يتسكعان ذات أصيل على الشاطىء تحت رذاذ مطر ناعم لم يكف عن الهطول منذ الليلة الأولى للعام الجديد . كانت وشوشات البحر للرمل أعلى من المعتاد ، وغير بعيد ، على الطريق الساحلي الذي يجري توسيعه ، انتصبت الدبابات الانكليزية بأبراجها السوداء كالنواطير تفزع نوارس وناس عكا ، وفي غبش الأفق البعيد تجمعت الغيوم السوداء تعكس ، كما فكر أحمد النجار بينه وبين نفسه ، نيران الحرب الضارية المشتعلة بين أقصى العالم وأقصاه . أو ربما هي أرواح قتلى تلك الحرب لم تعثر لنفسها على مكان في الأعلى ، فانتظمت في مظاهرة احتجاج صامتة !

ـ ١٨ ـ

نيويورك ١٠ـ٢

فاجأتني جاكي بقرارها انهاء العلاقة بيننا . لم تحاول أن تعطيني مبرراً وسبباً . لا تشعر أنها مطالبة بذلك . قالت أنها اكتفت وتركتني في ماكنة لحمة تفرمني المرة تلو المرة بسادية مفرطة . . حاولت أن اتظاهر بالتحضّر واللامبالاة . اوكي . . لا مانع عندي . . إلى ستين جهنم . يجب أن أشكر ربي أنها وضعت حداً لها قبل أن أغرق في المجهول . ذهبت كما جاءت ، وحان الوقت لأستيقظ من ذلك الحلم أو الكابوس .

لكني أكذب على نفسي إذ أتوهم أنني سأرتاح وانني قريباً أستعيد توازني وطبيعتي . اكذب على نفسي إذ أتجاهل رغبتي القاتلة في رفع السمّاعة ومناداتها أن تأتي . ما أهجس به هو الوحشة القاتلة التي تنتظرني إذ لن تكون هنا لتملأ ليلتي

تلك والليالي القادمة بحضورها الطاغي وصخبها المجنون وجسدها الافعواني يقودني الى الشجرة المحرمة لأهتك الستر عن كل احلامي الواعية واللاواعية ، الطبيعية والشاذة . أحاول التخلص من تلك الحمّى النيويوركية التي لا بد وأن تصيب كل عابر سبيل يقبع فيها دون ماض ولا حاضر ليتحول من مجرد رقم نكرة إلى مهووس بأن الله لم يخلقه إلا ليجسّد به الكمال الانساني .

أمسك نفسي عن الركض إليها صارخاً أن ترجع . ما قالته ليس إلا نكتة سمجة لا يستطيع عقل أن يهضمها . أنا هو اليوم ، الساعة ، اللحظة ، لا الأمس ولا غدا ، فالأمس وهمٌ انقضى وغدا وهمٌ سينقضي . أما الحقيقة فهي الآن . هي الشبق العارم الذي لا يرتوي في ممارسة فعل الوجود والخلق ، إنصهار جسدين ما وجدا إلا لينصهرا

كيف يتصرف ديب لو كان مكانك ؟ ماذا يفعل الآن في سجن الفارعة في قبضة اليهود وتحت رحمتهم ؟ هل كان يخرف عبد المعطي ؟ أقسم مئة يمين مغلظ انه سينتحر قبل أن يتيح لهم فرصة الامساك به . هو هرب إذ خشي أن يقع فلماذا رجع ؟ أين الأجوبة ؟

ـ لا تحب اليهود ولا تضع نفسك تحت رحمة امرأة . انظر إلى أمك كيف تسوق أباك وتسوقنا على هواها . . جبّارة

وحقدت عليه . . كنت تعشق خديجة ولا تتصور أن في العالم شخصاً في عظمتها وروعتها ونبلها . . لكنك تكتفي بالاستماع الى تحامله دون أن تجد في نفسك الجرأة لتصرخ فيه أن يخرس .

ـ نهرب من مَن وإلى من . من أين والى أين ؟ اليهود أمامك والعرب وراءك . . حي على الجهاد حي على الفلاح .

عندما يضعون السكين على بعض عنقك في تلك المنافي وينحرونك في ليلة ايلولية ليتخلصوا من دمائك الحمراء الفاسدة التي تهدد نبلهم الأزرق ، وعندما يستصرخون نخواتهم المتبادلة لاختراع المصول الناجعة في القضاء على وبائك ، فإن الحل يصبح معروفاً . العالم لن يعرف الستاتيكو إلا بالانتهاء

منك . لا مفر من أن تكون الضحية التي تفدي الآخرين ، المشردين والخائفين من التشرد ، المطمئنين والخائفين ألا يطمئنوا ، الاغنياء والخائفين من الفقر ، الحاكمين بأمرهم والخائفين من أن يُحكموا بأمر غيرهم .

ـ أم توفيق ماتركت ستراً مغطى على أمك بعدما تخانقوا على منشر الغسيل . فتحت باب دارها وراحت تردح وتقول انه ما كان ناقصها إلا خديجة الفاجرة الشرموطة التي فضحت عكا بفضيحتها ، وأبوك لو كان رجال بحق وحقيق ما كان تزوجها وستر عليها ولا كان تركها تحرق البيت ليدخل السجن وتفلت هي على حل شعرها ! انسطلت أمك وجمدت بأرضها . ثم هجمت عليها ونزلت فيها ضرب حتى خفنا من أن تموّتها . تدخل الجيران وصالحوا المرأتين . ومن يومها صارت أمك وأم توفيق مثل اللبن على العسل .

عندما كبرت وحان الوقت لتسأل أم توفيق عن تلك المزاعم حول خديجة كانت قد رحلت إلى عمان لتلتحق بزوجها ، وما كان هناك أحد تجرؤ على سؤاله . حتى ديب الثرثار ، الذي شعرت بأنه يعرف شيئاً أو أشياء ، أطبق فمه باحكام . . هو بالتأكيد عرف القصة من أم توفيق التي اعتادت أن توليه اهتماماً خاصاًوترحيباً حاراً وتتبادل وإياه النظرات المريبة التي ظلت طويلا محفورة في رأسك وهو يرشوك بخمس ليرات لتأخذ توفيق الى السينما لحضور فلم الفرسان الثلاثة .

أخرج أقود سيارتي في شوارع تبدو لا نهائية . . . أنساب فيها انسياب الدم في العروق خائفاً منها ومن مفاجآتها . غريباً بين غرباء ، وحيداً بين وحيدين ، مستوحشاً بين مستوحشين ، قلقاً بين قلقين . أفكر بذلك اليقين الذي كانت عليه أمي ، أو على الأقل كانت تتظاهر به . افتقد وضوح الرؤيا فأكتفي بصور متلاحقة خلت من التفاصيل والمعاني .

اليقين الوحيد هو الشعور بأنك هارب لا تدري إلى أين ، بل الى لا أين ، تعيش في تلك الاسرائيل وتاتي إلى تلك النيويورك ، تحلم بتلك الفلسطين وتخون هيفاء فتتفجر فيك تلك الومضة التي تبعثرك قطعاً لا نهائية . تأكل وتشرب

وتنام وتضاجع وتظل فلسطينياً . لم تعد فلسطين وطناً وهوية بقدر ما صارت جلداً يميزك ولوناً لا تستطيع له تغييراً . أنت كذلك الرمح ذو النصل المزدوج المقدس . ستظل متفرّداً عن غيرك كما أن غيرك متفرد عنك ، ستظل مطارداً هارباً ، وستظل أنت الذي لست بأنت . مع جاكي نسيت ذلك الهندي الأحمر ، ما فائدة تذكره الآن ؟ .

يجب أن أعود الى عكا . صدر الحكم على أحمد النجار الحفيد وزميليه بالسجن عشر سنوات خمساً منها مع وقف التنفيذ . سيستأنفون الحكم بالطبع . لم ترو رسالة هيفاء غليلي . لن يصدر مثل هذا الحكم القاسي دون أدلة دامغة . الجيروزاليم بوست تقول أن عشرة أحكام صدرت خلال الشهر الماضي ضد عرب اسرائيليين في عكا وحيفا والناصرة بتهمة القيام بنشاطات معادية . . يبدو أن الجنون يتفاقم الى درجة أنه أصاب عزت نفسه . عندما اتصلت به للتخفيف عنه وشدّ أزره قال انه سيجعلهم يندمون على الساعة التي أقاموا فيها دولتهم المسخ . عندما حذرته بأن الهاتف بالتأكيد مراقب صرخ « طظ » . . وماذا سيفعلون أكثر مما فعلوا ؟

ليلة سفري اجتمعت العائلة لوداعي قال عزت لابنه 89 عليه أن يستفيد من وجودي في أمريكا ويقرر مواصلة دراسته الأكاديمية فيها . اكتفى أحمد بأن أجاب أن الوقت لا يزال باكراً على ذلك الأمر . حسبت أنني أسدي معروفاً لكليهما عندما رحبت بالفكرة ووعدت أن ابذل جهدي لمساعدته على تحقيق تلك الرغبة ، لكن أحمد النجار الحفيد فاجأنا كلنا عندما قال بتحد انه لا يفكر في مغادرة فلسطين ، ولا بالدراسات العليا ، فشهادة المهندس الزراعي تكفيه وزيادة ، وهو لا يريد من أحد أن يفكر ويقرر عنه . لو كنا فالحين لعرفنا كيف نفكر ونقرر لأنفسنا أولاً

حاولت أن أخفف من وطأة قلة أدبه بالمزاح . لكن عزت امتعض وراح يؤنبه بقسوة . تكهرب الجو وكادا يتلاسنان لولا أن تدخل أبي يطلب من عزت أن يهدأ ومن أحمد أن يزن كلماته قبل أن يلقيها على علاتها . اعتذر هذا الأخير بجفاء

ثم تذرع بأنه مرتبط بموعد، وغادرنا . قبيل منتصف الليل رجع . رفض أن يدخل ووقف عند الباب وقد بدا عليه غير قليل من الارتباك قبل أن يقول بصوت هادىء واثق مجيلاً نظراته بيني وبين هيفاء .

ـ أبي لا يريد أن يفهمني ، وربما أنا الذي لا أريد أن أفهمه . تشاجرنا أمس واول أمس ، وسنتشاجر غداً وبعد غد . يصعب عليه أن يدرك انني كبرت وصرت قادراً أن أقرر بنفسي وأن أميز بين الخطأ والصواب . يعتبر أن كل ما افكر به وأقوله وأفعله غلط في غلط . يريدني أن التزم صراطه المستقيم لا أحيد عنه قيد أنملة . ممنوع أن أسهر خارج البيت ، ممنوع أن أرافق محمود وبقية الشلة ، ممنوع أن اكره اسرائيل ، ممنوع أن أحلم بفلسطين ، ممنوع أن أتورط في مشاكل العرب واليهود بالجامعة . أكاد افقد عقلي لكثرة ممنوعاته . لا أنكر أنه عانى وتعذب وخاف وأنذلّ ، وانه لايريدني أن أعاني واتعذب وأخاف وأنذلّ . لكنه ينسى أن تعاملي مع خوفي وذلّي غير تعامله هو . تعوّد الرضوخ أما أنا فلن أرضخ . يخاف أن أتورط لذا يريدني أن أترك كل شيء وأرحل . لكنه يخطىء . امريكا ليست هدفي ولن تكون أبداً . جئت لأعتذر عما بدر مني في المساء . لم أكن أنوي الاساءة لأحد . أردت فقط أن اضع حداً له بعد أن طفح كيلي ، أن أجرح شعوره كما يجرح شعوري . أنا نادم الآن . لقد تجاوزت حدودي . هو أبي ، احبه كما أحبكم كلكم . سيأتي يوم يعرف فيه اني لا اعارضه حباً بالمعارضة ، وأن ما افكر فيه وأريده ليس بالضرورة خطأ وأن آخر ما اريده هو أن أسبب له الشقاء والتعاسة . قد تكون مشكلتنا أن كل واحد منا يعتقد أنه على صواب والثاني على خطأ .

هل كان أحمد النجار الحفيد يعرف أن مصيره سيكون ما صار عليه ؟ هل بحث لنفسه عن هذاالمصير بالرغم من إدراكه أنه لن يحقق غيره في ظل الواقع الذي نعيش ، أم حسب انه حقاً قادر على أن يفعل شيئاً ، وأن ما يفعله هو قدره المرسوم فسار في طريقه غير آبه بشيء ، ولا نادم على شيء ؟ .

أظن أن الوقت حان لتقديم استقالتي . سيرحبون بها فالخطأ الذي

ارتكبته كلف الشركة ثلاثين ألف دولار على حد زعمهم . لكن الاستقالة ستحرمني من أي تعويض ، أما اذا اقالوني هم فيحق لي راتب ستة أشهر . كم تبدو تافهة وسخيفة تلك القضية الآن . لكن لا أستطيع الا أن أخذها بعين الاعتبار ، فأنا لم أوفر حتى الآن قرشاً ولا أتصور أن أعود إليهم خالي الوفاض ؟

انها ليست سهلة أبداً عودتي . اتساءل أحياناً ان كنت فقدت صوابي . الدخول الى أمريكا ليس كالخروج منها ، ماكان يجب أن آتي دون هيفاء . هذه هي غلطتي الكبرى . أتخيل أبي يقول لها بثقة انني عائد ، أفلم تلاحظ أنني لم أعد الح عليها لموافاتي ؟ سيعتبر ذلك الدليل الأكيد على انني لم أستمرىء الحياة هنا . لكن هيفاء تعرف الحقيقة . تعرف أن هناك امرأة أخرى . لماذا أنا واثق من ذلك ؟ ليس السبب هو انطفاء الحرارة في رسائلي واتصالاتي وعجزي عن سبك مشاعر الشوق والحنين . فلا يمكنني أن أكذب وأنا للتو غادرت أحضان جاكي وللتو سأعود إليها . هناك شيء لا أفهمه هو الذي يجعلني أثق . لابد وأن هناك حاسة سادسة عند المرأة . هي أيضاً خفّت تلك الحرارة التي كانت تعانقني بها عبر الأسلاك . العواطف صارت جافة والكلمات تقريرية . نختصر المكالمة وكأنه لم يعد هناك ما يتناجى به محبان تفصلهما آلاف الأميال . . وأشعر بالحنق والسخط واليأس .

تنتابك أحياناً رغبات مجنونة في أن تتخلى عن كل شيء وتنضم إلى أولئك المشردين في نيويورك السفلية ، تفل المدينة . تسمع عنهم وتراهم في الأفلام لكنك لا تلتقيهم في الواقع أبداً . تنضم اليهم لتضيع في زحمة وحثالة عالمهم الذي يزعمونه بشعاً مريعاً لا أخلاقياً ، البقاء فيه للأقوى والأشرس والأنذل والأسرع في القتل . تهرب من وحدتك الى جاكي ، ومن جاكي إلى هيفاء ، ومن هيفاء الى أحمد النجار الحفيد ، ومن أحمد النجار الحفيد الى فلسطين ، ومن فلسطين الى ديب ، ومن ديب الى نيويورك ، ومن نيويورك الى وحدتك . الدولاب لا يتوقف عن الدوران ، وأنت لا تستطيع الاحتمال أكثر

هو الليل في منتصفه وهأنذا قرب منزل جاكي . أزعم لنفسي أنها صدفة

غير مقصودة . اوقف السيارة وأنتظر . السكون مخيم تماماً والأضواء تسمح لي بمراقبة أية حركة على امتداد الشارع . نافذتها مضاءة . هي بالتأكيد نائمة . لا تستطيع أن تنام في الظلام . وفجأة ينتابني الخوف . خوف أن يداهمني متشردون ولصوص يخرجون لا أدري من أين . خوف أن تفاجئني دورية شرطة تسألني ماذا أفعل هنا ، وخوفي من نفسي أتأكد أن أبواب السيارة مغلقة باحكام وانني أستطيع الانطلاق في اية لحظة .

هل تذكر ذلك الملاك اليهودي الذي اسمه راشيل؟ كنت في عز مراهقتك عندما عشقته بجنون . كيف وقعت في هواها ، بل كيف جرؤت أن تعشق يهودية ، أن تغرق في عالمها الغامض المحرم؟ لم يمنعك صدها اللطيف لكن الحازم من أن تزداد هياماً . أدمنت اللحاق بها كظلها تشبعك النظرة وتتخمك الالتفاتة وتثيرك البسمة وتبني قصور أحلامك لطلّة منها . رابطت لها بين البيت والمدرسة ، بين البحر والجبل . تحولت إلى صعلوك يتسكع على كورنيش عينيها الزرقاوين الناعستين . كتبت لها الأشعار المجنونة بالعربية والعبرية . ثم نفذ صبرها ، وفاجأك أخوها المتدين ذات يوم يعترض طريقك ويأمرك بصرامة أن تبتعد عن أخته محذراً من اجراءات قاسية ضدك إذا حاولت ازعاجها ثانية . تركك مبهوتاً لكنه سرعان ما رجع يسألك :

ـ أنت عربي ؟

وتشعر بالخوف الحقيقي . تبتعد وكل ما في العالم من لعنات ينهال على رأسك . ممنوع أن تحب لأن للحب شروطه الاجتماعية الصارمة .

ـ لا خبز لنا مع اليهوديات . حدودنا معهن هي المواخير . انها كثيرة والحمد لله . أقلّه تأمن شر السفلس . لكن الخازوق هو عندما تكتشف أن القحبة عربية . . أنت لا تزال جديداً على المهنة . لكنك بالعمر والخبرة تستطيع أن تفرّق بينهما .

هو ديب الذي انتبه لك . كان كالقط المتحفز لأقل اشارة . لاحظك محاصراً منقبضاً مكتئباً تحاول اغراق يأسك واحباطك في روايات المنفلوطي

وأهات المحبين فجاءك يربت على ظهرك مواسياً مشجعاً .

ـ إلى متى سيبقى أخي الصغير قطة مغمّضة لن يعرف المرأة إلا بالزواج ؟ . شاربك نبت وحان وقتك .

وأخذك الى فيوليت تفض بكارتك وتنسى راشيل بخمسين ليرة سرقها من درج أبيك .

هأنذا اليوم بعد عشرين عاماً في الايست سايد انزوي في سيارتي أراقب ذلك الضوء الخافت في تلك الغرفة الجانبية ، تماماً كما لو أنني لا زلت في حي هرتزل ، أستعيد ذات المشاعر الغبية ، اكرر مراهقتي الصبيانية .

ـ المراهقة هي تلك المرحلة الممتدة بين بلوغ الانسان وممارسته الجنس .

أستمتع بمخاوف القلق : أخجل من نفسي لكن لا شيء يمنعني من أن أحلم بتلك المرأة بين ذراعي . . أنسى هيفاء وديب وأحمد النجار الحفيد ، ولا يعود في العالم كله سوى ذكر وأنثى يلتقيان في لحظتي الكينونية والانبعاث .

وتتكثف حياتك هنا . ثلاثة وثلاثون عاماً كما اللحظة . تمر شريطاً سينمائياً بمقاطع رئيسية . . الفلسطيني تسحقه دبابة انكليزية بلا مبالاة مرعبة . جنود الانتداب بسراويلهم القصيرة يتجمعون في السفن يرفعون شارات النصر ويلوحون بأيديهم مبتهجين ، تلوح لهم بدورك وقد انتابتك مشاعر متناقضة من الوجل والارتياح . . البيت يحترق . النار تلتهمه بضراوة ونشوة . خديجة تضمّك وتعتصرك بقوة وإصرار . الناس يتجمهرون وسيارات الاطفاء تولول عاجزة . أبوك وأوامره الصارمة بأن تخرسوا . السجن . ديب . هيفاء . موت خديجة . نيويورك . الرمح ذو النصل المزدوج المقدس . جاكي .

قليلاً ما كنا نأتي على سيرة احراق البيت . ونحن نغادر قسم الشرطة صباح اليوم التالي تاركين أبي لمصيره المجهول حذرتنا أمي مجدداً من أن نخطىء ونقول شيئاً أمام أحد . البيت احترق قضاء وقدراً . هي بالتأكيد شعرت بالذنب إذ رمت أبي في مأزق لا بد له فيه وجعلته ، بالأحرى أرغمته أن يتحمل نتائج عملها .

ـ كان أحسن لو قلنا الحقيقة . كان يمكن أن أنال حكماً أخف لكن أحمد ما كان قبل بهذا .

لماذا لم يكن ليقبل ؟ رأيت ، بالأحرى رأى ديب واقتنعت أنت ، أن صمتها عن الموضوع كان دليلاً واضحاًعلى تأنيب الضمير الذي أصابها . النتيجة الوحيدة التي خرجت بها كانت في زج أبيك ثلاث سنوات في سجن عكا ليتخرج على أيديهم مواطناً صالحاً مستقيماً . سألتك هيفاء ذات مرة مازحة إن كنت تفعل ما فعله أبوك ، تدخل السجن بدلاً عنها ؟ فضلت أن تكون صريحاً وقلت لا لماذا لم تتحمل خديجة إذن مسؤولية عملها ؟ هي التي أحرقت البيت وهي التي يجب أن تُسجن لا أحمد النجار . سؤال مؤرق رميتموه وراء ظهوركم . . قلتم انه موضوع خاص بأمكم وأبيكم ، وانهما حرّان في أن يفعلا ما يعتقدانه الصواب . كان مستحيلاً أن يسمح بأن تدخل خديجة السجن . هل هو الحب ، أم مسؤولية رعايتكم ، أم أن الأمر لم يخرج عن اطار أنه رجل وهي سيدة ؟ جنتلمانية العصور المنقرضة ! عندما تساءلت خالتك سعاد بعد ساعة من وصولها إلى عكا ، عما حل ببيت الصالح ، كان أبوك هو الذي سارع يجيب :

ـ أحرقته خديجة حتى لا يأخذه اليهود .

بعد أن سمتْ القصة كلها استدارت الى خديجة تقول لها :

ـ أنت مجرمة . . إلى متى سيظل أحمد يدفع ثمن تصرفاتك المجنونة ؟ .

فرد عليها أحمد :

ـ لو لم تحرقه هي لحرقته أنا .

كأن الحريق وقع بالأمس وليس قبل سبعة وعشرين عاماً . كم هي مستعجلة الأيام في انصرامها . النور في غرفة جاكي يجذب نظراتي فتتمغنط فيه وتنعكس لهيباً يتراقص دون حرارة وحياة . شبح نار من ذلك الماضي الأزلي .

تظهر سيارة في المنعطف . تتوتر أعصابي وأهز رأسي أصحو من تلك الوهاد البعيدة . انطلق بسيارتي متمتماً بكلمة وداع شبه مسموعة .

لو أظل أسوق الى أن أصل ذلك الوطن البعيد وأولئك الناس الذين بهتت

ملامحهم . . أسوق وأسوق الى أن يفاجئوني في أحد المنعطفات يلوحون لي . . هيفاء وديب والأحمدان وعزت وجاكي وأنا . أسوق الى ما لا نهاية . . الى لا شيء .

- ١٩ -

عام ١٩٤٥ ، والحرب العظمى الثانية تضع اوزارها ، شهد بيت الصالح سلسلة من الأحداث الحافلة ، بعضها بفرحه وبعضها بترحه ، خرجت معها العائلة من دوامة الحياة الروتينية التي امتدت طيلة سنوات الحرب .

في شهر نيسان من ذلك العام عاد أيمن الصالح ترافقه زوجته المصرية وأطفاله الثلاثة . قام البيت وقعد احتفالاً بهم . هي ثماني سنوات كاملة مرت على غياب ذلك الابن العاق دون أن يتذكر أهله سوى برسالة واحدة ، كما قال فارس الصالح وهو يعاتبه ، دون أن يخفي سعادته وانشراحه . لكن حجة أيمن كانت جاهزة ، فالحرب اللعينة لم تكن تسمح بمرور أية رسالة .

لم تكن زيارة أيمن دافعها الشوق لرؤية أبيه والعائلة والوطن فقط ، فقد جاء ينوء تحت مشكلة عويصة هي زوجته ذات الوجه الطفولي الجميل ، لكن البدينة جداً كالبقرة . وبدانتها بدأت مع الطفل الأول واكتملت مع الثالث ، وقدّروا وزنها ، عندما وصلت عكا ، بمائة وعشرين كيلو غراماً شحماً ولحماً دار بها على كل أطباء مصر ولم يصل الى نتيجة ، فنصحه بعضهم بأن يراجع اخصائي أمراض الغدد المشهور في تل ابيب ، الدكتور اليهودي الالماني كاستر . بعد أسبوع ترك أطفاله في عهدة العمة ازدهار وأخذ امرأته الى تل أبيب حيث غاب عشرة أيام وعاد دون أية نتيجة أيضاً . كان وضعها يثير الشفقة بقدر ما يثير الدهشة والسخرية ، وكذلك وضع أيمن الذي بكى غيظاً وهو يضرب كفاً بكف متسائلاً ماذا يفعل . بعد عدة أيام بدا أنه عثر على حل . أعلن أنه سيرجع الى مصر فوراً ، وطلب من العجوز أن يمده بمبلغ من المال يستعين به على تنظيم أموره هناك .

قالوا انه كاد يغمى على فارس الصالح ، أو يصاب بنوبة قلبية ، عندما سأله كم يريد فحدد المبلغ بخمسة آلاف جنيه فلسطيني . العمة أزدهار ، التي حضرت المقابلة بطلب من أيمن لتكون ظهيرا له في اقناع العجوز بتلبية طلبه ، صفّرت لأول مرة في حياتها على حد زعمها ، وغمت لا إرادياً :

ـ غير معقول

كانت تعتقد أنه إذا اشتط كثيراً فلن يطلب سوى عدة مئات من الجنيهات . أما فارس الصالح ، وبعد أن استعاد توازنه ، فقد قهقه بسخرية وكأنه سمع نكتة . قال لابنه ان ما يطلبه مستحيل. لكن أيمن كان مصممًا على أن يحصل على أكبر مبلغ ممكن ، فراح يتكلم بصراحة دون كثير لف ودوران . له ثماني سنوات بعيداً عنهم لم يكلف خلالها والده ملأواحداً .إنه الآن لا يريد سوى بعض حقوقه ، مثله مثل خديجة لا أكثر ولا أقل . البنت حصلت على أرض الكفر ، وأبوه حر في قراره ، لكن الصبيان أيضاً لهم حقوقهم ، ومن الأفضل أن يحصلوا عليها في حياة أبيهم ، بخاصة اذا كانوا في أمس الحاجة إليها ، مثله . إن متاعبه وضيق ذات يده ومسؤولياته الكبيرة بالزوجة المريضة والأطفال الثلاثة ذوي الزغب لا تترك أمامه سوى خيارات محدودة . وكشف أمام أبيه ما اعتبره كل أوراقه . اعترف أن كل ما زعمه حول وضعه الجيد وبحبوحته وأعماله الممتازة كذب في كذب . الحرب جمّدت كل النشاط الفني المحترم في مصر ، ووجد نفسه عاطلاًعن العمل خالي الوفاض يكاد يموت جوعاً . لم ينقذه سوى زواجه من زينات ، ابنة ممثل مغمور احتضنه وأواه عدة أشهر قبل أن يطبخ طبخة الزواج . طلب ، وكأنه كان يتنبأ بمرضها ، جنيهاً واحداًمقدماً ، لكنه حدد المؤخر بخمسمئة جنيه مصري عداً ونقداً . . أراد أن يربطه بها طوال عمره . وهو لولا المؤخر والأطفال كان طلقها وارتاح . الآن ليس أمامه إلا الطلاق . اتفق مع والديها أن يرعياها والأطفال مقابل الفي جنيه يدفعها لهم سلفاً . هل يريده أبوه أن يترك اولاده للفاقة والجوع والتسول والمصير المجهول ؟ إنهم احفاد فارس الصالح

بدا على العجوز أنه لم يصدق حرفاً واحداً مما قاله أيمن . تبادل النظر مع ازدهار حائراً قبل أن يسأله .

ـ طيب الألفان فهمناهما ، لكن لماذا الثلاثة آلاف الأخرى ؟ .

وراح أيمن يزيّن لأبيه المشروع الخطير الذي يحلم به . الحرب ستنتهي قريباً ، ومصر ، التي لم يصبها من ويلاتها شيء يذكر ، مقدمة على بحبوحة اقتصادية لا حدود لها ، وهذا سيعطي دفعاً لكل الأعمال التجارية ، والفن على رأسها . بالثلاثة آلاف جنيه سيفتتح مسرحاً خاصاً ويؤسس فرقة مسرحية تنافس فرقة الريحاني نفسها ، بل هو اتفق مع عدد من كبار نجوم مصر ليعملوا معه ، ومنهم خيري بشارة وعلي الكسار وماري منيب .

انهمر يتحدث بحرارة وحماس وثقة عن المستقبل العريض والشهرة الكبيرة والمواهب الخلاقة التي لا تنتظر سوى فرصتها لتتفجر عطاء وابداعاً . هي مصر أم الدنيا والحضارة التي سيرفرف فيها نجم أيمن الصالح .

أصغى له فارس ، كما أسر لاحقاً لازدهار ، غير مصدّق أن هذا الرجل ، الذي يقارب الأربعين من عمره ، والذي هو ابنه ، يقف أمامه هذا الموقف المزري ، لا يعرف أيشفق عليه أم يأسف له ، يحترمه أم يحتقره ، يصدقه أم يهزأ به ؟ شعر انه يتحمل قسماً من المسؤولية ، فهو الذي دفعه دفعاً للهرب من فلسطين . لماذا لم يرجع بدلاًمن أن يبقى هناك ويتزوج ؟ أراد أن يسأله ، لكن السؤال لم يعد له معنى .

إذ انتهى أيمن ، صمت وقد تسارعت أنفاسه ، ينتظر باستجداء قرار ابيه . بعد فترة قال هذا بصوت خلا من أية عاطفة .

ـ أيام الخير راحت ياأيمن . الحرب والغلاء لم يتركا لنا شيئاً يذكر . المبلغ الذي تطلبه فوق طاقتي وأنت تعرف ذلك . كل ما أستطيعه هو أن أبيع ، غصباً عني ، حاكورة التلة لتأخذ ثمنها تدبّر رأسك به .

كانت تلك آخر قطعة أرض يبيعها فارس الصالح . أخذ أيمن ثمنها ، وكان بحدود الألف جنيه ، واختفى ثانية مخلفاً وراءه غير قليل من الحسرة

والشكوك .

في مطلع حزيران ، والعالم يحتفل بهزيمة المانيا ، زارهم عبد العزيز الصالح . هلّ عليهم رجلاً متأنّقاً يرتدي أفخم الثياب الأفرنجية لكن دون ذوق . فاحش الثراء يبذر المال ذات اليمين واليسار ، ويحمل الجنسية السعودية ، وجهاز مذياع ضخماً قالوا ان فلسطين لم تعرف مثيلاً لحداثته وقوة استقباله ، وقد اضطر الى دفع رشوة كبيرة ليستصدر ترخيصاً بحيازته . جاء الى لبنان في عمل تجاري ، ورأى الفرصة سانحة ليعرج على عكا يطمئن على أبيه والعائلة ويرى إن كانوا بحاجة الى شيء

كان قد تغير تغيراً جذرياً بحيث أنهم بالكاد عرفوا فيه الرجل الذي كانه قبل تسع سنوات . قال انه شارك تاجراً سعودياً في اقامة مصنع للعطورات في الدمام ، وان أعمالها توسعت لتشمل كل أنحاء الجزيرة والخليج ولتمتد حالياً في بلاد الشام . لكن غير قليل من النمامين الحسودين زعموا أنه أثرى من الحرب ، بل وأكدوا أنه يتاجر في السلاح ، فالعطور لا تكفي لملء جيوبه بتلك الرزم اللانهائية من الجنيهات الفلسطينية والانكليزية ، وليرّصع أصابع يديه بمجموعة من الخواتم الماسية الثمينة التي تثير الحسد حتى في نفوس الملكات .

أقام ، منذ ثالث أيام وصوله ، سلسلة من المآدب الفخمة في أشهر فنادق عكا وحيفا والقدس وتل أبيب . كان أكثرها بذخاً العشاء الخيالي الذي شهدته ردهات فندق الملك داوود في القدس ، ورصّعته الأسماء الأسطورية لكبار جنرالات قوات الانتداب وأوساط المال العربية واليهودية في فلسطين . . كلّفه ، كما زعم متباهياً وقد انتفخت أوداجه كديك العمة روحية الرومي ، ألف جنيه عداً ونقداً . . أثار ذلك بعض الشكوك في نفوس أفراد العائلة بالرغم من ادعائه أن تلك الحفلات تدخل في اطار حملة الدعاية لمنتجات مصانعه . واصطكت أسنان النسوة المذهولات ، خديجة وازدهار وروحية ، وهو يصدمهن بالقول انه بنى على سعوديتين في العام الماضي ، وسيبني ، ان شاء الله ، على رابعة لبنانية ما أن يرجع الى السعودية . فنسل آل الصالح يجب أن يملأ الكوكب . أما قصره

الفخم المنيف الذي يعيش فيه عيشة الأمراء بحق وحقيق فهو يستوعب نصف أهل عكا ، ويعمل فيه عشرات الخدم والحشم ، عين الحسود تبلى بالعمى! دعاهم كلهم إلى زيارته ، وسيستقبلهم بما يليق من تبجيل وتكريم . لولا ظروف أبيه الصحية لأخذه معه ، فالوقت حان ليحج الى بيت الله الحرام .

كانوا سيحسبونه مبالغاً منافقاً لولا تلك الرزم المالية الخيالية التي واظب على استعراضها أمامهم لا مبالياً ، ولولا تلك الشيفرولية الفخمة التي وضعها اليهودي المليونير بوتاجي تحت تصرفه ، بسائقها ، منذ زاره في حيفا وحتى يوم رحيله من فلسطين . فجأة صار البيت صالون استقبال تؤمه ، في الأيام التي قضاها بعكا ، شخصيات مهمة من جميع الأصناف والمستويات ، يستقبلهم بأبهة ويغلقون على أنفسهم أبواب الصالون ليتبادلوا الأنخاب والضحكات والهمسات والصفقات التي لم يعرف أحد نوعها . . أزعجت خديجة ، بل وأقلقتها صناديق البلاك ليبل والموسان والنابليون التي أوصلتها الى أسفل التلة شاحنة عسكرية بريطانية ونقلها الى البيت جنديان بريطانيان تحت سمع وبصر جمهرة من الفضوليين تجمعوا يتفرجون ويتهامسون . وامتلأ المطبخ برفوف من علب اللحم والكونسروة والقديد والكافيار ومآكل عرفوا بعضها وجهلوا معظمها . أمسكت خديجة لسانها إلى أن جاءها يبلغها أنه سيدعو الى عشاء ساهر في البيت عشية سفره ويطلب منها أن تشرف على اعداده وتنظيمه . إذاك بقّت البحصة . هو حر في أن يفعل ما يشاء ، ويكون من يشاء . لكن تصرفاته وعلاقاته أثارت من الأقاويل والاتهامات والاشاعات في عكا ما ليس باستطاعتهم أن يتحملوا نتائجه بعد أن يرحل ، وهي ليست مستعدة أن تزيد الطين بللاً بحفل مريب لن تحضره إلا شخصيات مريبة

تشاجرا ووصل صراخهما إلى السماء وهو يقول انها لا يحق لها أن تتدخل في شؤونه ، وأن البيت بيت الصالح لا بيت النجار لتعارضه فيما قرر وتنتقد ما يفعل لكنها عارضته تدعمها العمتان . وهكذا فرط مشروعه . ومر الأسبوعان اللذان قضاهما في عكا سريعين كلمح البصر . ما استفاقوا إلا وقد

رحل ، . بكل واقعه ووهمه وغرائبيته ، ليعود السكون الموحش يطبق على البيت كئيباً مضجراً . . كان كالعاصفة التي قلبت كل شيء رأساً على عقب وتركتهم لاهثين غير مصدقين أنه جاء وأنه ذهب .

ـ تشرذمت العائلة وصرنا غرباء لا نعرف بعضنا البعض .

قررت خديجة بعد رحيله بعدة أيام . . كانت العمتان ازدهار وروحية ناقمتين متحاملتين عليه . فمن كل ثرائه ومصاريفه الباذخة لم يصب العائلة سوى مئة جنيه فلسطيني أعطاها لأبيه زاعماً أنه لم تبق معه سيولة نقدية ، واعداً بأن يرسل لهم المزيد ما أن يصل الى الدمام . كانتا وطنتا النفس بأن يرمي لكل منهما صرة من المال على أقل تقدير . لكنه تجاهلهما وكأنهما ليستا عمتيه ولم تمضيا الليالي الطويلة في رعايته ومحبته وتلبية طلباته حتى الخمسون جنيهاً التي وضعتها العمة ازدهار في يده يوم جاءهم إبان الثورة لم يفكر بأن يعيدها لهم . اعتبرته روحية ولداً عاقاً لا يحفظ العهد . وحاولت العمة أزدهار ان تبرر الموقف بالقول ان في البعد جفاء .

وبدوره ضاع عبد العزيز في زحمة الدنيا . لم يرسل شيئاً ولم يراسلهم لا بعد شهر ولا بعد سنة . بعيد وفاة أبيه ، وقبيل النكبة ، تواترت في عكا أخبار تزعم أنه نصب على شريكه السعودي وهرب الى البرازيل تاركاً زوجاته الأربع وأولاده لمصير لم يعرفه إلا الله . إلا أن روايات أخرى ، قيلت همساً ، زعمت أن السلطات السعودية قبضت عليه لتورطه في صفقات أسلحة غير مشروعة لبعض قبائل الحجاز وأنه قابع في السجن بانتظار الحكم الذي لن يكون أقل من قطع الرأس . . لكنه كان يستحيل على أحد أن يتأكد من تلك الأنباء وأن يميز الحقيقة فيها من الاشاعة . وجاءت الأحداث المتلاحقة التي شهدتها فلسطين في ذلك الربيع المأساوي من عام ١٩٤٨ لتسدل الستار نهائياً ، كما يبدو ، على ذلك المغامر الذي غادر بيت أبيه مجاهداً وانتهى رجل أعمال مريباً غامض المصير

فتحت زيارة عبد العزيز وأيمن المجال لذكر ، وتذكر ، ذلك الغائب الأبدي رضوان . آنذاك فقط أبلغوا فارس الصالح بما لديهم من معلومات عنه .

طلاقه لليهودية الانكليزية وانتقاله الى المانيا . أخفوا عليه بالطبع ما قاله عن الليدي اليزابيت . لكن فاتهم أنه لم يكن خبراً ساراً أبداً ان يعلم أن بكره في المانيا التي انتهت الحرب بدمارها وبالموت يحصد ما لا يحصى من أهلها . تماسك العجوز ، بل وحاول أن يتظاهر بغير قليل من اللامبالاة . لكن ذلك لم يمنعهم من أن يلاحظوا أن الخبر وقع على رأسه وقوع الصاعقة . حاول أحمد النجار أن يتدارك الأمر بالقول ان رضوان أذكى من أن يبقى في ألمانيا ، وهو لا بد غادرها ما أن بدأت الدوائر تدور عليها ، لكن تخمينه ما كان مقنعاً .

قالوا أن فارس الصالح كان تجاوز الثمانين لكنه بدا وكأنه في المئة ، ليس للغضون تحت عينيه ، ولا للتجاعيد التي عربشت وجهه وحفرت فيه عميقاً ، بل لتلك النظرات الكئيبة المستسلمة الحزينة دائماً وأبداً تستصعب الفرح ، أو هي ما عادت قادرة أن تفرح ، لا ترى من الدنياسوى وجهها الكالح العابس ، فأذعنت لقدر لا مرد له .

كانت خديجة الأكثر قلقاً عليه ، لكن ما كان باستطاعتها أن تفعل شيئاً . نأى اكثر فأكثر عنهم ، قلّت نزهاته المسائية وخف ولعه بلعب الطاولة وفتر اهتمامه بالمناقشات السياسية وبمتابعة التطورات المتلاحقة على جميع الصعد في فلسطين . وجد سلوى جديدة في المذياع الفريد الذي أهداه إياه عبد العزيز . صار سميره ونديمه ومبعث متعته ووسيلته لمتابعة ما يجري في فلسطين والعالم .

بعد عدة أيام سأل العجوز أحمد النجار إن كان يظن أن هناك أملاً في أن يكون رضوان لا زال على قيد الحياة ؟ وأجاب بنفسه أن لا أمل هناك . تحدث تلك الليلة باستفاضة ، وللمرة الأولى كما يذكر أحمد النجار ، عن رضوان . تحدث عنه بحب وحرارة وحنين وندم ، عن طيشه وشقاوته وهو طفل ، عن تمرده وولعه بالنساء والقمار وهو شاب . كان يحسب أنها فورة الشباب وهيجانه المعتاد في تلك المرحلة من العمر . لكن تبين أنها طبيعة متأصلة فيه رسختها مظاهر التحرر والفسق التي حملها الى فلسطين اليهود والانكليز ، وقالوا انها الحياة التي يعيشها الناس في العالم المتمدن . عندما حاول اصلاحه كان الأوان قد

فات ، فتخلّى عنه غير آسف معلقاً آماله على عبد العزيز وأيمن . . كم هي لئيمة وابنة كلب الدنيا . وضعته في زاوية اليك بعد أن لم يعد باستطاعته اصلاح شيء أو التراجع عن شيء . . من العبث أن يندم الآن ، فهذا الشعور لن يؤدي إلا الى مضاعفة تعذيبه لنفسه . . .

في صيف ذلك العام استأنفت مسيرة العنف في فلسطين دورتها الدموية بعد الجمود النسبي الذي فرض عليها فترة الحرب العظمى . تجددت الاضطرابات بين الكل والكل كما قالوا . العرب ضد اليهود والانكليز ، واليهود ضد العرب والانكليز ، والانكليز ضد العرب واليهود ، والعرب ضد العرب .

الحدث الأبرز الذي كان له انعكاس مأساوي على صعيد العائلة تمثل في اغتيال مسعود أبو ماجد ، زوج زهرة ابنة العمة روحية . وقعت الجريمة في منزل المغدور بباب العمود في القدس أواخر ذلك العام .

كان مسعود أبو ماجد موظفاً في ادارة حكومة فلسطين ، وواحداً من أبرز أعوان المفتي ، بل وقيل المسؤول عن تدريب الكتائب المسلحة التي أمر المفتي بتشكيلها استعداداً لعودته الى البلاد ومواجهة التطورات فيها . أصبح المذكور في الأشهر التي سبقت اغتياله أحد الوجوه الفلسطينية التي تتهيأ للقفز الى الصفوف الأولى في الزعامة الوطنية . وقد تحدثت بعض الصحف أكثر من مرة عن مواقفه الوطنية مما جعل العمة روحية تتيه فخراً مهنئة نفسها على هذا الصهر المهم المتنفذ المشهور الذي كادت في ساعة عمى قلب أن ترفض تزويجه زهرة

اغتيل في ساعة متأخرة من احدى ليالي كانون الأول الزمهريرية . كان ينتظر زيارة بعض الشخصيات المهمة كما قال لزهرة ، لذا طلب منها أن تنام باكراً مع طفلها الرضيع لأنه لا يريد أي ازعاج من أي كان . لم تكن نامت بعد عندما سمعت طرقات على الباب . كان الوقت متأخراً فالساعة تجاوزت العاشرة . رغبت في أن تسترق النظر لعلها ترى القادم ، أو القادمين ، عندما شقت سكون الليل زعقات ثلاث طلقات رصاص . أصابها الشلل وهلة غير مدركة ماذا يعني

ذلك ، ثم هرولت مذعورة لتجده مرمياً عند الباب ، نصفه داخل البيت ونصفه خارجه ، وقد تضرّج وجهه وصدره بالدماء ، فراحت تولول بصرخات هستيرية .

لم يتم القبض على الجاني ، أو الجناة ، وحتى الشخصيات المهمة التي قال لزوجته أنه ينتظرها لم تعلن عن نفسها بالرغم من الدعوات العديدة التي وجهت لها عبر الصحف كي تتقدم وتدلي بشهاداتها . لم يعثر المحققون على أية أوراق أو مستندات أو وثائق في منزله أو مكتبه تفيد في الامساك بأي خيط قد يقود إلى كشف الفاعلين . . أدى كل ذلك إلى فتح الأبواب على مصراعيها أمام جملة من الشائعات والتخمينات التي دارت حول الجريمة في طول البلاد وعرضها . صار الكل متهمين ، وحامت الشكوك حول أعدائه وأصدقائه على السواء ، اليهود والانكليز والعرب . اشاعة قالت ان اغتياله حلقة من حلقات الصراع بين رجال المفتي على المناصب والمكاسب ، وقد هدد صعود نجمه السريع مركز البعض فقرر التخلص منه . وعزّز متبنّو تلك الاشاعة ادعاءاتهم بموضوع الشخصيات المهمة التي كان ينتظر زيارتها بفارغ الصبر ، وبتكتّم دفعه إلى اخفاء أسمائها حتى عن امرأته . فهو ، قالوا ، لن يستقبل في بيته في ذلك الهزيع الأخير من الليل إلا رجالا يأتمنهم ويعمل معهم

اشاعة ثانية رجحّت أن تكون الجريمة ثمرة ذلك الصراع التقليدي على الزعامة الفلسطينية بين المفتي وخصومه . وأن هؤلاء لم يستطيعوا الوصول الى الحاج أمين ، أو أنهم أرادوا تحذيره خصوصاً بعد أن انتهت الحرب الى هزيمة المانيا وانتصار الحلفاء ، فاختاروا مسعود أبو ماجد الذي بدأ يصبح رجل المهمات السرية للمفتي ليضربوا ضربتهم ويبلغوا رسالتهم

اشاعة ثالثة ، كانت الأقوى والأكثر قبولاً ، تبنّت فكرة أن اليهود اغتالوا الرجل انتقاماً لمقتل أحد أعضاء عصابة الأرغون البارزين قبل أسبوعين في القدس نفسها .

اشاعة رابعة حاولت ربط الجريمة بخلافات عائلية حول بيارة قيل ان

المغدور استولى عليها زوراً من أبناء عمه .

وبالطبع كانت هناك اشاعات ، بالأحرى تخمينات ، أخرى . فالجناة ظلوا مجهولين كما في معظم حوادث الاغتيال التي شهدتها وتشهدها وستشهدها فلسطين . والبلاد ، في أجواء ما بعد الحرب وقبل النكبة ، كانت تربة خصبة لإنبات مئة قصة وقصة حول كل قضية وحادثة وجريمة ، فكيف إذا كانت بحجم اغتيال مسعود أبو ماجد !

وقعت الجريمة كالصاعقة على رأس العمة روحية . اصابتها في الصميم وأرجعتها إلى سوداويتها وكآبتها وشرودها وانكماشها على نفسها بعد أن حسبت أن الدنيا بدأت تبتسم لها ، وأن ما افتقدته طوال عمرها ستعوّضه عن طريق ابنتها زهرة . صارت على يقين أن القدر اختارها هدفاً لمحنه ومآسيه اوحقاراته ، وأنها لن تكون إلا حورية المنحوسة المشؤومة ، بدءاً من ولادتها عرجاء مروراً بالجدري وزواجها من نصف المجنون وحرمانها من وحيدها ، وأخيراً ، وليس آخراً ، اغتيال صهرها لتترمل ابنتها الصبية وفي رقبتها طفل رضيع قبل ان ترى من الدنيا شيئاً .

كم هي حقيرة ولئيمة الدنيا عندما تضع دأبها ودأب امرأة مسكينة كروحية !

ـ ٢٠ ـ

نيويورك ١٥ـ٣

استعيد شيئاً فشيئاً ذلك الشعور بالسكينة الذي افتقدته منذ انطفأت تلك الدهشة التي تصيب المرء ما أن يحط رحاله في نيويورك ويلهث لاكتشافها في اسرع وقت ممكن فيكتشف ، محنقاً ، أن ذلك حكر على الله والشيطان وحدهما .

هل طمأنينتي حقيقية أم هي وهم سرعان ما يتبخّر تحت أشعة الواقع الحارة ؟ وصلت مع إدارة الشركة إلى حل وسط يقضي بأن استمر في عملي إلى نهاية نيسان أنجز ابانها مخططات مشروع جديد ، ومن ثم احصل على نصف

تعويضي ان قررت الاستقالة . اتفاق معقول أعاد لي بعض حماسي وثقتي بنفسي .

احاول منذ يومين الأتصال بعكا . الخط إما مشغول وإما معطل . لا أريد أن اقلق . لكن ما تنشره الصحف ، اسرائيلية وامريكية ، يفيد أن الاحوال ليست على ما يرام هناك . الاعتقالات يومية في صفوف عرب الجليل والمثلث . النيويورك تايمز تتحدث عن مصادرات واسعة للأراضي وعن حملات احتجاج ينظمها الفلسطينيون . المصادرات ليست جديدة ، وقد تكون شملت الكفر . أما الجديد فهو الاحتجاج العلني . يبدو أن اموراً كثيرة تغيرت في الآونة الأخيرة . كانت هيفاء حذرة في كلامها أمس . قالت انهم قدموا طلب الاستئناف لكنها ليست متفائلة . تجنبت حتى أن تذكر اسم احمد النجار الحفيد . وضع العجوز الصحي يزداد تدهوراً . عزت لم يزر اباه منذ أسبوع . هل بلغ الأمر هذه الدرجة من السوء ؟ . أحاول الا أقلق . لكن عبثاً . . ماذا يمكن ان يحصل أسوأ مما هو حاصل منذ سبعة وعشرين عاماً ؟ السجن ونحن فيه منذ سبعة وعشرين عاماً . الوطن ضاع منذ سبعة وعشرين عاماً . الخوف عمره سبعة وعشرين عاماً ، وكذلك اليأس والاستسلام والعجز .

ـ اكثر من القرد ما مسخه ربه . .

حكمة ، أظن ، اعتادت أمي أن تلوذ إليها كلما أرادت أن تخفف ، عن نفسها وعنّا ، وطأة ما يظهر أنه مصيبة أو مشكلة مستعصية الحل . لو كانت لا تزال حية لقالتها متضاحكة . . لا . لا أظن أنها ستضحك في مثل هذا الوضع .

المرة الأولى التي سمعت فيها هذا المثل ، لينطبع في ذهنك متلازماً مع جرس موسيقي بلهجة أهل نابلس الممطوطة الساخرة التي تعرفت عليها بعد حرب ١٩٦٧ ، كانت يوم صدر الحكم بسجن أبيك . خرجت أمك في الصباح يرافقها عزت ، ورجعا حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر . ماكنت آنذاك في عمر يسمح لك باستيعاب كل ما يدور حولك . ترقرقت الدموع في عيني عزت وهي تبلغك وديب أن أباكما سيتغيب عن البيت سنتين ونصفاً أيضاً . بكى ديب

فبكيت لبكائه . ما عرفت كيف استطاعت أن تظل متماسكة ، بل وأن تضحك وهي تداري عينيها عنكما .

ـ السجن للرجال ياأولاد . ما عملناه شرف لنا لأننا قررنا أن لا نترك بيت الصالح لليهود يستولون عليه ويرموننا في زريبة ، رفعنا رأسنا عالياً وجعلنا هم يفهمون أن جوزتنا لا تنكسر . الله رحم جدكم فأخذه قبل أن يرى كل هذه المصائب . . . أبوكم مثله مثل كل رجال فلسطين . ونحن مثلنا مثل كل الفلسطينيين . على كل حال أكثر من القرد ما مسخه ربه .

ووسط دهشتك ضحكت . ضحكت بتلك الطريقة الهازئة الصفراء لمن أسقط في يده . ثم تدرك لا حقاً أن هناك ضحكاً فيه من البكاء اكثر من البكاء نفسه .

ويجفوك النوم تلك الليلة . النوم جفا الجميع . خديجة تجوس كرقاص الساعة بين المطبخ والحمام تزيدك توتراً وقلقا وتحسباً ، ثم تقف لتتبادل مع عزت حديثاً خافتاً غير مفهوم . تنادي ديب وتلكزه تريد أن تسأله ماذا سيحل بكم ، لكنه ينهرك أن تخرس وتنام . وتنام لا تعرف متى لتحلم بذلك القرد الممسوخ يفزعك ويلاحقك ويهددك ويسبّك .

وعندما أعلنت اسرائيل انتهاء حرب حزيران كان لا بد وأن يتكرر ذلك المثل بسخرية ومرارة ووجوم وحقد . صعب ، بل ومستحيل وصف تلك الأيام بلحظاتها الدهرية القاتلة التي كانت تأبى أن تنتهي ، وهل هي انتهت حقاً ؟ كنتم ، عرب اسرائيل ، تعرفون أكثر من غيركم حقيقة الأمر . فأنتم على تماس يومي مع عدوكم ، لكن ذلك لم يمنعكم من أن تحلموا تلك الأحلام الصغيرة المعقولة التي لابد منها للافلات من قبضة ذلك الواقع اللئيم الذي ما كان يكف عن الاطباق على أنفاسكم حتى الاختناق ، أحلاماً تحملكم على متنها إلى تلك العوالم الوردية التي يتفنن الأمل ، أو اليأس ، في تشكيلها . التحرير ، الكرامة ، الانتصار ، زوال الكابوس ، العودة ، عودتكم إلى تلك الفلسطين والى ذواتكم . علم فلسطين ونشيد فلسطين . اجتمعت العائلة كلها في بيت

أبيك بعد ساعة من اعلان اذاعة اسرائيل بدء الحرب . كانت ضحكة خديجة شبراً . بدت أجمل وأكثر حيوية ، بل وامتشق قوامها وهي تتمايل بنشوة .

ـ نذر علي أن أكون أول من ينزل الى الشارع ليرقص .

وتدور حول نفسها تريكم كيف سترقص . تتمايل وتهتز وتنثني بخصرها ومؤخرتها حتى تكاد تقع . تمسك بيدي عزت وأحمد الصغير تدور معهما وبهما تعانقهما وتقبلهما وتقهقه . تضحكون وتصفقون وتصفّرون وتصرخون وتتمايلون واثقين بأنها سترقص ببراعة نجوى فؤاد ، وبأنكم كلكم سترقصون . تتمايل وتنثني وتدور وتلهث وتتعب ويتفصّد عرقها وترقص وتدور وترقص وتتمايل وتدور وتنثني وتزداد حدة تصفيقكم وهتافاتكم وايقاع خبطات أقدامكم على الأرض حتى تروح الغرفة تدور والبيت يدور وعكا تدور فلسطين تدور والعالم كله يدور وتصفقون بعنف وتحد إلى أن تسقط من الاعياء وأنتم تشرقون بضحكاتكم التي صارت أصفى وأنقى .

لكنهم هم الذين رقصوا في اليوم السادس . لم يبق يهودي لم ينزل الى الشارع يرقص كالمجنون في كرنفال وحشي بدا أن لا نهاية له . وهو لما ينته حتى الآن . واكتفيتم أنتم بأن تزدادوا تقوقعاً في جحوركم التي ازدادت ضيقا تسحقكم بكوابيسها وأشباحها وغيلان جرذانها . .وتتساءل الآن كيف أمكنكم أن تخرجوا ثانية من تلك الجحور لتستمروا في الحياة ، كيف لم تذوبوا تحت نظراتهم الحارقة المنتشية المنتصرة المتشفية المحتقرة ؟ .

لعل خديجة لم تخطىء . أكثر من القرد ما مسخه ربه . صورة جاكي تبهت في ذهنك . جرح هجرها بدأ يندمل ونيويورك تهضمك . هي ستهضمك رضيت بذلك أم ابيت ، محباً لها أو كارهاً أو لا مبالياً . أنت هنا ذرة من تراب مثلك مثل ملايين الذرات الأخرى . الناس المستعجلون دائماً وأبداً . الحياة المستعجلة . تحث الخطا تهرول وتركض كأنك تتحرق للانتهاء من كل شيء وبأسرع وقت ممكن ، كأنك تريد أن تكتشف ذلك الما وراء العالم والأفكار والقيم والمعتقدات والحدود . لم تعد الحياة تكفي ابن آدم لينجز ما يريد . هل فكرت

أن تصعد الى سطح احدى ناطحات السحاب العملاقة . ؟ هناك تتكيء على السور كما لو أنك تقف على هامة واحد من تلك الوحوش الخرافية المنقرضة . تتطلع الى المدينة في الأسفل . بشرها كما النمال يتحركون يركضون يتحاشدون والسيارات تتكوم لتشكل أحد زواحف العصور الحجرية . وتتسلق الضوضاء إلى أذنيك كحشرجات محتضر فينتابك الخوف وتلفّك الوحدة وتود لو تلقي بنفسك إلى تحت لتكتشف كيف هي بداية الكون والحياة . لكنك أجبن من أن تفعل ذلك . تنزل الى الأرض ثانية وتنظر الى الأعلى . حتى السماء بعيدة هنا لا ترى منها غير رقع كما لو أنك تنظرها من قرار بئر عميقة باردة موحشة .

هل يكون الأمر مماثلاً لو أنك ما جئتها فلسطينياً ، وهل هو الشعور ذاته لو أنك حللت في مدينة غيرها ؟ هل هي الغربة نفسها ، الواحدة الوحيدة ، تلاحقك هنا وهناك وفي كل مكان كظلك ؟ .

كم أشتاق إلى تلك الهيفاء البعيدة ، الى عشنا ينغلق علينا ثانية ، الى تلك المدينة التي اسمها عكا ، إلى ذلك الشاطيء الناعس يقودني كيفما جئته الى ما كان ذات يوم تلة مرت عليها بلدوزراتهم تسوّيها بالأرض وترفعها من ثم منطقة سكنية حديثة مزدحمة . ما عليّ إلا أن أجيل الطرف فيها كامداً محتقناً حسرة وغيظاً وحقداً . وهناك ، حيث كان ثمة بيت لآل الصالح واحترق ، سمقت عمارات متناسقة صامتة . وفي الساحات ، حيث كنا نتدافع ونلعب ونلهو أطفالاً لاهين غافلين ، يتدافع ويلعب ويلهو أطفال أصحاء وسيمون عبريتهم تزاحم عربيتنا في الفضاء .

تجنبت أمي دائماً زيارة الضاحية . تكتفي بأن تقف عند الشاطيء تمد نظرها تنقّب عما اندثر تزيح الاسمنت لتترك لحجارة القلعة أن تتجسد من جديد وتلك الأيام العتيقة . البيت يحترق . . النار تتراقص والبحر يهدر والجبل يقترب . على العكس كانت خالتي سعاد. تجولت في الضاحية مبهورة مُستثارة تروي لهيفاء قصصاً من ذلك الماضي البعيد . هنا ، إن لم تخنها الذاكرة ، كان البيت . من هناك تمتد الطريق الترابية لتبدأ الخمسون درجة العريضة . الى

اليمين ربضت ورشة أبي ، أحمد النجار عاشق خديجة الصالح المجنون . على كتف الورشة شجرة ليمون اعتادوا أن يلتهموا ثمرها قبل أن ينضج . تحدثها باعتزاز عن جدها فارس الصالح ذلك الوجيه العكاوي المرموق ، عن عكا والسور والخان والعرب واليهود والانكليز . ويتلون وجه هيفاء وأمها تسألها إن كانت تتذكر شيئاً . تتضاحك الصبية بدهشة وخفر وتنتابني مشاعر الغبطة وهيفاء تقترح علي أن نتمشى إلى الشاطىء . ترمي خالتي جسدها الثقيل على مقعد ظللته شجرة زيزفون باسقة وهي تشير لنا بيدها أن نذهب . ونسير صامتين وكل منا غارق في البحر الأزرق الواسع وأفكاره نستعيد ، على الأغلب ، ذلك الماضي الدافىء وتلك التلة التي لم تعد مرئية . .

ذلك المساء ادركت أنني أحب هيفاء . لكنني لم اتوقع أن تجري الأمور بتلك السرعة القياسية وأن نتزوج خلال أسبوعين . كان زواجنا الموضوع الوحيد الذي توافقت أمي وخالتي عليه في إطار سلسلة من التناقضات والمهاترات المستهجنة التي ميزت علاقتهما منذ اللحظة الأولى للقائهما . لم نكن انتهينا من الترحيب بها عندما اعلنت خالتي أنها تفضل الاقامة في أحد الفنادق ، فالبيت صغير وهي لا تريد ازعاج أحد . توجهت إليّ تسألني عن أفضل فندق في عكا . لم تفكر أمي كثيراً قبل أن تسارع تقول بفظاظة .

ـ صرت استرالية ياسعاد وما عادت تعجبك ضيافتنا . أم أن بيتنا ليس من مقامك ؟ .

فوجئت المسكينة ، كما كلنا ، بتهجم أمي المرير . لكنها صمتت . وتراجعت عن قرارها بعد أن أقسم أبي ، وأمي تحدجه شذراً ، يمين الطلاق بأن تنزل عندنا . كانتا كالديك والدجاجة لا تترك أحداهما فرصة تمر دون أن تنتقد الأخرى . تكيدان لبعض كما طفلتين شقيتين ترفضان أن تتفقا حتى على أن الأبيض أبيض والأسود أسود . كان خلافهما الأشرس ، بعد قصة سفري لاستراليا ، على ترتيبات زواجنا ونوعية المدعوين . أرادت خالتي أن نقيم حفل الزفاف في أحد الفنادق أو النوادي ، وان ندعو أكبر عدد من الأقارب

والأصدقاء ، وهي مستعدة لأن تتحمل معظم التكاليف . لكن أمي رفضت . وأصرت أن نتزوج في البيت وأن لاندعو إلا الأهل .

أدى نقارهما الى توتير الأجواء لدرجة هددت بالغاء زواجنا بعد أن أقسمت كل منهما أن تقاطعه إذا لم يتم حسب رغبتها . . وتزوجنا في البيت ولم تقاطعه خالتي .

بالرغم من كل ذلك لم يكن يترسب عن خلافاتهما أي حقد أو حرد . تنتهيان من شجارهما لتصفو العلاقة بينهما وكأنهما لم تكونا تتبادلان لتوهما كلاماً قارصاً وسباباً بذيئاً فاحشاً لم يسبق لي قط أن سمعت أمي تتفوه به أو تخيلت أن خالتي تجرؤ على التلفظ به .

ارسلت خالتي تبلغهم أنها ستأتي إلى عكا الشهر القادم . بوفاة أمي زالت ، على ما أظن ، الأسباب التي دعتها لتقسم في زيارتها الأخيرة ، قبل عامين ، ان رجلها لن تطأ أرض فلسطين ثانية . ألحت علينا كثيراً أن نسافر إلى أستراليا حيث معالجة العقم متطورة . لكن أمي قالت أيضاً لا لم تر في تلك الفكرة إلا حيلة لاستدراجنا إلى هناك . رفضت ، لدهشتي ، حتى الحجة التي تذرعت بها خالتي بأن الاخصائيين بالعقم ، ومعظمهم من اليهود ، لن يهتموا كثيراً إن انجبت المرأة العربية أو لم تنجب ، وهم في الأساس لايريدون مزيدا من العرب . كعادتنا تركناهما تتجادلان دون أن ننحاز إلى أي منهما . . كنا قد سئمنا تناحرهما اللانهائي حول كل شيء

سافرت خالتي لاعنة غاضبة . وهاهي تعود الآن بعد أن خلا لها الجو . أتخيل مخططها بحذافيره . ما ان تصل حتى تبدأ الحاحها على هيفاء . ماذا بقيت تفعل في عكا وأنا في نيويورك ؟ هل نحن مجانين أم مجانين ؟ وماذا تريد أحسن من نيويورك لمعالجة العقم إن كان هناك أمل ؟ .

هناك أمل لكن العملية الجراحية قد تشكل خطراً على حياة هيفاء ، وهذا ما يجعلنا نتريث ونحسب ألف حساب . إن عرفت خالتي ذلك ستخفف كثيراً من غلوائها وحماسها والحاحها . . .

أعتقد أنه لايزال هناك متسع من الوقت لكل ذلك . لم نعد نتطرق ، هيفاء وأنا ، الى موضوع لم شملنا وكأن كل منا ينتظر قرار الآخر . المسافة بيننا تزداد . ألا تفكر هيفاء أحياناً انني أخونها ؟ هل يعقل أن تصدق أن كل مغريات نيويورك لن تجرني إلى مهاويها ؟ لقد عاشت في استراليا ، لكن مشكلتها أنها تربت على أكثر التقاليد الشرقية تزمتا . كنت وضعت في حسابي احتمال أن لا تكون عذراء . فترة التعارف القصيرة التي سبقت زواجنا لم تترك لي المجال كي أسألها عن أي شيء . عن علاقاتها مع الجنس الآخر مثلاً . لكنني اكتشفت ، سعيداً ، انني الرجل الأول في حياتها ، وأن نظرتها الى المرأة والجنس لا تختلف كثيراً عن نظرة الغورانية .

أجهل كيف نجحت خالتي في دمج تقاليد سيدني وعكا معاً . ماذا ستقول هيفاء لو عرفت أنني أخونها ؟ .

أف . . لماذا أفكر كثيراً في الموضوع . ولماذا أعمل من الحبة قبة ؟ .

- ٢١ -

أواخر عام ١٩٤٧ ، والقيامة قائمة في فلسطين بين العرب واليهود والانكليز ، مات فارس الصالح .

فجأة مات دون مقدمات واشارات اعتادت ان تسبق مثل هذا الحدث المأساوي في حياة الانسان . كانت صحته أكثر من حيوية بالنسبة لشيخ في الخامسة والثمانين ، بل وراحوا يتحدثون ، وهم يدقون على الخشب ، عن تحسنه المطرد بعد ان بدأ يتعاطى أنواعاً جديدة من حبوب القلب وصفها له طبيب عربي قالوا انه أول خريج عكاوي من الاتحاد السوفييتي . أمره ذلك الطبيب أن يخفف من الكآبة التي شكت العمة ازدهار أنها صارت طبعاً فيه ، بل ونصحه أن يبحث عن هواية يشغل بها نفسه .

وتجاوب العجوز مع تعليماته بحماس أثار دهشتهم ، وأسعد العمة ازدهار التي كان الطبيب ابن واحدة من صديقاتها القديمات . وبدا ، لوهلة ، أن الحياة

تتجه لأن تكون أكثر ليونة ويسراً معه ، لا ينقصها إلا غياب ذكور الصالح الثلاثة ، والمشاكل المتفاقمة في فلسطين ، والتي برزت إذاك بأشرس صورها في الصراع الذي ازداد دموية بين أطراف المثلث الفاعل في البلاد ، الفلسطينيين واليهود والانكليز ، وفي قرار التقسيم الذي وضع فلسطين تحت رحمة حسابات ومصالح دولية بدت أقوى من الجميع .

في الثامنة مساءً تناول كعادته عشاء خفيفاً ، ولعب من ثم دق طاولة مع أحمد النجار وعزت . كان سعيداً اذ تغلّب لأول مرة منذ عدة أيام على الأب والابن معاً . قال لعزت مازحاً انه يستأهل أرض الكفر . وغمز خديجة وهو يتحدث عن طفولته وشبابه السعيدين في الكفر قبل أن تلعب المرحومة آمنة بعقله وتقنعه بالانتقال إلى عكا كما صار يفعل كل وجهاء وأكابر القضاء . في العاشرة التموا حول راديو عبد العزيز ، ذكره الله بالخير ، يستمعون إلى نشرة الأخبار . وكالعادة لم يكن فيها ما يسر . اغتيالات وتفجيرات وقتلى ووعود وعهود وتهديدات واشتباكات واحكام سجن بالجملة .

الخبر الجديد كان في اعلان المنظمة الصهيونية أنها ستوحد قواتها وكتائبها العسكرية ، وهي جيش اسرائيل والأرغون وشترن ، للقيام بما أسمته حملات تأديبية ضد العرب على طول شاطىء فلسطين

انتهت النشرة وقرر العجوز ان الحياة لم تعد تطاق في فلسطين ، فالشخص لم يعد يأمن على حياته من رصاصة انكليزية أو قنبلة يهودية . تحدثوا من جديد عن قرار التقسيم . اتفقوا على أنه لن يرى النور بأي شكل من الأشكال . فلسطين للفلسطينيين واليهود أعجز من أن يحققوا شيئاً . قال أحمد ان توحيد القوات المسلحة اليهودية أمر يثير القلق ، وإذا صّحت الأنباء التي تتحدث عن شحنات أسلحة من الغرب والشرق يجري توريدها لليهود بتواطؤ من قوات الانتداب البريطاني ، فإن ذلك يعني أن الأوضاع أصبحت مخيفة . أضاف أن أنباء تل ابيب تؤكد أن الانكليز بدأوا بتسليم اليهود الدبابات والطائرات ، كما بدأوا يهيئون لتسليمهم الثكنات العسكرية التي سيخلونها .

لكن العجوز اتهم أحمد النجار بأنه يبالغ في تهويل الأمر وتضخيم الوضع . قال ان اليهود لن يستطيعوا الصمود أمام الفلسطينيين ما أن ينهي الانكليز انتدابهم ، وأفضل لليهود وقواتهم وجيشهم الصوري أن يغادروا فلسطين مع الانكليز قبل أن تدور عليهم الدوائر .

وراح ، فارس الصالح ، يتحدث بثقة واطمئنان عن الأمة العربية والاسلامية التي تناصر فلسطين والفلسطينين . هي أيام ليس إلا ويتهافت المتطوعون العرب والجيوش العربية على فلسطين ليحموها من المخططات الصهيونية الاستعمارية .

وللمرة الأولى منذ زمن طويل سهر ذلك المساء الى منتصف الليل تقريباً . لم يذهب الى غرفته إلا بالحاح من خديجة التي طلبت منه ألا يرهق نفسه . أمضت خديجة وزوجها وعمتها بقية السهرة حول المدفأة يتسامرون في مختلف المواضيع العامة والخاصة التي يمكن أن تخطر على البال . وكان لفارس الصالح حصة مرموقة في دردشتهم . .

اراد أحمد النجار أن يعرف حقيقة عمره ، لكن ذلك كان صعباً . . ادعت ازدهار انها في الخامسة والثمانين من عمرها ، وأن أخاها يصغرها بثلاث سنوات فقط . قال أحمد انه يحسده على تفاؤله وثقته ، ويتمنى لو أنه كان مثله . . لكن الجو العام في عكا ليس على هذا الشكل الوردي . منذ صدور قرار التقسيم توقفت حركة السوق ، لم يعد هناك لا باعة ولا مشترون ، يضاف إلى ذلك أن اليهود أوقفوا أعمالهم التجارية مع العرب وبدأوا يعرضون عليهم بيع مصالحهم بأسعارٍ مغرية قائلين :

ـ بيعوا الآن أحسن من أن تفقدوها بعد عدة أشهر . عكا ستكون لنا ولن نسمح ببقاء عربي واحد فيها بعد التقسيم .

اكتفت خديجة بالحديث عن أبيها . قالت انها سعيدة لأنه بدأ يعود ، ولو متأخراً ونسبياً ، إلى طبيعته السابقة معها . . لم يعد يتجاهلها أو يتجاهل النظر إليها . وسألت العمة ازدهار ان كانت لا حظت غمزته لها وهو يتحدث عن

أرض الكفر . إنها الغمزة الأولى منذ خمسة عشر عاماً . هل يعني ذلك أنه قرر أن ينسى وأن يصفح ؟ وهزت العمة ازدهار رأسها بالايجاب . قالت انه لا بد أدرك أن الحزن والحرد والاكتئاب لا أمل فيها ، وأن الحياة لا يمكن أن تستمر على منواله الشاذ الى الأبد . ها أولاد خديجة يَحْبون ويترعرعون ويشبّون تحت بصره ورعايته وفي كنفه يشرحون أكثر القلوب سواداً ، ويمنحونه بعض التعويض عن غياب صبيانه الثلاثة وعمّا يعتبره اساءات ومصائب وخيبات أمل ألحقتها الدنيا به

كانت الساعة تقارب الثانية صباحاً عندما افترقوا . لم تستطع خديجة النوم وراحت تتقلب في فراشها إلى ان ناشدها أحمد النجار ان تهدأ كي يستطيع ان ينام . استيقظت باكراً وأرسلت عزت وديب إلى المدرسة وراحت تلتهي ببعض الأعمال المنزلية . تجاوزت الساعة الثامنة صباحاً وهو لمّا يخرج من غرفته بعد وعادته أن يستيقظ مع شروق الشمس . قالت لنفسها ان السبب قد يكون تأخره في السهر أمس . لكن ذلك لم يمنع القلق من أن يساورها . حوّمت حول باب غرفته دون أن تسمع أية حركةتنبىء أنهمستيقظ . طرقت الباب بلطف فلم يرد . فتحته بهدوء ودخلت ترى ما الأمر . . كان ميتاً .

قالوا ان ما أصابها يومذاك يجل عن الوصف . لم تنتحب . لم تصرخ . لم تنتف شعرها . لم تلطم على وجهها وصدرها . لم تنبع من عينيها دمعة واحدة . . كما لو انها فقدت كل إدراك واحساس . . ارتسم على وجهها سهوم أبله . فقدت نظراتها بريقها وتغضّنت تعابيرها حتى خيف أن يصيب عقلها مسّ . انزوت في غرفتها أكثر من ساعة رافضة أن تفتح لأحد . عندما هددها أحمد النجار بكسر الباب فتحت له وسألته عن سبب الضجة والبكاء في الأسفل . هزّها بعنف يقول ان أباها مات وانها يجب أن تنزل لتقف مع أختيها وعمتيها في استقبال المعزيات . هزت رأسها ببلادة وكأنها تذكرت . طلب منها أن تلبس ثيابها إذ كانت لا تزال في قميص النوم . عندما نزلت استقبلتها تلك العاصفة التقليدية من النواح والصراخ واللطم وإسبال الشعر وتعداد مناقب الفقيد الذي

لا يُعوّض . لكنها ظلت ساكنة جامدة الملامح زائغة النظرات ، ووقفت تتقبل التعازي بوقار أخرس أثار غير قليل من الدهشة والانتقادات والتعليقات والتساؤلات .

فقط ساعة أخرجوا جثمانه من البيت انفجرت في نواح هستيري ، وضُرب نطاق من الأهل حولها خوفاً من ان يزلّ لسانها في ساعة الحزن تلك فتقول أشياء يجب أن تظل طي الكتان . لكنها لم تقل شيئاً . . اكتفت بالبكاء إلى أن خارت قواها .

في الأيام الأولى لوفاته تملكها شعور غريب مقلق فسّرته للعمة ازدهار بالقول انها مسؤولة عن موته . قتلته قبل خمس عشرة سنة . . . قتلته وقتلت نفسها . فوجئت العمة ازدهار . حملقت فيها باستغراب قبل أن تتساءل :

ـ ماذا تعنين ياخديجة . ؟ .

وكأنما شعرت خديجة بأنها تسرّعت ، أو بأنها عاجزة عن توضيح فكرتها ، أو بأنها ماكان يجب أن تقول ما قالت ، هزت رأسها ولاذت بالصمت راغبة عن الكلام . لكن ازدهار لم تسكت :.

ـ يجوز أنني فهمت ماذا عنيت بأنك قتلته قبل خمسة عشر عاماً ، هو هروبك من البيت وما نتج عنه . . لا أوافقك الرأي . لقد أصبح أبوك في ذمة الخالق الآن . رحمه الله وغفر له . . كانت فعلتك غلطة ، وغلطة رهيبة ، لكنها وقعت وانتهى الأمر . صارت من الماضي ونسيها الناس . أنا أكيدة أنه نسيها هو أيضاً . لا يا خديجة . . لا تملأي رأسك بهذا الوسواس الخناس . لقد مات فارس بسبب المرض والشيخوخة ، وكان سيموت في وقته المحدد حتى لو لم تهربي . اكنت تظنينْ أنه سيعيش إلى الأبد ؟

وصمتت ازدهار برهة تراقب ردة فعل خديجة قبل أن تطرح ذلك السؤال الذي ما كف يوماً عن الرفرفة في رأسها :

ـ لكني لم افهم معنى أنك قتلت نفسك . هل تعنين زواجك من أحمد النجار .

وكان دور خديجة لتُفاجأ . ذهب لون وجهها وبدا عليها الاحراج قبل أن تسارع تنفي بشدة :

ـ لا . لا . فهمتيني غلط يا عمتي . . لا . . أحمد احسن مني . لم أعن ذلك أبداً . انني لا أعرف كيف أعبر عن فكرتي . أحمد احسن مني بكثير . . انني . . انني . .

وقاطعتها عمتها :

ـ لماذا تزوجت أحمد يا خديجة ؟ .

ـ نعم ؟

وأعادت ازدهار السؤال باصرار . ضحكت خديجة بحيرة ثم أجابت ببطء منتقية كل كلمة تلفظها :

ـ لماذا تزوجته ؟ وأنت التي تسألين ؟ كأنك تجهلين السبب . أنت التي توسطت له ، وأنت التي اقنعتيني . . كنت صريحة معي صراحة جارحة . لكنك كنت على حق . تزوجته لأتخلص من تلك المصيبة التي رأيتها تكبر يوماً بعد يوم ، لأخرج من ذلك السجن ، بل القبر ، قبل أن يغلقوا بابه عليّ الى آخر عمري بسبب ما فعلت . . نعم . كنت على حق . لو لم يطلبني أحمد وأوافق لما كنت الآن سوى عانس لا يزال الناس يلوكون سيرتها ويدوسون على سمعتها ويحذرون النساء من معاشرتها والسير معها بل والاقتراب منها .هذه كانت تحذيراتك ياست ازدهار ، ولم تخطئي . . ربما لم أكن أحب أحمد آنذاك . بل كان آخر رجل في العالم يمكن أن ارتبط به . أما الآن فأنا أحبه . . أحبه بكل ما يمكن أن يكون للحب من مفهوم ومعنى . انه لم يترك لي سوى خيار أن أحبه . وتعلمت أن أشكر ربي دائماً على الفرصة التي أتاحها لي بأن أصير زوجته رغم كل ما حدث . أفكر الآن كم كنت طائشة بلهاء وحالمة حمقاء . لم أحسب أبدًا أن تلك الغلطة ستسمم حياتي كلها ، وسيكون لها هذاالتأثير المدمر على أبي . لكن كما قلت . كل هذا صار من الماضي الآن ، أو يجب أن يصير . .

توقفت تأخذ نفساً عميقاً . لكن العمة ازدهار عادت بعد فترة صمت

قصيرة تقول :

- أنت لم تجيبي على السؤال ياخديجة . . حتى الآن لم أفهم ماذا تعنين بأنك قتلت نفسك ؟ .

نظرت إليها خديجة بحيرة وشرود . لكنها ظلت صامتة . .

كان يمكن لأحزان خديجة أن تطول لو أن الظروف كانت طبيعية . لكن الأحداث المتلاحقة التي راحت تزلزل فلسطين أجبرتها على استعادة طبيعتها بسرعة تاركة للنسيان أن ينزل بمعوله في أسوار الحزن والذكريات .

وراح ما تبقى من العائلة يتبعثر والنكبة على الأبواب . هاجرت عائلة سعاد الى استراليا في شباط ١٩٤٨ . تركوا ارزاقهم في عهدة الأخ الأكبر لمصطفى المشعلاني على أمل أن يبيعها ويرسل لهم ثمنها . كانوا مستعجلين وكأنهم كانوا يتنبأون بما سيحدث بعد شهرين .

أما العمة ازدهار فاضطرت الى السفر للقدس لترعى أختها روحية التي كسرت رجلها بسقوطها عن السلم . رحلت في أواخر آذار مرغمة وهي تعدهم أن لا تطول غيبتها . لم تخف ضيقها من تلك المهمة المزعجة التي جاءتها على غير انتظار . إلا أنها لم تكن تستطيع أن تتخلى عن أختها في محنتها . عندما قال لها أحمد النجار أن السفر سيرهقها ، فهي بالكاد تحرك رجليها ، وتحتاج إلى من يهتم بها لا إلى من تهتم به ، ضحكت وقالت أن الله خلقها لتتعب ولتخدم الآخرين . . هكذا هي منذ ثمانين عاماً وأكثر

وهم يتوادعون في ذلك الصباح الدافىء من أحد أيام آذار الأخيرة ، حاولت العمة أزدهار أن تخفف الكآبة المسيطرة عليهم بالقول ان الجوّ خلا ، أخيراً ، لخديجة وأحمد ليمضيا شهر عسل لم تسمح لهما الظروف بأن يتمتعا به عندما تزوجا . لكن تلك الفكرة لم تثر سوى ضحكة خبيثة من عزت وديب . عادت ازدهار تؤكد أن غيبتها لن تطول ، وسترجع ما أن تتماثل روحية للشفاء . لكنها لم تعد . اختفت ، وإلى الأبد ، حاملة بعضاً منهم ، ومخلّفة عندهم بعضاً منها .

وهكذا خلا البيت سوى من آل النجار . خديجة وزوجها أحمد ، وأولادهما عزت وديب ووليد .

في نيسان ، حسبما تواترت لاحقاً اشاعات ، أو اخبار ، أو لست ادري ماذا ، وفي معمعة القتال الدائر للسيطرة على عكا ، أجمل مدن البحر الأبيض المتوسط كما يزعمون ، هربت عائلة النجار إلى الجبال ، أو القرى البعيدة عن خطوط النار ، ثم عادت إلى عكا حيث حمتها عائلة يهودية زعموا أن والد أحمد النجار أنقذ ربّها من القتل قبل عشرين سنة عندما أخفاه في ورشته عن أعين عصبة من الشباب الفلسطيني كانت تلاحقه لتقتله

- ٢٢ -

نيويورك ١-٤

تخرج جاكي من مسام جسدك المرهق مخلّفة ذكرى لطيفة يمتزج فيها الأسى بالمتعة والندم بالغفران . نيويورك أيضاً تخفّ عدوانيتها ، أو أن الذي خف هو عداؤك لها . ما عادت تلك المدينة الحديدية الصارمة الاستفزازية اللئيمة ، وماعدت أنت فيها سمكة خارج الماء تتخبط عاجزاً عن الموت عاجزاً عن الحياة .

تتحرر أخيراً من جاكي ، تحس أنك نوعاً ما بدأت تستعيد توازنك وبعض صفائك العقلي ووضوح رؤيتك وقدرتك على المحاكمة بحيادية بعيداً عن عواطفك ومؤثراتك الخارجية وارهاصاتك الداخلية . يضيع ديب في سراديب الفارعة اللانهائيةميناطورا عاجزاً عن الخروج وعاجزاً عن الرؤية .

تود لو أنك بدورك تتقنّع بتلك الكوفية وتتدجّج سلاحاً وذخيرة من قمة رأسك الى أخمص قدميك تطمئن وتستكين وتنطلق باحثاً عما افتقدته منذ الأزل وتخشى الا تلقاه الى الأبد . في أسوار مكهربة تدمّر بوابات صماء لا يتردد منها إلا صدى أخرس يطعنك حتى نخاع عظامك .

تبحث عن العالم والآخرين إذ نسيك العالم والآخرون . تخرج من عكا

لكنك سرعان ما ترجع لاهثاً تغتسل على شواطئها وتتعطر بليمونها وتتعبد لقمرها . هيفاء تنتظرك حلماً ورغبة في الحب . لم تعد هناك دور قديمةتزقزق الحساسين حول بحراتها ويتقافز الصغار يلحقون الفئران أو يهربون منها ، وتمتد العرائش على الجدران في عناق الأم لطفلها . وجه عكا يتغير . .

عندما خرج أبي من السجن سار في المدينة الجديدة وقد عقدت الدهشة لسانه . أبنية الطوابق الأربعة تتكرر نسخاً كربونية تحاول أن تضفي طابعها الجديد على المدينة التاريخية . ضغط أبي على يدي فجأة وسأل أمي :

ـ هل سيعرفون اننا عرب ؟ .

لم أفهم السؤال ، وعلى الأغلب أمي أيضاً لم تفهمه . لكنها وقفت ونظرت إليه طويلاً بدهشة وحنان .

ـ لا . لن يعرفوا . وحتى ان عرفوا لا تخشى شيئاً .

حاول أن يبتسم وحك رأسه الذي لم تبق فيه شعرة سوداء .

ـ أنسى نفسي أحياناً ياخديجة . تعلمت في السجن أن أسرح . أحتاج إلى وقت كي أستعيد نفسي .

التصقت به أمي تتأبطه وقد زمّت شفتيها وسدّدت نظراتها إلى الأمام متجنبة أن تلتقي بعينيه . هو بالطبع لم يقصد الاساءة إليها بحديثه عن السجن . لكنه فيما بعد تعلم أن يصمت صمتاً مطبقاً عن السنوات التي أمضاها فيه . شعر أن أية اشارة الى الموضوع ستُفسّر على أنها تأنيب لها ، فهي المسؤولة عن محنته

فقط بعد أن ماتت ، ولمرة واحدة قبل سفري ، تحدث عن السفاح . بعد شهرين من سجنه جاءهم المأمور الجديد ، اليهودي الروسي ايفان . جمعهم ليلة وصوله يعلن لهم :

ـ لم ترسلني القيادة الى هنا لألعب معكم . دولتنا الجديدة ، اسرائيل الفتية العظيمة ، لا تستطيع أن تحتمل المجرمين والمخربين واللصوص . جئت لأصنع منكم اسرائيلين جيدين أو موتى طيبي الذكر . يجب أن تنسوا تماماً أنكم كنتم عرباً . وأنا لست من النوع الذي يرحم أو يؤمن بالرحمة . فقدت ذراعي

اليمنى في معركة صفد ودفنتها في مرج بن عامر مع كل ما يسمى عواطف انسانية . جئت لانجح في مهمتي ، وأنا مصمم على أن انجح .

كان عبقرياً في ابتكار فنون التعذيب . مات اثنان من السجناء العرب بعد أن أمضيا ثلاث ليال متواصلة عاريين في الفناء لأن ذويهما قدموا شكوى ضده . جن ثالث بعد أن وضعه في الانفرادي قائلاً انه لن يخرجه منه إلا بعد أن ينسخ التوراة كاملة بالعبرية ، وكان المسكين لا يفقه من تلك اللغة حرفاً واحداً . توقعوا أن ينتهوا جميعهم الى واحد من هذين المصيرين ،الموت أو الجنون ، لو لا منظمة انسانية تدخلت لدى السلطات فنقل المأمور من السجن .

تطلب الأمر عدة أشهر قبل أن يستعيد أبي طبيعته ويتأقلم ثانية مع الحياة . . بوجوده ضاق البيت عن استيعابنا ، فتحدث عن ضرورة البحث عن مسكن جديد . العرب يتزحون إلى الريف يتجمعون فيما تبقى من قرى عربية ويتعاونون على إعادة اعمارها . لا يحتاج الأمر إلا إلى قطعة أرض نبني عليها بيتاً أوسع وأرحب . لو أنه يعرف الفلاحة لانتقل الى الكفر حيث يمكن أن نعمل في الأرض ونعيش من ريعها . لكن أمي رفضت الفكرة رفضاً قاطعاً . لن تغادر عكا تحت أي ظرف . علينا أن نتحمل وضعنا إلى أن يفرجها الله . يمكننا أن نعيد ترتيب البيت وأن نتخلص من بعض قطع الأثاث غير الضرورية . نستطيع أن نستبدل الأسرّة الحديدية الضخمة بأخرى خشبية لا تأخذ سوى أقل مساحة ممكنة،وعلى أبي أن يصنع سريراً بطابقين لي وديب . . انها مجازفة غير مأمونة أن نترك عكا . فالخروج منها قد يعني أن لا نرجع إليها أبداً . مشاريع السكن الجديدة مخصصة كلها لليهود ، والبيوت التي يخليها العرب إما تؤجر لليهود أو تهدم في إطار اعادة تنظيم المدينة .

تضامنا مع أمي ورضخ أبي . لم ترق لنا أبداً فكرة النزوح الى الريف ، والتخلي عن عكا الضاجّة بالحياة والصخب وبكل ما يمكن أن تحويه من متع وإغراءات ووعود . . لم تكن مشكلة أبي هي ضيق البيت بقدر ما كانت رغبته في العيش وسط محيط عربي بعيداً عن الطغيان اليهودي الذي بدأ يصبغ كل شيء

بطابعة . لم يعد هناك من أثر منظور لما كانته عكا قبل سنوات ثلاث .

نعم . كل شيء تغير . المدينة صارت غيتو يهوديا . . الأسواق والمحلات والاعلانات والملصقات والصور والمطاعم والفنادق ونمر السيارات والنجمة السداسية والقلنسوات والبذلات واكشاك التلفونات . اختفت تماماً العمائم والجلابيات والسلك والطرابيش والبغال والحمير والكاروات والفلاحون العرب بسلالهم ومنتوجاتهم ونداءاتهم وأسواقهم والغوارنة بتجمعاتهم بحثاً عن عمل . تعلم العرب أن يلبسوا البذلات والبناطيل والجاكيتات والقمصان والافرولات ليضيعوا في الزحام اليهودي . تعلموا ويتعلمون أن يتكلموا بالعبرية ليعيشوا ويدبروا رزقهم . لم يعد العمال يبحثون عن العمل . صار العمل يبحث عن العمال . مشاريع البناء والاعمار قائمة على قدم وساق . وأجور الأعمال القذرة يسيل لها لعاب العرب ، فيتركون مصالحهم ومهنهم التقليدية وأرضهم ، التي تبقّت لهم ، ليشكلوا جيش السخرة في رفع صروح الكيان الجديد . المتعهدون يتنافسون حتى على الطفل ابن العاشرة ، فكل شيء يجب أن يتم حسب البرنامج الموضوع . المرأة نزلت بكل زخم الى سوق العمل ، خادمة وسكرتيرة وغرسونة وعاملة في المطاعم والفنادق وفي أقدم مهنة في التاريخ ، تسفر وتتبرج وتتساوى مع الرجل وتتمرد عليه ، ولماذا لا تتمرد وقد صار الذكر العربي مثلها ، نصف أبن آدم ، وصار لليهودي مثل حظ العربيين ؟!

لكن العربية تبقى لغة الهمس والأفكار والأحلام والأبواب المغلقة على الجحور ، وتظل عكا هي عكا . من ضلع الجليل خلقها الله ورماها في أجمل منطقة بفلسطين . بين الجبل والماء تضطجع حورية حزينة باكية افتقدت حبيبها الغائب المغيّب وضمّت ساقيها عن غرباء لا تفهم لغتهم . آه لعكا بحرها وسمائها وسمكها وخليجها وسورها وناسها وخبثها وثرثرتها . هل أنت قادر حقاً أن ترحل يا أحمد النجار ؟ في السجن تعرّفت على قانونهم الجديد . هل تعرف ما هي العنصرية ؟ انك لا تستطيع أن تصفها بالكلمات ، ولا أن ترسم صورتها وتحدد شكلها وأبعادها . هي أن لا تكون أنت ولايكون احباؤك هم . هي أن

تتكوم على ذاتك وتتقزّم إلى مالا نهاية تحت عيني ساحر شرير يضعك في قبعته ويحولك الى إحدى الهوام التي لم تُكتشف بعد . يأمرونك أن تكون مستقيماً ، أي كذلك الخط الذي يصل بين نقطتين . المستقيم هو الذي يأكل ويشرب وينام ويمشي الحيط الحيط يقول يا ربي السترة . هو الذي يعبد الخالق وخليفته والحاكم والنظام ويخضع ويخرس ويصفّق ولا يفكر ولا يحمل هماً ولا لافته ولا شعاراً ولا يتكلم إلاّ في دوره ولا يشذ عن الصراط المستقيم . ولماذا لا يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتم في الأسر ؟؟ .

في ليلة عكاوية صافية تحملق بعيني ديب الى النجوم القريبة جداً من الأرض . ليس عليك إلا أن تمد يدك تقطف أجملها تعلقه على صدر حورية تخرج من الخليج عارية تتساقط قطرات الماء منها كالندى يذوب عن قرنفلة اكتمل احمرارها .

ـ النجوم سداسية ياوليد ، كل ما حولنا سداسي . يقطعونك الى ستة فستة فستة ثم يرمون أشلاءك في فيافي أوطان العرب والعجم والفرنجة . يجب أن تترك فلسطين الاسرائيلية لترجعها فاتحاً على حصان أدهم وبسيف مهند . الزيتونة والبرتقالة والطفل الجميل والمرأة . تهرب الى النسيان فيرفضك . اهرب اذن إلى اللا نسيان .

لماذا كتب عليك ألا ترجع إلا أسيراً ؟ كم ألف عام كتب عليك أن تتيه في سراديب عالم من البلّور والجليد ؟ لماذا هربت ، وهل كان بامكانك ألا تهرب ؟ هكذا كان الأمر منذ ما قبل الخليقة . في كتب لم تكتب كُتب أن يحدث ما حدث . كلنا مأمورون بأن نهرب من رحم أمنا الى رحم الأرض ، من رحم الأرض إلى رحم المجهول . هل المجهول هو نهاية المطاف ؟ .

عندما علق الخط أخيراً جاءني صوت أبي واضحاً أصلب وأكثر حيوية مما توقعت :

ـ لا تخاف ياوليد . نحن بخير . هيفاء بخير . جروحها بسيطة والحمد لله . أصيبت في مظاهرة الكفر . لا تخاف . مثلها مثل ثلاثة أرباع الناس .

عزت محبوس من يومين . أنا بخير . امرأة عزت والأولاد عندي

ـ اعطني هيفاء

ـ لا تخاف يابا . هيفاء في المستشفى . بشرفي هي بخير . . ستخرج اليوم بكل تأكيد . سعاد عندها في المستشفى والأولاد هستروني . لا يهدأون ولا يسمعون كلمتي .

انقطع الاتصال وغرقت في حيرتي وقلقي وعجزي وهواجسي . لو عرفت في أي مستشفى هي . ماذا حدث ؟ ماذا أصابها ، ماذا أصاب عزت ، ماذا أصاب ديب ، ماذا أصاب أحمد النجار الحفيد ، ماذا أصاب الجميع .

أخرج الى الشرفة . ربيع نيويورك منعش . ناطحات سحابها أكثر الفة في الليل منها في النهار . مدينة الأضواء والعبث والحب والجريمة . فيها يتعايش الفردوس وجهنم . أرفع كأسي في صحة جاكي والرمح ذو النصل المزدوج المقدس . لماذا هواء عكا غير نكهة ، أرضها غير أرض ، سماؤها غير سماء ، بحرها غير بحر ، ناسها غير ناس ؟ .

عليك أن ترجع . ستقف على رأس التلة وتنحدر رملًا إلى البحر . بحر عكا أزرق صاف عميق لا نهائي . هناك تدور حول نفسك وتدور عكا حولك ، يدور البحر والقمر والناس . . تدور كدرويش يحلم بأن يطير . . وترفع قبضتك الى السماء بتحد .

آه يا عكـــا .

منذ تلك الليلة بهتت الابتسامة التي اشتهرت بها عكا على مر العصور . بدأ وجهها الجميل يعرف الاكتئاب والانقباض . صارت ردات فعلها عصبية تنعكس توتراً وضيقاً على الجميع . . لم تكن الأسباب ، يزعمون ، مرتبطة فقط بذلك الصراع الدموي بين العرب واليهود والعرب والانكليز ، أو بالغلاء الفاحش والنقص الحاد في المواد التموينية ، أو بتلك الحرب البعيدة ، وانما كان هناك ، في الدرجة الاولى ، ذلك الاحساس الفطري الغامض بأن الأمور لا تسير على ما يرام ، وأن الناس عندما يسأل بعضهم عن أحوال بعضهم ويجيبون بأنها مستورة وماشي الحال والحمد لله ، انما يدركون في أعماقهم انها لا مستورة ولا ماشي الحال وأن المخفي أعظم .

